أسماء الله الحُسنى

الأصول القِيمية والمعَانى السلوكية في الإسلام

تأليف

عبد العظيم إبراهيم فرج

١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾

«الأسراء ٩»

أسماء الله الحسنى

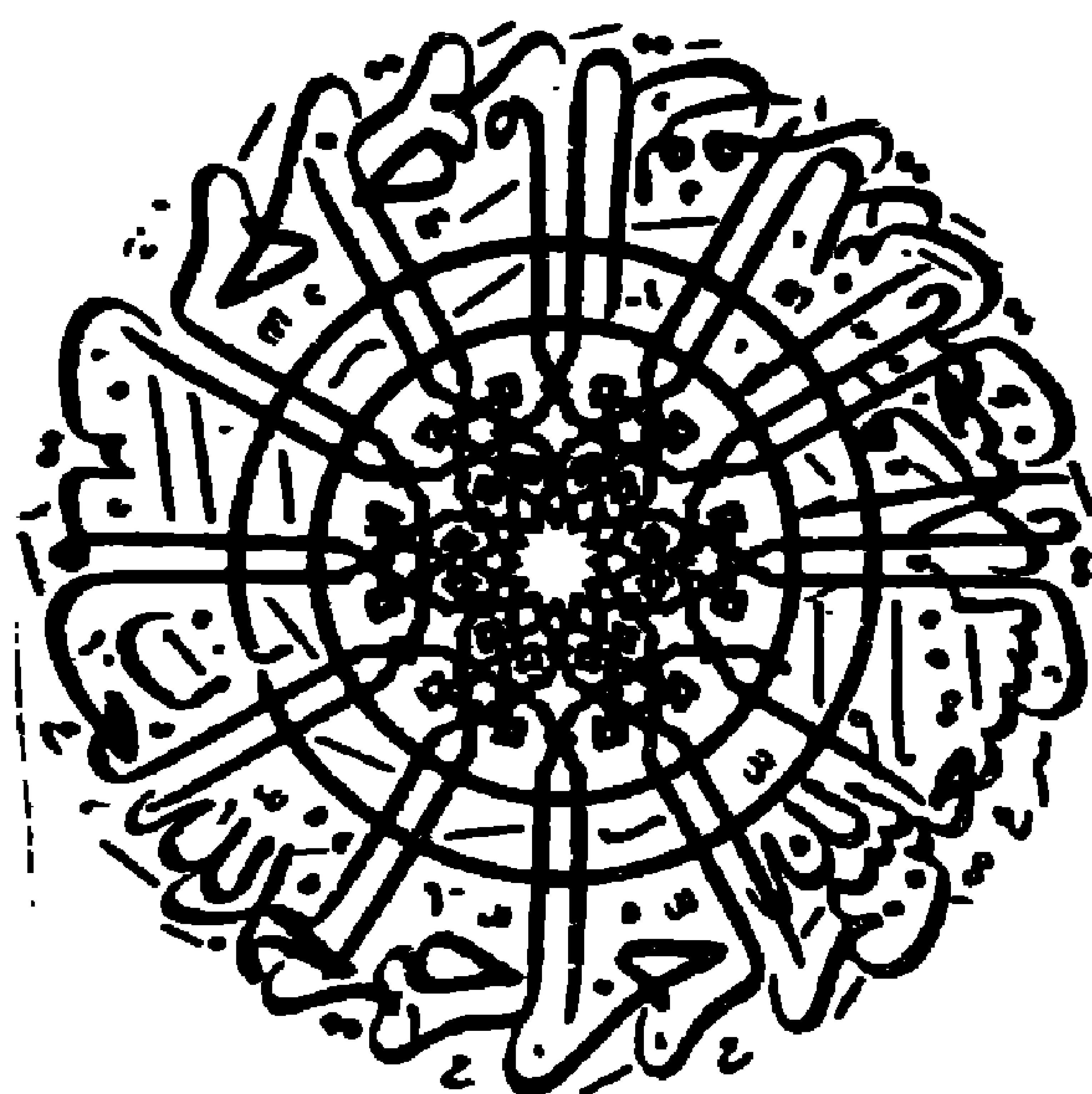
الأصول القيمية والمعاني السلوكية في الإسلام

عبدالعظيم إبراهيم فرج

الطبعة الثانية

١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م

أسماء الله الحسنى



شكر وتقدير

لايسعني في هذا المقام إلا ان أتـوجه بالشكر والتقدير لكل من سـاهم في إخراج هذا البحث، أو العمل على إخراجه بالرأي والمشورة والاطلاع وأخص بالذكر كلا من :

فضيلة الأستاذين الكبيرين محمد الغـزالي وأحمد الصباحي عوض الله، والمرحوم الدكتور زكي نجيب محمود، والدكتور محمـد نايل أحمد، والدكتور محمود الجهني، والدكتور يس عبدالرحمن قنديل، والدكتورة سوسن عثمان.

كما أخص بالشكر والتقدير أعضاء الرقابة العـربية بالمديرية العامة للمطبوعات التابعة لوزارة الإعلام بالمملكة العربية السعودية.

وادعـو الله للجميع بأن يجزيهم عن الإسـلام والمسلمين خيراً، وأن ينفعنـا الله بعلمهم وتوجيههم، إنه نعم المولى ونعم النصير،،،

المـؤلـف

المحتويات

محتـويات الكتــاب

الموضـــوع	الصفحة

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

يحتل مفهوم القيم الأخلاقية في عالم اليوم أهمية بالغة باعتبارها الأداة الضابطة للحفاظ على النظام الاجتماعي واستقراره، إذ تمثل الأهداف والغايات التي يسعى أعضاء المجتمع إلى تحقيقها.

والقيم وإن كانت تعبر عما هو كائن في بنية المجتمع، ومايجب أن تكون عليه تلك البنية، إلا أن الدراسات الإسلامية التي تناولت القيم الدينية هي دراسات محدودة بل تكاد تكون معدومة، اللهم إلا إلماحات وامضة في أفق الفكر الإسلامي عند تناول الجانب الأخلاقي تشير إلى تلك القيم الروحية أو العليا التي يتمتع بها الإسلام، وهو كلام فيه تعميم مبهم لمن أراد الوقوف عليها وعلى خصائصها ومدلولاتها أو حتى موقف الإسلام من تلك القيم الاجتماعية المنهارة التي أدت بالإنسان إلى بتر العلاقة بينه وبين خالق الكون، وبينه وبين أخيه الإنسان، وبين ماهو مرئي وغير مرئي، وولدت الصراع القيمي الذي هدد الكيان البنائي للقيم الدينية، واختلط الأمر في الذهن بين معيار السماء ومعيار الأرض، وبدت التفرقة واضحة بين مايعنيه الخير ومايهدف إليه من بر ورحمة، كذلك العدل من مساواة وإنصاف، حتى أصبحت الأغلبية من البشر لها منطق خاص في تبني قيم وتأويل مثل، فترادف الخير بالنفع وافتقد العدل الاجتماعي لمدلول الفداء والتضحية.

وحينما يُعدُّ الإنسان نفسه ليصبح هو مقياس الحقيقة في ذلك الكون وهو المشرع لها فقل على الدنيا السلام. لأن المعيار الأخلاقي لايمكن أن يكون معيارًا أرضياً يستند إلى منطق نفعي إلا إذا كنا في غابة يفتقد أفرادها للحس الخلقي والشعور الإيماني، وكفى ماجلبته لنا الاصطلاحات والرموز، وما آلت إليه القيم الاجتماعية من صراع قيمي تولد من تلك التغييرات التي اعترت بنية المجتمعات، تغيراً جعل من المتعذر على الحياة أن تسير سيرها المألوف، وكما أراد لها الله تعالى فانتبذت من قيمها التقليدية ما انتبذ، وشابت العلاقات الإنسانية نظرات نفعية، وانعكس ذلك على المستوى الأخلاقي العام، بل وفشل دورها في تأكيد الالتزام الخلقي، وأوشكت أن تؤدي ببعض - إن لم يكن - بكل المعاني القيمية الروحية إلى التأويل والتحريف بما يتفق وتلك النظريات النفعية المستوردة التي أخذ يلهث تجاهها من لايؤمنون بالله وبالمثل العليا. ولذا فقد حاولت الاجتهاد المشروع والمطلوب من كل مسلم حريص على دينه

ومجتمعه وأمته حتى يخرج هذا الكتاب (أسماء الله الحسنى - الأصول القيمية والمعاني السلوكية في الإسلام) إلى حيز الوجود لعله يعطينا دلالات واضحة عن المثل الأعلى في الإسلام بمفهومه القيمي. ذلك هو موضوع الكتاب الذي بين أيديكم.

ولايفوتني أن أتوجه بالشكر لكل إنسان توسمت فيه الفضل وأجاب عن رغبة حقيقية أو رهبة عفوية لأهمية البحث، فقد كان ذلك منه إشفاقاً علي لخطورة البحث وتشعب مناحيه، فإن كنت قد وفقت فذلك توفيق من الله عز وجل، وإن لم أكن كذلك فيكفيني قصد السبيل، وعلى من هو أجدر وأوعى أن يستعين بالله في طرحه مرة أخرى، كما استعنت بالله ثم بجهود من سبقوني وكان لهم الفضل علي، خاصة الدكتور محمد نايل أحمد عميد كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر «سابقاً» الذي خص الكتاب بكلمة منه ملؤها الحكمة والتواضع، كذلك الدكتورة سوسن عثمان عميدة المعهد العالي للخدمة الاجتماعية بالقاهرة التي كان لرأيها في الكتاب إعطاء دفعة كبيرة لإخراجه إلى حيز الوجود باعتباره إضافة جديدة للمكتبة الاجتماعية والإسلامية، لتناوله موضوعاً من أهم الموضوعات وأصعبها، واعتقادها الجازم بأن الساحة العربية، بل العالمية في مسيس الحاجة إليه.

وأشيد كذلك بالجهود الطيبة التي بذلها الأستاذ الفاضل الشيخ أحمد الصباحي عوض الله عضو لجنة التعريف بالإسلام بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة في مراجعة الكتاب وبأن يقينه أنه سيكون هادياً لمن قرأه من غير المسلمين، وكذلك الدكتور يس عبدالرحمن قنديل الذي قال «ما أحسبنا التربويين بحاجة إلى تربية تهدف إلى أكثر من الوصول بالنشىء إلى أبعد من هذه الصفات، وهل بعد صفات الخالق من شيء»؟!.

والله ولي التوفيق.

المؤلف

لاشك أن هناك إزدواجية أخلاقية في تراثنا الفكري بين الأخلاق الدينية الإسلامية والأخلاق الفلسفية، وأن جميع الدراسات الأخلاقية على قلتها قد اتجهت للبحث عن الفضيلة وتناست القيمة، رغماً من أن هناك تقارباً بينهما، إلا أن هناك تبايناً بين المفهومين، ذلك التباين الذي يجعل من الفضيلة عنصراً قد تهواه النفس لتضعه بجانب عناصر الرذيلة باعتباره قدراً زائداً عنها في القيمة، لكن الأمر بالنسبة للقيمة الأخلاقية في الإسلام مختلف تماماً. . . فهي الأصل الخلقي والوصايا السابقة في الكتب المنزلة. بمعنى أوضح هي وحي الله للأنبياء وخصائص التكريم للبشر.

وليس معنى هذا أن نهدر قيمة الفضيلة على حساب إحسان القيمة أو استحسانها، بل نؤكد أن دوام الفضيلة مرتبط بوجود القيمة، وليس وجود القيمة مرهوناً بوجود الفضيلة أو عدمها.

ورغماً من أن ديننا الإسلامي دين قَيِّم في جمله، ودين قِيَم في تفصيلاته، إلا أن الدراسات الأخلاقية لم تحاول التوصل إلى بيان الأصول القِيمية في الإسلام وإظهار قيمه التي تستند لتلك الأصول لجعلها هي الإطار المرجعي المحدد للسلوك والأداء، أو الإطار المرجعي الذي يستند إليه التوقع السلوكي.

ولو رجعنا للدراسات التي تكلمت عن القيم لرأيناها قد تناولتها إما من زاويتها الفلسفية، أو علاقتها بالعادات الاجتماعية، أو أثرها في تكوين الشخصية، أو علاقتها بالتربية، بالإضافة إلى دراسات أخرى حملت معها فضائل منتقاه تحت اسم القيم الخلقية، أو دراسات سميت بالفضائل الخلقية في الإسلام، وكلها حملت اتجاهاً أخلاقياً فيه إغفال لذكر الأصول القيمية التي تستند إليها الفضائل التي تحدثوا عنها، ولم يرد ذكر لتحديدها ومدى الالتزام المؤكد قبلها.

وبعد أن تبين لنا افتقاد الأصول القيمية في الدراسات الأخلاقية الإسلامية الحديثة بمايتمشى مع المنهج القيمي الإلهي، نتساءل من أين يستمد الإنسان المسلم أحكامه ومعاييره؟ . . هل يستمدها من نظام متعالٍ عن الواقع؟ . . أم يستمدها من قيم نتجت عن

عادات إجتماعية قبيحة أدت بالإنسان إلى بتر العلاقة بينه وبين خالق الكون، وبينه وبين أخيه الإنسان وسارت تحت شعار المنفعة وتلبست بالخرافات والأساطير وتشبعت بالوثنية، وأصبحت مجرد رموز واصطلاحات عقيمة أدت إلى انفصال الإنسان المسلم عن عقيدته وأبعدت الشقة بين الإيمان والإسلام؟ . . أم نستمدها من تربية بعيدة عن منهج الله ورسله، وغافلة عن تلك الأصول القيمية التي أرساها الله للبشرية جمعاء؟ .

إنها قضية اليوم والأمس نطرحها حسب رؤيتنا لها وتناولنا إياها من زوايا الفكر الفلسفي، والفكر الاجتماعي، والفكر الديني، ونعرض خلاصة ماتوصلنا إليه، وللإنسان أن يختار، وعلى الباحث أن يدقق في انتماءه الحق.

منهج البحث

اعتمدنا في بحثنا على القرآن الكريم والسنة المطهرة، فبدأنا ببيان حقيقة الإسلام والمبادىء العامة التي أرساها للبشرية جمعاء، كذلك الإيمان باعتباره الشرط العملي فيه كمدخل للبحث وتناولنا الآتي :

أولاً : القيم - تقسيماتها وطبيعتها، والنظريات التي حكمتها، والخصائص العامة لها، والعلاقة بين القيم والمعايير.

ثانياً : أجبنا عن سؤال يتبادر دائماً في الأذهان هو «إذا كان الإسلام دين قِيَم في مجمله - كمسلمة - فما هي تفصيلات قيمه ومن أين استمدها؟ وهل تحمل مصدر إلزامي بتبنيها في السلوك الإنساني؟ وما نوعية التميز والتمايز ليضعها الإنسان في ميزان الأفضلية في التبني لتؤكد الجانب الإيماني وتعزز الجوانب الأخلاقية فيه؟ أو ماهي الأصول القيمية في الإسلام، كذلك تناولنا إبراز التفكير الغربي باعتباره عقلي ومنشؤه في تقويم المفهوم الاصطلاحي للقيم الاجتماعية، كما أبرزنا التفكير الإسلامي باعتباره عقلي ووجداني ومنشؤه في تقويم المفهوم الإصطلاحي للقيم الإنسانية.

ثالثاً : أوضحنا الأصول القيمية في الإسلام من خلال الحديث الشريف الذي يحملها، وتعرضنا للمعنى العلمي للإحصاء الوارد به، ثم حاولنا كشف العلاقة الحتمية بين الأسماء والصفات وبين المعنى المقصود أو الأقرب إلى الفهم على ضوء ما جاء في القرآن والسنة المطهرة، وخرجنا منه بمدلول قيمي.

رابعاً : تكلمنا عن معنى الحسنى في القرآن، وأوردنا الأسماء والصفات وفق ما جاءت بها الرواية، وماتوحي إليه من قيم ومدلولاتها وأوضحنا صفات الذات وصفات الفعل مع الفرق بينهما.

خامساً : ناقشنا نظرية الوسط الإسلامي وأثبتنا ما انتهينا إليه بشأنها من أنها توجيه وليس نظرية لأخلاق الإسلام.

سادساً : تكلمنا عن الغاية القصوى لأخلاق الإسلام.

سابعاً : استخلصنا مبدأ عاماً تدور عليه الأخلاق الإسلامية هو (مبدأ التوازن القيمي أو التوازن الخلقي المبني على أساس قيمي)، وتكلمنا عنه، وعمدنا إلى إستخلاص عناصر قيمية له من القرآن والسنة .

ثامناً : خرجنا في هذا الجزء بمايزيد عن عشرين قيمة أخلاقية وفقاً للأصول القِيمية المستخلصة لتصبح هي الإطار المرجعي الذي يتحدد على أساسه التوقع السلوكي للشخصية الإسلامية. بالإضافة إلى مايستخلص مستقبلاً. إن شاء الله .

تاسعاً : أبرزنا جوانب التجربة التطبيقية الحقة بما يعزز مفهوم القيمة المستخلصة بضرب المثل الأعلى والأسوة الحسنة سواء في سلوك الأنبياء أو الصحابة الأجلاء لتعميق المفهوم الحقيقي للقيم الأخلاقية في الإسلام، وبما يتفق مع تلك العناصر القيمية المستخلصة .

عاشراً : خرجنا من نمط الشروحات التي اتسمت بها كل الكتابات إلى دور الدعوة العلمي لبيان حقيقة الأخلاق الإسلامية، وماتحمله من أصول قِيمية .

حادى عشر : جعلنا أسلوبنا موجزاً، واتسم البحث بطابعين متميزين هما أهم سماته : الطابع الديني، والطابع الأخلاقي المستمد من الطابع الديني .

ثاني عشر : اعتمدنا في بحثنا على عدة مراجع لأساتذة أفاضل وعلماء أجلاء مشهود لهم جميعاً بالنزاهة والإخلاص للعقيدة الإسلامية .

ثالث عشر : انتهينا إلى توصيات للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم للمسارعة إلى وضع خطط عملية لتعميق معنى القيم الحقيقية في الإسلام، والتأكيد على السلام النفسي والسلام الدولي .

والله الهادي إلى سواء السبيل .

المؤلف

الفصــــل الأول

- مدخل البحث.
- حقيقة الإسلام والمبــادىء التي أرساها للبشرية.
- الإيمان في الإسلام شرط عملي.

الفصل الأول
مدخل للبحث

حقيقة الإسلام والمبادىء التي أرساها للبشرية :

الإسلام لاينتسب إلى رجل خاص، كما انتسبت الديانات السابقة عليه، بل هو استسلام إرادة الإنسان لإرادة الله بنية خالصة.[1]

ورد ذكره في القرآن في أكثر من موضع[2]. وجاء على وجهين هما : الإخلاص والإقرار.

عن المعنى الأول : (الإخلاص) يقول تعالى عن إبراهيم عليه السلام في سورة البقرة - الآية ١٣١ ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾ - أي أخلص - ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ﴾ أي أخلصت.

المعنى الثاني : (الإقرار) يقول تعالى في سورة آل عمران - الآية ٨٣ ﴿ولَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ﴾.

أما باعتباره الدين الحق الذي لادين غيره عند الله يقول تعالى في سورة آل عمران - الآية ١٩ ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ﴾.

وباعتباره نعمة الله للبشرية، وامتناناً منه (سبحانه) على خلقه، وبأنه الدين الوحيد الذي ارتضاه لعباده أجمعين قال تعالى في سورة المائدة - الآية ٣ ﴿اليومَ أكْمَلتُ لكمْ دينكُمْ وأَتْمَمْتُ علَيكُمْ نِعْمَتِي، وَرَضِيتُ لكُمُ الإِسْلاَمَ ديناً﴾. أما في مجال هداية الإنسان يقول تعالى في سورة الأنعام - الآية ١٢٥ ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإِسْلاَمِ﴾.

أما عن إخبار الله بأن كل دين غير دينه باطل ومرفوض، وأن من يقبل شرعاً غير شرع الإسلام ومنهاجاً غير منهاجه بعد البعثة المحمدية فلن يتقبل منه ذلك يقول تعالى في سورة آل عمران - ٨٥ : ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْه﴾، ومن ثم نرى إبراهيم أبو الأنبياء - عليه السلام - يوصي أولاده من بعده فيقول لهم في سورة البقرة - ١٣٢ : ﴿فَلاَتَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾، ويعقوب حينما حضره الموت قال لبنيه في سورة البقرة - ١٣٣ ﴿مَا تَعْبُدونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبدُ إِلَهَكَ وإِلَه آبَائِكَ إبراهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ وإِسْحَقَّ إلهاً وَاحِداً ونَحْنُ

---

١ - التعريف الصحيح - هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك والبراءة منه والبعد عن جميع وسائله وذرائعه.

٢ - (انظر كشف السرائر في معنى الوجوه والأشباه والنظائر لابن العماد) تحقيق ودراسة الدكتور فؤاد عبدالمنعم أحمد ومراجعة الدكتور محمد سليمان داود ص ١٧٦.

لَـهُ مُسْلِمُونَ﴾، وكـان الغرض من ذلك هـو تحقيق بـراءتهم من الشرك والاطمئنان على ثبـات عقيـدتهم. . ثم يخبرنا تعـالى عن نـوح - عليـه السلام - حينما بعث لقـومـه قال لهم في سـورة يونس-٧٢ : ﴿وأُمِـرْتُ أَنْ أكونَ مِنَ المسْلِمِين﴾، كذلك موسى - عليـه السلام- حينما بعث أيضاً لقومـه قال لهم في سورة يونس -٨٤ : ﴿يـا قَوْمِ إِنْ كُنتُم آمَنتُم بِاللهِ فَعَلَيهِ تَـوَكَّلُوا إِنْ كُنتُم مُسْلِمِينَ﴾.

ونجـد الحوارِيين يقولـون لعيسى بن مـريم - عليـه الســلام - في سورة آل عمـران -٥٢ : ﴿آمنَّا بِاللهِ واشْهَدْ بِأنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

حتى الجن يقولون في سورة الجن - ١٤ ﴿وأنَّا منَّا المسلمون ومنَّا القاسطون﴾.

ونرى الـرسول الكـريم محمد -ﷺ- يقـول في الحديث الشريف، عن أبي هـريرة (رضي الله عنه): (إنا معشر الأنبياء ديننا واحد).

إذا لم يكن الإسـلام إلا دعـوة عـامـة لكل البشر في كل زمـان ومكـان، أشرقت في جـزيـرة العرب، ولامست الـوجدان الإنسـاني، وامتد صـداها إلى الفـرس والروم وشمال أفـريقية حتى وصل إلى أوربا عبر أسبانيا.

دخل الهنـد وأنـدونيسيـا والفلبين. . ثم دخل الصين في القـرن الأول الهجـري، ووصل للأمريكتين الشمالية والجنوبية. . فما سر انتشاره؟.

لايخفى ذلك على أحد ممن لـه نظرة ثاقبـة، ووعي كامل، وبصيرة نافـذة، وتجرد من ملامح الهوى، فهو الـدين الحق الذي هتف بـه الأنبياء جميعـاً بدءاً من نـوح -عليه السـلام- وانتهاءًا بمحمد -عليه الصلاة والسلام- ورجع بالإنسـان إلى الفطرة السليمة الكامنة في أعماقه، وربط بين فكرة الاعتقاد السليم والسلوك الأخلاقي القويم، ونبـذ ما علق بفطرة الإنسان طوال عهود مضت تـرسخت في ذهنـه الخرافـات والأسـاطير. جـاء بمجمـوعـة من المبـادىء والأحكـام المصححة لـلاعتقاد والمنظمـة للسلوك الإنسـاني وفق قيم هادية حددهـا الوحي لتنظيـم حياة الإنسـان وتحديد عـلاقته بغيره على نحـو يحقق الغايـة من وجوده في هـذا العالم، واتسم البنـاء الأخلاقي فيه بطابعين متميزين :

١ - «طابع إلهي من حيث أنـه مراد الله، إذ أنه يجب أن يتبع الإنسـان في هذه الحياة نظـاماً يتحقق فيـه رغبة الله في خلقه، ولـذا جاء الـوحي بصورة هـذا النظام، وطلب مـن الإنسان أن يشترك بتطبيقه بقلبه وروحه وبإرادته الخيرة الخالصة لوجه الله للفوز بالسعادة»[1].

---

(١) التربية الأخلاقية الإسلامية - الدكتورين محمود القاضي ومقداد يالجن - ص ١٦.

٢ - طابع إنساني عـام من حيث صلاحية أحكامه ونظمه وقيمـه لكل الناس والأجناس في كل زمان ومكان.

وسنحاول بوجه عام إبراز الدعائم الأساسية التي أرساها الإسلام للبشرية جمعاء حتى تظهر النظرة التكاملية في العقيـدة والأخلاق باعتباره الـدين الحق، الذي هتـف به الأنبيـاء جميعاً، وأرسى دعائم الوحدة الإيمانية بينهم، وبين أن هدفهـم واحد وغايتهم واحدة وطريقهم واحد، وجاء بأصول قيمية هادية، وحقائق خالدة لايدخلها نسـخ ولايختلف فيها الأنبياء.

المبادىء الأساسية التي أرساها(١)

أولاً : أرسى دعائم الـوحدة الإيمانية بين الرسل لـوحدة الهدف والغايـة وقد وضح ذلك من قـوله تعـالى في سـورة البقرة - ١٣٦ : ﴿قُـولُـوا آمَنَّا بـالله ومَـا أُنزِلَ إلينـا ومـا أُنزِلَ إلى إِبْـراهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ وإِسْحَٰقَ ويَعْقُـوبَ والأَسْبَاطِ وَمَـا أُوتِيَ مُـوسَىٰ وعيسَىٰ وما أُوتِيَ النَّبِيُّـونَ مِن رَبِّهِمْ لانُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ منهُمْ ونَحْنُ لهُ مُسْلِمُونَ﴾ .

فإذا كانت العقيـدة الإسلامية امتداداً لجوهـر العقائد في الأديان الـسماويـة التي دعت جميعاً إلى التوحيد بصحيح البيان بمدلول القرآن الـذي قال في سورة الأنبياء - ٢٥ : ﴿ومَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُـولٍ إلا نُوحِـي إليهِ أَنَّـهُ لاَ إِلَـهَ إلا أَنَا فَـاعْبُـدُونِ﴾ إلا أنها ليست امتدادًا للتـوراة المحرفـة ، والأناجيل المنسوخة والمبـدلة . بل جاءت مقرة للصـواب ، ورافضة الخطأ ، وأكملت النـاقص ، ونقت المحـرف من شـوائب التـحـريف ، ورفضت التعـدد والتجسـد وأكـدت على عقيـدة التوحيـد الخالص ، قـال تعالى في سـورة الإخـلاص -١-٣ : ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَـدٌ ، اللهُ الصَّمدُ ، لَمْ يَلِدْ ولَمْ يُولَدْ﴾ .

ثانياً : أن ليس هناك وسيط بين الله والبشر ، ومن ثم تنتفي صفة التبعيـة وظهور الاستقلالية في التوجه ، فـلا كهنة ولا كهنوت ، ولا رجال دين في الإسلام ، بل هناك علماء مجتهـدون بدلالة التـوجيه الإلهي في قـولـه تعالى في سـورة البقرة -١٨ : ﴿ وإذَا سَأَلَـكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِي قَـرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوةَ الدَّاعِ إذا دَعَانِ﴾ .

وبهذا المبدأ وُضع للإنسان لأول مرة في ظل الإسلام أساس للحرية لدوحية .

ثالثـاً : تأكيـده على المساواة بين كل البشر - فقـال تعالى في سـورة الحجرات ١٣ ﴿يَـا أَيُّهَا النَّـاسُ إِنَّا خَلَقْنَـاكُم مِن ذَكَـرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُـوبـاً وَقَبَائِلَ لتَعَـارَفُـوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْـد اللهِ أَتْقَـاكُمْ﴾ ، وبتوجيـه الرسـول الكريم لأمـة الإسلام الأولى في الحديث الشريـف : (فـلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقـوى) . وهما توجيهان يوضحان أساس المفـاضلة بين الناس بمعيار التقوى لا بالأحساب والأنساب ، وبهذا المبدأ وضع أساس الحرية الاجتماعية للإنسان .

رابعاً : تقريره مبدأ الشورى في الحكومة فقال تعالى في سورة الشورى -٣٨ ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ

١ - الموسوعة العربيـة الميسرة ، مادة إسلام ، وبتصرف عن الفضائل الخلقية في الإسلام للدكتـور أحمد عبدالرحمن إبراهيم ص ٧ ، ٨ ، ٩ .

بَيْنَهُمْ﴾، وفي سورة آل عمران -١٥٩ ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾، وبذلك جعل لكل فرد حق الرقابة على الحكم، والمشاركة فيه بإبداء الرأي في الشئون العامة.

خامساً: اعترافه بحق العقل في تقرير المعتقدات وتحديد المعاملات فنص على أن مناط التكليف ومحك النظر، وفيصل التفرقة في سورة الأنبياء -١٠ و٦٧ ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾، وفي سورة العنكبوت -٤٣ ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وما يَعْقِلُهَا إِلاَّ العَالِمُونَ﴾.

بل ذهب القرآن إلى أن إيمان المقلد غير مقبول، وقال في الآخذين بالأوهام والظنون، في سورة يونس - ٣٦ ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَناً إِنَّ الظَّنَّ لاَيُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَايَفْعَلُونَ﴾، وبهذا المبدأ تحررت العقول، كما تحررت النفوس من أسر العقائد.

سادساً: أرسى مبدأ المسؤولية الفردية وألغى مبدأ المسؤولية الجماعية فلم يقبل فكرة الإدانة للجنس البشري ضمن عقائده - فقال تعالى في سورة النجم - ٣٨ ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

وبهذا المبدأ وحده يكفي لإنتاج سلسلة من الفروق بين الأخلاق الإسلامية وغيرها من الأخلاق أهمها:

١ - رفع الظلم ونبذه.

٢ - أن ليس للإنسان إلا ماسعى في ظل رقابة عادلة وموجهة.

سابعاً: تقريره أن الدين ليس عدواً للمدنية بل هو دليلها الصادق ونبراسها الحي - فقال تعالى في سورة القصص - ٧٧ ﴿وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنيا وأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾.

ثامناً: تقريره أن العلم فريضة إنسانية باعتباره العامل الأساسي في المدنية وساق في ذلك الموازنات العقلية - فقال تعالى في سورة الزمر - ٩ ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعلَمُونَ والذِينَ لايَعْلَمُونَ﴾.

تاسعاً: أرسى قواعد التسامح الديني حتى مع الذين لم يتبعوه ولم يَنَل المسلمون من أذاهم فقال تعالى في سورة الممتحنة -٨ ﴿لاَيَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينَ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ﴾.

عاشراً: تأكيده على وجود إله حي قيوم قائم بذاته وصفاته على أمر عباده، ولايشبه شيئاً من مخلوقاته - قال تعالى في سورة البقرة -٢٥٥: ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومَ لاتَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَنَوْمٌ﴾، وفي سورة الشورى -١١: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾.

حادي عشر : أبـرز أهمية العـوامل الـوجدانيـة باعتبـارهـا المحرك الأول لجميع العمليـات الذهنيـة ولجميع المظاهـر السلوكية فأكـد على السـمع والبصر والفؤاد وتمام مسـؤوليتهم، وجاء مخاطباً العقـل ومناشـداً الوجـدان بعد يبوس العـاطفة وجفـافها، وشطـوح العقل وسطـوته، وليخلق بينهما اتـزاناً ليرتقي الفكـر والإحسـاس في مدارج القيمـة والفضيلـة وفق أصول قيمية هاديـة. فقال تعالى في سـورة الإسراء - ٣٦: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَـانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾.

الإيمان في الإسلام شرط عملي

الإيمان بالله - سبحانه وتعالى - هو الشرط العملي للدخول في الإسلام، ويعني بمدلوله العام الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، والإيمان بالبعث بعد الموت، وبالقدر خيره وشره حلوه ومره.

وسمي بالإيمان لمطابقة مدلولاته للفطرة، ولشموله الإنسان بالأمن والطمأنينة سواء على حياته أو مصير سعادته في دنيا مخلوق لها ولآخرة يعمل من أجلها. وورد ذكره في القرآن على أربعة أوجه[1] أو معان :

١ - الإقرار باللسان من غير نطق - قال تعالى في سورة المنافقون - ٣ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾، أي أقروا في السر ولم يصدقوا ما جاء به محمد ﷺ وذلك هم المنافقين الذين سميت السورة باسمهم.

٢ - التصديق في السر والعلانية - قال تعالى في سورة البينة - ٧ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾.

٣ - التوحيد - قال تعالى في سورة المائدة - ٥ : ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾.

٤ - الشرك - قال تعالى في سورة لقمان - ٢٥ : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، وذلك هو الإيمان المغموس بالشرك والآيات التي جاءت دالة ومحققة لهذا المعنى، أو هذا الوجه كثيرة.

فالإيمان بالله كما هو ضرورة إيمانية، فهو أيضاً ضرورة كونية لاتخلقها مشيئة الفرد، إلا أنها كائنة في أعماقه متربعة في وجدانه، ولـذا كان الناس وقبل أن تبزغ شمس الهداية يعترفون بقوة عليا تسيطر على الكون وتحفظ نظامه، وغاية ما هنالك أن كانت وسائلهم في البحث عن تلك القوة وتصورهم لها و إيمانهم بها و إدراكهم لصفاتها تبعد عن الصواب حيناً بقدر ما تقترب حيناً آخر.

وحتى تطمئن الأفئدة وتهدأ العقول ويتفرغ الناس للعبادة والعمل، توافدت الرسل والأنبياء لتحمل للإنسانية في كل عصر ومصر ما يصحح لها عقيدتها في الله ذاتاً وصفاتاً،

---

١ - كشف السرائر لإبن العماد، مرجع سابق ص ١٨٣ - ١٨٤.

وليقدموا إجابات شافية وترجمات هادية ليستقيم الأمر الإيماني على هدى وبينة.

ويتحدد الإيمان في الإسلام كما أوضحنا بستة أركان لايتم إيمان أحد إلا إذا آمن بها جميعاً وعلى الوجه الصحيح الذي دل عليه الكتاب والسنة فمن جحد شيئاً منها أو آمن بها على غير ما جاء فقد ظلم نفسه وكفر[1].

ولكي يأخذ شكل التصديق القولي والفعلي من الإنسان يجب أن يسلم به كل الكيان الإنساني من ظاهره وباطنه، أي من قول باللسان إلى اعتقاد بالجنان إلى عمل بالأركان، وذلك هو الإيمان المطلق «فلايستحق اسم المؤمن اسم الإيمان المطلق إلا مع ذلك كله ولم ينقص منه شيئاً»[2]. إلا أن هناك من المؤمنين من تتفاوت عقائدهم وأعمال قلوبهم من شخص لآخر، بل وأعمال جوارحهم. أي أن هناك من الناس من ظلم نفسه باجترائه على بعض المحرمات، وقصر ببعض الواجبات مع بقاء أصل الإيمان معهم، وهو قول (شهادة لا إله إلا الله). كذلك هناك من اقتصد في العبادة، فاقتصر على أداء الواجبات وترك المحرمات مع وجود الاعتقاد فيهم.

وعلى العكس من ذلك هناك من هم سباقون بالخيرات فأدوا الواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات[3]. لذا فالإيمان يزيد بالطاعة هنا وينقص بالمعصية هناك.

كذلك مجرد الارتياب في أي أمر من الأمور الستة التي حددها الإيمان يخلع من على الإنسان مرتبة الإيمان، لكن يظلله تحت مظلة الإسلام، فالإسلام وإن كان يعني استلام إرادة الإنسان لإرادة الله، وانقياده لأمره، إلا أن الإيمان شرط عملي وأولى فيه ليشمل الكيان الإنساني كله بالقول والفعل ويترسخ معناه في النفس، ومن ثم لايتأتى ذلك إلا بترجمات حية يقولها اللسان ويعتقدها الجنان ويعمل بمقتضى الأركان.

والإسلام والإيمان متلازمان في الوجود فلايوجد أحدهما دون الآخر، بل كلما وجد إيمان سليم معتد به، وجد معه إسلام صحيح، فإذا أفرد أحدهما بالذكر دون الآخر دل ذلك ضمنياً على وجود الآخر[4]. أما إذا ذكرا مقترنين أريد بالإسلام الانقياد الظاهري من الإقرار باللسان وعمل بالجوارح، وبالإيمان التصديق القلبي[5]، أي مطابقة الظاهر مع الباطن في السلوك والأداء.

---

١ - شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية، محمد خليل هراس ص ١٦.
٢ - المرجع السابق ص ١٥٣.
٣ - المرجع السابق ص ١٥٤.
٤ - المرجع السابق ص ١٥٦.
٥ - المرجع السابق ص ١٥٧.

لكن قد يوجد إسلام بدون إيمان كما هو مشاهد الآن، وكما أرشدنا إلى ذلك تعالى من قوله في سورة الحجرات - ١٤ :

﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾، فدل ذلك على أن هناك إسلام دون الإيمان المطلق الذي هو في حقيقته أخص من الإسلام.

والآية الكريمة أشارت إلى طائفة أسلمت لكن مع نفي الإيمان المطلق عنهم، لأنهم ظنوا أن الإيمان كلمة تقال باللسان وكفى.

والخلاصة التي تفرض نفسها أنه «لا إيمان لمن لا إسلام له، ولا إسلام لمن لا إيمان له إذ لايخلو المؤمن من إسلام يتحقق به إيمانه، ولايخلوا المسلم من إيمان به يصح إسلامه»[١].

ولكي نقف على خلاصة القول بأن الإيمان هو الشرط العملي في الإسلام نقول بأن كل عمل سواء كان عبادة أو سلوك له قيمة أخروية في ميزان الحق، وتلك نتيجة يجب أن تظل عالقة في الأذهان. لأن من يكفر بالإيمان ليس لعمله قيمة أخروية فيه فقد ينفعه ذلك في الدنيا، أو قد تكون له قيمة في ميزان الشيطان، حسبما يتوهم المبخسون.

فالإيمان شرط عملي، بل وجوهري في الإسلام، فهو العروة الوثقى الذي لايقبل عملاً إلا به وقد بانت تلك الشرطية من قوله تعالى في سورة طه - ١١٢ : ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً﴾، وفي سورة الكهف -١٠٣-١٠٥ : ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً، أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ، فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَزْناً﴾، وفي سورة النساء - ١٢٤ : ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾، وفي سورة التوبة - ٥٤ : ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ﴾.

ومن ثم يتضح أن «الكفر باعتباره المقابل السلبي للإيمان يحبط العمل ويجرده من أي قيمة أخروية وهي الثواب، فكل عمل صالح سواء في العبادة أو السلوك لاتكون له قيمة حقيقية إلا إذا كان قد تم على شرط الإيمان بالله»[٢].

ونرى في السنة توضيحاً لهذا المبدأ، فحينما سألت السيدة عائشة - (رضي الله عنها) -

١ - شرح العقيد الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي ص ٣٩٢.
٢ - الفضائل الخلقية في الإسلام مرجع سابق ص ٦٣.

رسـول الله - ﷺ - عن ابن جدعـان(1) ومـا كان يفعلـه في الجاهليـة من صلة الـرحم وحسن الجوار وقـري الضيـف . . فهل ذلك ينفعه يـوم القيامـة؟ فقال (ﷺ) [لا لأنـه لم يقل يومـاً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين](2) .

فرغماً من أن ذلك العمل الـذي يفعله ابن جـدعان ودلالة الجود والكـرم هو مـا يحض عليه الإسـلام ويعتبر من مكـارم الأخلاق إلا أنها أعمال لم تصبـح لها أية قيمـة عنـد الله لأنها تمت في الجاهلية وافتقـدت للشرط العملي ، وهو الإيمان بـالله . . ولذا نـرى الرسـول (ﷺ) يقول : (لا لأنـه لم يقل رب اغفر لي خطيئتي يـوم الديـن) ، ذلك لأن مجرد القول بها كـان فيه اعتراف منـه بالربوبية المطلقة ، وبأن الله هو الرب ، والغفور، فكأن شرط الإيمان قد تحقق توحيداً وتصديقاً .

كـذلك من البديهي أن الكفـر يتضمن الإخـلال بشرط آخر هـو إخـلاص النية لله تعـالى ، فالكـافر بـالله لايتطلع إلى الثواب الأخـروي ، بل كل أعماله تتجـه إلى الناس وحـدهم ، فمنهم الباعث ، ومنهم الهدف ، بل هـم مصدر الثواب والعقاب عنده (3) .

كـذلك الكافـر بحكم الغشـاوة التي على عينيـه لايستطيع أن يوفـر لعملـه مبدأ التنـزه عن انتظار العوض من غير الله(4) .

وحتى يتعمق فهم ذلك ، نـرى الـرسـول - ﷺ - يشير لأصحـابـه ويسألهم عن المفلس ، فيقول (ﷺ) [أتـدرون من المفلس؟] - قالوا يـارسول الله ، المفلس فينا من لادرهم لـه ولا متاع فقال (ﷺ) [إن المفلـس من أمتى من يأتي يوم القيـامة بصـلاة وزكاة وصيام وحج ، فيـأتي وقد شتم هذا ، وأخذ مـال هذا ، ونبش عن عرض هذا ، وضرب هذا وسفك دم هـذا ، فيؤخذ لهذا من حسناتـه وهذا من حسناتـه ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي مـا عليه أخذ من خطـاياهم فطرح عليه ثم طرح في النار](5) .

ومعنى ذلك أن قبـول العبـادة مشروط بـالسلـوك الحسن ، وفي ظل إيمان متحقق تـوحيـداً وتصديقاً .

ونرى تـوجيهاً آخـر فحينما قال لـه أصحابه [إن فـلانة تقـوم الليل وتصوم النهـار وتتصدق

---

1 - قيل كـان لعبدالله بن جـدعـان جفنة يأكل منهـا القـائم والراكب ، وذكـر أنـه وقع فيها صبي فغـرق - انظـر الجمان لابن نافية ص١٩٣ .
2 - حديث شريف رواه مسلم .
3 - الفضـائل الخلقية مرجع سابق ص ٦٣ ، ٦٤ .
4 - المرجع السـابق .
5 - حديث شريف رواه مسلم .

وتـؤذي جيرانها بلسـانها] قـال -ﷺ- [لا خير فيها، هي من أهل النـار]، قالـوا [فلانـة تصلي المكتوبة ولاتؤذي أحدا] فقال - ﷺ - [هي من أهل الجنة].

وإذا ما ذهبنا إلى السيـاق القرآني نفسه، لوجدنـا قوله تعالى في سـورة البينة - ٧ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾، وهنا نرى تجاور العمل والتصـاقه بالإيمان، وما ذلك إلا لتأكيـد تلك الشرطية، وليس ذلك وكفى، بل ذهبت السنة إلى تأكيـد انتفاء تلك الشرطيـة فعلاً إذا لم يحب الإنسـان لأخيـه الإنسان مـايحبـه هو لنفســه، يقـول الرسـول (ﷺ) [لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحبه لنفسه][1].

وفي الختام نقـول بأن الإيمان ليس بالتحلي ولا بالتمني، ولكنـه ما وقر في الصدور وصـدقته الأعمال، والأعمال في الإسلام لاينظر إلى أشكـالها المادية وجدواها النفعيـة المحضة، وإنما تكون مقرونـة بالنية الخالصـة لوجه الله تعالى، لأن الأغـراض الدنيويـة الزائلة، والمطـامح الشخصية تطيح بقيمة العمل وتفقده شرف الغاية ونبل المقصد.

---

١ - رياض الصالحين ٣ / ١٨٣ ص ٧٧.

الفصل الثاني

- ■ القيم :
  - □ تقسيم القيم.
  - □ طبيعة القيم.
- ■ النظريات التي حكمت منطق القيم :
  - □ نظرية الطبيعة.
  - □ نظرية العقل.
  - □ نظرية الوجدان.
- ■ خصائص القيم :
- ■ العلاقة بين القيم والمعايير :
  - □ حقيقة المعيار الأخلاقي في الإسلام.
  - □ التفكير الغربي باعتباره عقلياً ومنشؤه في تقويم المفهوم الاصطلاحي للقيم الاجتماعية.
  - □ التفكير الإسلامي باعتباره عقلياً ووجدانياً ومنشؤه في تقويم المفهوم الاصطلاحي للقيم الإنسانية.

الفصل الثاني
القيم

مدخل لفهم القيم : تقسيماتها وطبيعتها وخصائصها والعلاقة بين القيم والمعايير :

قبل أن نتطرق في هذا الفصل للتحدث عن القيم وصولاً لمعرفة الأصول القيمية في الإسلام. يجدر بنا أن نزيل اللبس الذي وقع فيه الكثيرون من اعتبار أن القيمة هي الخير والشر. وأن «الخير وإن كان أعم من القيمة ذلك لأن كلمة الخير تستعمل لجميع الخصال الحميدة والأفعال الأخلاقية النبيلة. وماتؤدي إليه من المنافع والفوائد. ويعبر عنها بصفة عامة عن القيم السلوكية والشخصية والفكرية والمادية»[1]. إلا أننا نوضح في هذا المقام بأن الخير المقال به وإن كان في حد ذاته قيمة إلا أنه - كما علمنا الإسلام- هناك خير فقير وخير غني. أو خير فقير وخير يغني ويقني وأن الإسلام حينما جاء جعل القيمة من معاني العدل[2] ولم يجعلها من معاني الخير حتى لايلتبس الفهم بمعنى النفع الذي يجلبه الخير. كذلك يجب أن نفهم أنه إذا كانت القيمة الأخلاقية في الإسلام تشترك في الاسم مع القيمة الأخرى الوضعية إلا أنها تختلف عنها من حيث المضمون الأخلاقي وتحديد مفهومها واستنادها لأصل قيمي ملزم متمثل في اسم من أسماء الله الحسنى. وصفة من صفاته العليا[3].

أما عن ماهية القيم وتقسياتها وطبيعتها وخصائصها والعلاقة بين القيم والمعايير فنورد ذلك كله لارتباطه بمجال البحث.

القيم. . جمع قيمة. والقيمة بالكسر واحدة القيم. وهي تعني الوزن والتقدير بمعناها الاشتقاقي.

وإذا رجعنا للقاموس المحيط أو مختار الصحاح لوجدنا معناها لايخرج عن أنها تعني العدل ومنشأ الاستقامة وقوام كل أمر ونظامه.

كذلك لو رجعنا لأوجه العدل المتداولة في القرآن الكريم لوجدنا أن أحد وجوهه أو معانيه هو (القيمة) باعتبارها عدلاً... وذلك واضح من قوله تعالى ﴿أو عدل ذلك صياماً﴾ [أي أن قيمة ذلك يصام عنه]. أي أنها هي المقدار أو النصاب العادل الذي يوازن الجزاء أو يصبح

١ - انظر الاتجاه الأخلاقي في الإسلام - مقداد يالجن ص ٣١٣.

٢ - راجع مبحثنا عن قيمة العدل ضمن السلوك التطبيقي لمعاني القيم من هذا البحث.

٣ - انظر مبحث الأصول القيمية.

مستحق الأداء. ومن ثم يصبح تحديدها بناء على معيار مسبق إما أن يحمله العقل وإما أن يوضحه الشرع. سواء كان المقدار أو النصاب لشيء مادي أو أمر معنوي. ذلك المعيار الذي في حقيقته ما هو إلا ميزان أو مقياس نوزن أو نقيس به قيم الأشياء.

وإذا نظرنا لعلم الأخلاق وعلاقته بالقيم والمعايير لوجدنا أنه علم معياري يضع المبادىء التي ينبغي أن يكون عليها سلوك الإنسان. كما يضع المعايير الصحيحة لتقويم السلوك وتقييمه ومن هنا أصبحت القيمة على وجه التحديد حقيقة سيكلوجية ارتبط مفهومها بالحسن والقبح. أو المرغوب فيه والمرغوب عنه. أو ماينبغي أو مالاينبغي.

«ويتفق الأخلاقيون على أن القيمة العليا للأخلاق هي الخير ويقابلها الشر إلا أن هذا الإتفاق كان في اللفظ أكثر من كونه في المضمون فقد اختلفوا في ماهية الخير والشر»[١].

ولاشك أن الميدان العلمي لدراسة القيمة مملوء بالاختلافات المتباينة بالنسبة لمعانيها ومدلولاتها. وباعتبار أن ذلك المفهوم لايقف عند مستوى الفكر الاجتماعي أو الفلسفي بل يتعداه إلى الاقتصاد والفن. «ويتغلغل في حياة الناس أفراداً وجماعات ويرتبط عندهم بمعنى الحياة ذاتها لأن القيمة ترتبط بدوافع السلوك وبالآمال والأهداف»[٢].

تقسيماتها:

قوبلت فكرة تقسيم القيم من العلماء بالقبول من البعض وبالرفض من البعض الآخر فمنهم من ذهب إلى عدم تقسيمها لصعوبة ذلك وتحديد أقسامها. ومنهم من ذهب إلى تقسيمها استناداً على أن التصنيف على أي حال خير من عدمه. وبناء على ذلك صنفوا القيم إلى أنواع وإن لم يتفقوا على أنواع معينة. فبعضهم قسمها إلى قيم أصلية وقيم مشتقة. وقسمها آخرون إلى قيم ذاتية وقيم ذرائعية. ومن قسمها إلى القيم - الغايات والوسائل -. ومنهم من قسمها إلى «قيم الحق والخير والجمال»[٣]. في مقابل ثلاث أوجه يحللون بها حياة الإنسان الواعية. وهي الإدراك والسلوك والوجدان[٤].

وقد قيل بأن أشهر التقسيمات التي اشتهرت في مجال دراسة القيم الاجتماعية تصنيف

---

١ - الاتجاه الأخلاقي في الإسلام لمقداد ياجن ص ٣٠٠ واقرأ في هذا الموضوع القيم والعادات الاجتماعية لفوزية دياب ص ٢١، ٢٢.
٢ - قيمنا الاجتماعية - الدكتور عماد الدين اسماعيل وآخرين ص ٣.
٣ - الاتجاه الأخلاقي مرجع سابق ص ٣٠٥.
٤ - من زاوية فلسفية - الدكتور زكي نجيب محمود ص ١٢١.

«سترنج» الذي قسمها إلى قيم نظرية. واقتصادية. وجمالية. واجتماعية. وسياسية. ودينية[1].

وفي مجال تحديد مستوياتها رتبت كالآتي :

أولاً : قيم إلزامية وتشمل الفرائض والنواهي وهي القيم المقدسة التي يجب الالتزام بها والمحافظة عليها والتي يعاقب الخارج عليها عقاباً صارماً.

ثانياً : القيم التفضيلية وهي القيم التي تشجع الجماعة أفرادها للقيام بها وتكافىء عليها. لكنها لاترقى إلى مكانة الأولى التي تتطلب لتاركها عقاباً صارماً مثل النجاح في الحياة وضروب المجالات الأخرى بين الناس.

ثالثاً : القيم المثالية وهي التي يحسن تحقيقها بصورة كاملة وقد تؤثر تأثيراً قوياً في توجيه سلوك الفرد[2].

وهناك تقسيمات أخرى. لكن مايعنينا في هذا المقام هو القيمة الخلقية للأشياء باعتبارها قيمة مطلقة تحقق مطامح الإنسانية العليا وكمالها الأمثل. أو قل هي القيم الإلزامية والمثالية التي أمليت وحياً بحكم العقيدة الإسلامية والتي يجب تحقيقها بصورة كاملة لما لها من تأثير قوي في توجيه سلوك الفرد وضبط حركته في الحياة. أو قل هي القيم الدينية والروحية. ذلك لأن العمل الخلقي وفقها يصبح له قيمة وفي مقدور الإنسان تحقيقها بل «من واجب كل إنسان احترامها وعدم إهمالها وتنجيزها وإلا تجرد هذا الإنسان عن إنسانيته. ومن ثم يصبح العمل الخلقي له قيمة مطلقة لأنه فرض عين لايسقط طلبه عن البعض إذا قام به الباقون. وأن جميع القيم الأخرى ليست سوى ذرائع للقيمة الخلقية. بل إنها تنعدم وتنحط إذا لم تستومض بالإشعاع الخلقي»[3]. «وأن القيم المادية لاينبغي السعي في تحصيلها إلا بمقدار ماتسهم في انبثاق القيم الخلقية واستمرارها. أما انتجاعها كغاية فهو عين الغواية. وكذلك القيم الفكرية.. لأن العلم الذي لاتتخلله أخلاق يؤدي بصاحبه إلى المسالك الوعرة[4].

طبيعة القيم :

حملت الاتجاهات الفكرية المتعددة تساؤلات وإجابات حول طبيعة القيم. هل هي نسبية

---

١ - مقداد يالجن، مرجع سابق ص ٣٠٥.
٢ - المرجع السابق ص ٣٠٥.
٣ - الفلسفة والأخلاق عند ابن الخطيب، عبدالعزيز بن عبدالله ص ٤١.
٤ - المرجع السابق نفس الصفحة.

ذاتية؟ أي أن الإنسان هو الذي يخلقها ويخلعها على الأشياء والمواقف. وأنها توزن بمقدار ماتشبع حاجاته ولذائذه؟ أم أنها موضوعية مطلقة موجودة في الأشياء الخارجية ومستقلة عن وجود الإنسان فالحق حق سواء رضي الإنسان أم لم يرضى[1]. أو بمعنى آخر «هل لها حقيقة نفسانية وجدانية أم أن ماهيتها خارجة عن ذاتها مستقلة عنها؟ ... فهل تقديرنا هو الذي يعطي هذه القيمة (قيمتها). أم أن هذه القيمة نفسها هي التي يستوحي منها (تقييمنا)؟ وبعبارة ثالثة ... هل نجد في القيمة الخلقية للأشياء ما نضعه نحن في هذه القيمة؟ أم أن هذه القيمة هي التي تمدنا بمحتوياتها ومضامينها كأساس لتقديراتنا الخلقية؟[2] هناك اتجاه يرى أن القيم لها طبيعة نسبية ذاتية مردها إلى الواقع الاجتماعي الذي تنبثق منه ومن ثم فهي متغيرة متطورة حسب الظروف والأحوال وأساسها العادات والخبرة[3]. ويمثل هذا الاتجاه جماعات الوضعية الفرنسية بزعامة أوجست كونت الذي شرط القيم بالواقع لا بالتأملات. واستخدم في الوصول إلى ذلك منهج الملاحظة والتجربة وارتباط القيم بالظواهر الحسية وتحليل الظروف الإنسانية وربطها بعلاقات التعاقب والتشابه. كما يسير في هذا الاتجاه دعاة المنفعة العامة عند جون ستيوارت مل وبنتام وغيرهم الذين أكدوا أن القيم مردها الإطار الثقافي الذي يعيش فيه الأفراد وأنها من صنع المجتمعات وحاجة الأفراد. ومن أنصار هذا الاتجاه أيضاً دعاة البراجماتية أمثال بيرس ووليم جيمس وجون ديوي الذين أكدوا أن القيم أساسها العادات والخبرة الهادفة[4].

وهناك أيضاً اتجاه فكري آخر يرى أن القيم موضوعية ومطلقة وتمثله جماعة المثاليين والحدسيين والمطلقين الذين يرون أن العالم عالمان متباينان. عالم المثل. وعالم الواقع. وأن القيم المنبثقة من عالم المثل هي القيم السائدة. ويمثل هذا الاتجاه قديماً الفيلسوف اليوناني أفلاطون[5]. وحديثاً وليبر إيربن..

وسنورد نموذجين من الفكر المعاصر عند جون ديوي ووليبر ايربن.

جـون ديـوي:

«حاول استخدام منهج العلوم في التفكير في القيم الأخلاقية والسياسية والجمالية وغيرها- تفكيراً قد ينتهي إلى تغييرها تغييراً يناسب ظروف الحياة الحاضرة. أو محاولته اتخاذه من الفكر ذريعة للعمل على نحو يحقق للإنسان مايبتغيه في مجتمع صناعي ديمقراطي»[6].

---

١ – القيم والتربية، الدكتور لطفي بركات ص ٥٠٤.
٢ – الفلسفة والأخلاق، مرجع سابق ص ٤٢.
٣ – المرجع السابق، الدكتور لطفي بركات ص ٥٠٤.
٤ – المرجع السابق ص ٦٠٥.
٥ – المرجع السابق ص ٧.
٦ – حياة الفكر في العالم الجديد، دكتور زكي نجيب محمود ص ١٥٩.

ولبر إيربن :

ذلك وجه آخر «يمثل الفلسفة التقليدية التي تنادي بالتزام القديم أو التقليد العظيم في الولايات المتحدة. فقد أحس ولبر إيربن بأن العالم ذو معنى ومغزى. وأن له هدفاً معقولاً مقصوداً. رغماً مما يوجد فيه من ضروب العلم وألوان من الدراسات كلها تدور حول محور واحد. وهو أن العالم مجموعة من الظواهر تأتلف أو تختلف. دون أن يكون وراءها معنى أو أمامها هدف. حتى الذات الإنسانية قد تفككت - على يدي علم النفس الحديث- حالات يعقب بعضها بعضاً. وإذا كان هذا هو الشأن في الطبيعة وفي الإنسان. فأين تكون (القيمة) في هذا الوجود؟ إن كان كل ما هناك ظواهر تُحَس بالبصر أو بالسمع أو بغيرها من الحواس إذن فلاوجود (للقيم) لأن (القيم) خاصة قيم الأخلاق والجمال ليست من نوع الظواهر التي تحس. وبغير (القيمة) لايكون لأي شيء معنى مفهوم. ومن ثم ذهب إلى أن عالم الواقع كما نحياه وكما نعرفه. لايصبح عالمنا إلا إذا صيغت خبراتنا عنه في مقولات القيمة»[1].

«ومن ثم فقد ذهب إلى إزالة التفرقة التي أقامها (كانط) بين العالمين: عالم الطبيعة. وعالم القيم فجعلهما معتمدين في الإدراك على مقولات فطرية في طبيعة الإنسان. إذ يجعلهما معاً داخلين في نطاق العقل النظري. أو العقل الخالص. فهو الذي يدرك (الشيء) كما يدرك «القيمة» على حد سواء. هو الذي يدرك الزهرة ويدرك جمالها في آن معاً. وهو الذي يدرك الاحسان ويدرك ما فيه من فضيلة في وقت واحد. فالشيء وماله من قيمه جانبان متصلان لاينفصلان في عملية الإدراك. والأداة التي بها ندرك أحد الجانبين. هي نفسها الأداة التي ندرك بها الجانب الآخر»[2].

«والقيمة التي يدافع عن وجودها إيربن قيمة مطلقة. لايتوقف وجودها على صالح الإنسان. فهي ليست هناك بالنسبة إلى الإنسان وحده. أو بالنسبة لفريق من الناس هنا أو هناك. في هذا العصر أو ذاك. بل قيمة العالم موجودة فيه. لذلك لم يوافق. بل لم يفهم دعوى البراجماتيين والتطوريين حين زعموا أن قيم الأشياء إنما تكون بالنسبة لنفع تلك الأشياء وأهميتها في حياة الإنسان. وعلى هذه الدعوى يرد (إيربن) رداً مفحماً إذ يقول: إن في هذا الكلام مغالطة الدور. لأنه كلام يجعل النتيجة سبباً ثم يجعل السبب نتيجة. إذ لماذا لما ينفع الحياة قيمة؟ هكذا نسأل البراجماتيين وأنصار التطور البيولوجي. ولا أحسبهم إلا مجيبين بالجواب الأوحد الذي لاجواب سواه. وهو: لأن للحياة قيمة. . إذن فقد افترضنا منذ البداية وجود

---

١ - المرجع السابق ص ٢٤١، ٢٤٢.

٢ - المرجع السابق ص ١٦٧، ٢٤٠ ومابعدها.

(القيمة) أي أنها كانت هي (المبدأ) الذي على أساسه يحكم بعد ذلك على مختلف الأشياء بالصواب أو بالخطأ. فما يخدم تلك (القيمة) الأولية - قيمة الحياة لذاتها - هو الصواب. ومالايخدمها هو الباطل. وهكذا إذ يجعل البراجماتيون وأصحاب التطور القيمة نسبية. يكونون في الوقت نفسه قد افترضوا افتراضاً سابقاً بوجودها وجوداً مطلقاً[1].

كان ذلك هو منطق الفلسفة الغربية المعاصرة بالنسبة لنظرتيها. البراجماتية التي تفترض نسبية القيم، أو الاتجاه الآخر الذي حمله وليبر ايربن في دفاعه عن القيمة باعتبارها مطلقة.

وعلى الرغم من أن تلك الاتجاهات قد أثرت الفكر القيمي في الغرب إلا أنها وقفت جميعها عند حد تعيين مكان أو موضع لها خاصة بالنسبة للقيم المطلقة.

ولو أردنا الوقوف على الأصول الفكرية لتلك الاتجاهات، لوجدنا أن الأساس يكمن في الآتي:

١ - نظرية الطبيعة:

«يعتبر أبيقور الذي مات قبل المسيح بـ٢٧٠ سنة أن من العبث البحث عن مبادىء الأخلاق وأصولها في الشرائع أو العقل، وأن الحقيقة الواحدة هي الطبيعة والاحساسات المنبثقة عنها. والهدف الأول هو الانسياق مع تيار هذه الطبيعة - فاللذة - جسمانية أو روحانية- هي مقياس القيم الأخلاقية وهي مبتدأ السعادة وخبرها»[2].

وقد استفاد من النظرية الأبيقورية بعض علماء الأخلاق الإنجليز كالفيلسوف بنتام (١٧٤٨-١٨٣٢) لكنه لم يجعل اللذة الفردية وحدها هي المقياس بل اعتبر المجتمع أيضاً فنوه بأن الغاية الخلقية هي تحقيق أكثر مايمكن من السعادة لأكبر عدد من الناس، أو بعبارة أخرى يطالب بالوصول إلى أعظم قسط من المنفعة. ولذلك سميت نظريته بنظرية النفعية[3]، أو المنفعة.

جاء بعده جون استيوارت مل (١٨٠٦-١٨٧٣) ليؤكد أن لبعض اللذات قيمة ذاتية أسمى كلذات الروح والقلب بالنسبة للذات الحس، وعلى هذا الأساس اتجهت الفلسفة الطبيعية إلى اعتبار القيم «جزءاً لايتجزأ من الواقع الموضوعي للحياة والخبرة الإنسانية. فالأشياء من وجهة نظرها لاترتبط بقيم سامية لسر كامن فيها، وإنما قيم الأشياء هي نتاج

---

١ - المرجع السابق.
٢ - الفلسفة والأخلاق، مرجع سابق ص ٤٢.
٣ - المرجع السابق ص ٤٣.

اتصالنا بها وتفاعلنا معها وبسعينا لها، وتكوين رغباتنا واتجاهاتنا نحوها. أي أنها نتاج عادات فكرية كوناها حول الموضوعات أو الأشياء التي ترتبط عندنا بتلك القيم، ومن ثم فإنها من نسج الخبرة الإنسانية، وجزء لايتجزأ من كيانها. وأن الأشياء بالنسبة إلى النظرة الطبيعية التجريبية ليست في ذاتها خيرة أو شريرة، صحيحة أو خاطئة، قبيحة أو جميلة، وإنما هذه الأحكام نصدرها من واقع تأثيرنا في هذه الأشياء وتأثرنا بها»[1].

«والقيم بهذا المعنى أحكام يصدرها الإنسان على الأشياء، وأحكام منبثقة من واقع تفاعلنا مع الأشياء ومن واقع خبراتنا بها في مواقف معينة»[2].

٢ - نظرية العقل:

- كان أفلاطون قد تأثر بالمذهب الفيثاغوري الذي يعتبر النفس لطيفة ربانية انحدرت من عالمها العلوي وسجنت في رمسها الجسماني، ونظراً لعنصر النفس الإلهي ولما مرحت فيه من فضيلة مثلى خلال حياتها الماضية في عليين بقي فيها ذلك الحنين إلى عالم السعادة التي ذاقت من متعة الأطايب فصارت تتشوق إلى الكمال وتطمح إلى الخير»[3] وكان في اعتباره «أن هناك مصدراً يجب أن يستقي منه الناس هذه المعتقدات التي جعلتهم يتحدثون عن المثل السابقة ويتمسكون بها. وهذا المصدر في نظره لايمكن أن يكون هو حياة الحس المملوءة بالخلط والاضطراب المستمر، وأن الناس لايعون مصادر الالتزام في حياتهم إلا أنهم يدركون مثلاً علياً»[4] «أي أن مصدر القيم هو عالم المُثل الذي يمتاز بأنه عالم أبدي غير متغير ومطلق. إلا أنه قد أُخذ عليه أن الحل الذي قدمه يمتنع عن الملاحظة العملية أو التجريب»[5].

- «جاء «كانت» بعد ذلك في عصر تزعزعت فيه الكثير من المعتقدات بتأثير العلم التجريبي، وبتأثير النزعات التشككية فتصدى لمشكلة القيم. ولم يكن من المستطاع أن يلجأ في عصر العلم إلى عالم خارجي كما فعل أفلاطون فاهتدى إلى حل وإن كان عقلياً إلا أنه داخلي، على اعتبار أن العلم والأخلاق والجمال مصدرها العقل. وليس للأشياء الحسية شكل خاص تفرضه على العقل، وإنما العكس هو الصحيح. ذلك أن تركيب العقل هو الذي يعطي الخبرات الحسية شكلها الخاص الذي تدركه. ومن ثم فإن العالم الخارجي لايتعدى أثره احساسات، وأما التركيب الداخلي للعقل ومايحويه من مفاهيم هي (مقولات الفكر) فهي

---

١ - قيمنا الاجتماعية، مرجع سابق ص ١٠.
٢ - المرجع السابق ص ١١.
٣ - الفلسفة والأخلاق، مرجع سابق ص ٤٣.
٤ - قيمنا الاجتماعية، مرجع سابق ص ٧، وانظر القيم والعادات الاجتماعية مرجع سابق ص ٣٢.
٥ - المرجع السابق ص ٨.

(قبلية) أي موجودة في العقل وجوداً مستقلاً عن الخبرة وسابقة لها»[١].

ولما كان «كانت» قد سبق له أن تأثر بنظرية روسو فقد كان «يرى أن الوجدان متقلب غير قار وأن العقل العملي التطبيقي ضروري للتعرف على الواجب. فالإرادة الحسنة هي أجمل شيء في الوجود. لاسيما إذا تغلبت بالعقل على الأغراض والأهواء والنزعات العاطفية وتجلت كأمر صريح يقتضي الطاعة دون شروط ولاقيد ولا اعتبار للنتيجة لأن الخير كل الخير في الخضوع للواجب والائتمار بأمر القانون الخلقي. وأنه إذا أردت أن تعلم حسن الشيم من قبيح الصفات لو عممت فإذا كانت ستمخض حتماً عن خلل في نظام الوجود والعلائق الإنسانية فاعلم أن القبح شيمتها. وكانت أهم نقطة في فلسفته أنه جعل لدى الإنسان الاقتدار على حب الخير وأن درك الكمال في مقدوره. وأن الإنسان حر مختار مريد بفطرته السليمة وبعقله العملي»[٢].

«إلا أنه قد أُخذ عليه أيضاً بأنه أقام حاجزاً نهائياً بين العقل والعالم الخارجي، وهو لم يخرج كثيراً عن فلسفة أفلاطون العقلية. فكلاهما وقف عند حد تعيين مكان أو موضع للقيم»[٣].

٣ – نظرية الوجدان :

– جاء برجسون ليقرر «أن العقل ليس له نفوذ وأنه لايمكن أن يقاوم وحده الأهواء والأغراض، فالأخلاق عامة التكاليف، وليس في وسع الناس المكلفين ببذل مجهود فكري الوصول إلى الكمال. ومن ثم ينبغي الاستناد إلى قوة أخرى هي قوة الوجدان[٤]. ووجدت الفلسفة العاطفية في غضون التاريخ الفكري دعاة متحمسين وفي طليعتهم روسو وآدم سميث وبرجسون ورأي الأخير أن هناك نوعين من الأخلاق نوع يبذر فينا تقدير الواجب تحت ضغط المجتمع بحيث يكون مجموع العوائد الاجتماعية التي تؤثر على إرادتنا هو هيكل الواجبات. ونوع ثان من الأخلاق يرجع لباعث نفساني وعامل وجداني يهز الأكتاف ويحرك الأعطاف ويتجدد فينا بتجدد مظاهر البطولة وذكريات الأبطال والفضلاء. وأن الوجدان عامل هام في الحياة الخلقية. فبقوة الوجدان وسموه تعرف قيمة النفوس. والعاطفة أجدى في الأخلاق وأبلغ أثراً من العقل لأن الإنسان يسير إلى الخير بقلبه، والإرادة وإن كان زمامها العقل فإن الكمال يقتضي منها أن تذكيها العاطفة ويحركها الوجدان.

---

١ – قيمنا الاجتماعية، مرجع سابق ص ٩.
٢ – الفلسفة والأخلاق، مرجع سابق ص ٤٥.
٣ – قيمنا الاجتماعية، مرجع سابق ص ٩.
٤ – الفلسفة والأخلاق، مرجع سابق ص ٤٥.

لكن خصوم برجسون اعترضوا عليه قائلين أن في العقل استدامة وطمأنينة ينعدمان في الوجدان فالعاطفة غير قارة والوجدان قابل للاغترار والتطرف يتعجله الضني وينهكه الاستمرارية والوتيرية وللعاطفة جمحات لايردعها إلا منطق العقل[1]، ومن ثم فقد ركزت هذه النظرية على الحب كأصل للوجود وقانوناً للأخلاق، فالحب الإلهي عون دائم في اعتبار الأديان المنزلة وبه تتحقق سعادتنا الأبدية التي تضن بها علينا الدنيا وأهل الدنيا. وهكذا يقول علماء الأخلاق المتشبعون بالروح الإسلامية والمسيحية لأن هذه النظرية شائعة في المسيحية والإسلام. وممن قال بها ابن عربي الحاتمي، وابن قيم الجوزية[2].

إلى هنا وفي ظل عصر العلم والتكنولوجيا والتفكير العقلي البحت، وصراع الأيدلوجيات الفكرية والاتجاهات النفعية حظي الاتجاه الأول - اتجاه الفلسفات الطبيعية بالذيوع والانتشار والتفضيل والتبني وارتبط مفهوم القيمة بالمنفعة والفائدة واعتبر الشيء القيم هو النافع والمفيد على أساس أن القيمة في حد ذاتها هي الخير أو الشر كما سبق أن نوهنا. وابتدأ الصراع القيمي يطفح بالنفع ملاذاً بالواقع ودون اللجوء إلى عوالم أخرى، وكل ذلك التفكير قد استند إلى أفكار وهمية هي اعتبار القيمة خيراً وليس عدلاً. ذلك هو الخير الفقير الذي أعدم صاحبه واعتبروه قيمة في نظرهم. ولو أنهم عرفوا خير الخيرين وشر الشرين لكان ذلك أجدى في دعوتهم وأنفع لمآلهم ومآل غيرهم وأقرب إلى الهداية من باب الضلال الذي فتحوه على مصراعيه وراح وراءهم من يتلمسون خطاهم وتركوا وراء ظهورهم عزهم، ونسوا خصائص التكريم في حقهم.

خصائص القيم :

أُشير إلى أن قاموس علم الاجتماع يعرف القيمة بتعريف شامل يجمع الكثير من خصائصها. فالقيمة فيه هي (الاعتقاد أن شيئاً ما ذا قدرة على إشباع رغبة إنسانية. وهي صفة الشيء التي تجعله ذا أهمية لفرد أو جماعة. والقيمة على وجه التحديد حقيقة سيكلوجية وليست قابلة للقياس بأية وسيلة من وسائل القياس التي توصل إليها العلماء حتى الآن. ولابد من تمييز القيمة تمييزاً دقيقاً عن المنفعة لأن حقيقتها تكمن في العقل البشري لا في الشيء الخارجي نفسه. والقيمة بالتحديد مسألة اعتقاد. فالشيء ذو المنفعة الزائفة تكون له القيمة نفسها كما لو كان حقيقياً إلى أن يكتشف هذا الخداع[3].

١، ٢ - الفلسفة والأخلاق، مرجع سابق ص ٤٦.
٣ - القيم والعادات الاجتماعية مرجع سابق ص ٢٤.

والقيمة على هذا النحو وإن كانت تتضمن معاني كثيرة كالاهتمام أو الاعتقاد أو الرغبة أو السرور أو اللذة أو الأشباع أو النفع أو الاستحسان أو الاستهجان أو الرفض أو المفاضلة والاختيار أو الميل والنفور. وكل هذه المعاني تعبر عن عناصر شخصية وذاتية يحسها كل منا على نحو خاص به وهي عناصر وجدانية وعقلية غامضة تعتمد على الشعور الداخلي للشخص وعلى تأملاته الباطنية ومزاجه وذوقه وهواه مما يجعل القيمة غير خاضعة للقياس[١].

وما دامت القيمة إنسانية شخصية تتوقف على الاعتقاد. فلابد إذن أن تكون نسبية بمعنى أنها تختلف عند الشخص بالنسبة لحاجاته ورغباته وتربيته وظروفه كما تختلف من شخص لشخص ومن زمن لزمن ومن مكان إلى مكان ومن ثقافة إلى ثقافة، وهي وإن كانت تفضي إلى الاختيار والاختيار يفضي إلى الإيثار، ويقوم الإيثار على الترجيح والتفضيل كان لابد من وجود ما اصطلح العلماء على تسميته (سلم القيم) ذلك لأن التفضيل ينتج عنه وضع الأشياء في مراتب ودرجات بعضها فوق بعض وبعضها أرفع من بعض ولذلك كان من خصائص القيم أنها تترتب فيما بينها ترتيباً هرمياً فتهيمن بعض القيم على غيرها أو تخضع لها فهي تتضمن نوعاً من الرأي في الحكم على شخص أو شيء أو معنى معين. كما تتضمن أيضاً لوناً من الوجدان، واتجاهاً نحو هذا الشخص أو الشيء أو المعنى. وهي لاتصبح قيمة بالنسبة للفرد إلا إذا توافرت لها شروط معينة وأهم خصائصها كما قلنا أنها عصية على القياس وتقوم على الاعتقاد ونسبية وترتب نفسها ترتيباً هرمياً وتتضمن الوعي بمظاهرة الثلاثة الإدراكية والوجدانية والنزوعية.

فالمظهر الإدراكي يتضح في عملية الإدراك للشيء موضوع القيمة وتمييزه ومايتصل بذلك من عمليات عقلية ذهنية فكرية مثل التذكر والتصور... إلخ.

والمظهر الوجداني للوعي بالقيمة يظهر في الشعور العاطفي أو الانفعال بالميل إلى الشيء موضوع القيمة - أو النفور منه.

والمظهر النزوعي يظهر في السعي أو في المجهود الحركي الظاهري الذي يبذل لبلوغ هدف معين أو الوصول إلى معيار معين من السلوك[٢]. بمعنى أوضح أننا في حياتنا الواعية ندرك ماحولنا بالسمع والبصر وغيرهما من الحواس فيحدث فينا هذا الذي أدركناه حالة شعورية تضعف وتشتد وفق خطورة الموقف الذي يحيط بنا، وبهذا الإدراك الذي يصحبه الشعور الذي يلائمه، نتصرف على النحو الذي يحقق لنا مانبتغي. أما الإدراك فالغرض فيه أن يكون إدراكاً

---

١ - المرجع السابق ص ٢٦.

٢ - المرجع السابق ص ٣٠.

صحيحاً لا مضللاً مغلوطاً حتى يجيء السلوك آخر الأمر على أساس سليم. ومن هنا كانت قيمة الحق حياة الإنسان، لأنه يريد أن يعلم ما هنالك على وجه الدقة واليقين حتى لو وسوس له الشيطان بعد ذلك أن يكتم الحق في نفسه ليخفيه عن الناس، أو أن يخدع الناس بالقول الباطل. فالإنسان بفطرته ينشد الحق، وعلى الحق يبنى علومه، وعلى علومه يبني حياته المادية كلها. ذلك هو جانب الإدراك ومايلحقه من قيمة الحق في نظرهم[1]. وأما جانب السلوك الذي ينتهي به المطاف. فالغرض فيه أن يجيء سلوكاً محققاً لأهدافه. أي أن يجيء سلوكاً ملتزماً سواء السبيل. إذ المجنون وحده هو الذي يقصد إلى هدف ثم يعتمد أن يسلك السلوك الذي لايحققه. وإذا قلنا «سلوك صحيح» فقد قلنا فضيلة فما الفضيلة إلا السلوك الذي دلت خبرة الإنسان في تاريخه الطويل - لا الإنسان الواحد المفرد في حياته القصيرة - على أنه خير مايحقق الأهداف. وإذن فالإنسان بفطرته يقيس صواب السلوك بمقياس الخير الذي يترتب على فعله فالخير عند الإنسان قيمه لأنه ليس له عنها غناء حتى وهو يقترف الاثم ويفعل الشر. لأنه حالة اقترافه الإثم يتمنى من صميم نفسه ألا يفعل سواه ماهو فاعل وإلا لضاعت عليه فوائد إثمه. وهل يريد - سارق المال مثلاً - أن يتعرض له سارق آخر فيسلبه ماقد سرق؟ ... هل يريد القاتل أن يقابله قاتل آخر فيقتله كما قد قتل؟ هاتان إذن قيمتان - الحق والخير- تمليهما على الإنسان فطرته: قيمة الحق فيمايعلمه ويدركه. وقيمة الخير فيما ينشط في سبيله. وبقيت قيمة ثالثة تقع وسطاً بين الطرفين هي مايطلقون عليه اصطلاحاً بالنشوة الجمالية. فلئن كان بين الإدراك من ناحية والسلوك من ناحية أخرى حلقة وسطى هي الحالة الوجدانية ممايشيع فيه الطمأنينة والرضى فتراه على هذا الأساس يختار ثيابه ومسكنه وأثاث بيته، ويفنن الفنون صوتاً ولوناً ونحتاً وعمارة[2].

هذه هي القيم الثلاث السابق الإشارة إليها بمظاهرها الثلاث الإدراكي والوجداني والنزوعي. فلكي نسمي هذه قيمة أو تلك. يجب أن تتوفر لها هذه الشروط الثلاثة، والتي استقر رأي الفلاسفة عليها من أنها هي «الحق والخير والجمال». وعنها تتفرع معاني يضحي الإنسان بنفسه ولايضحي بها، ومن هذه المعاني العدل، والسلام، والحرية[3].

---

١ - حياة الفكر في العالم الجديد، مرجع سابق ص ١٢٢.
٢ - المرجع السابق ص ١٢٣.
٣ - المرجع السابق.

العلاقة بين القيم والمعايير

قيل بأن المعيار هو قاعدة أو مستوى لعمل ما ومرده إلى اللفظ اللاتيني Norma الذي يعني مسطرة النجار والذي بموجبه يمكن قبول أو رفض عمل ما(١).

والمعيار الأخلاقي هو الذي نستطيع أن نميز به بين السلوك الأخلاقي وغير الأخلاقي ونقيم به الأخلاق بصورة عامة(٢).

وهناك من يفرق بين المعايير والقيم في ضوء عمومية وخصوصية الممارسة فمايعد -رغوباً فيه من أعضاء المجتمع ويحدد على أساس مقولات عامة يدخل في نطاق القيم، ومايحدد في ضوء مقولات خاصة يدخل في نطاق المعايير. أي أن كل من القيم والمعايير بمثابة نموذجين مختلفين من الموجهات الرمزية للفعل.. فالأولى تحدد التفضيلات الاجتماعية والثانية تحدد الالتزامات الاجتماعية. وعلى ذلك تكون القيم هي العنصر العام الذي يحقق الصلة بين الأنساق الاجتماعية والأنساق الثقافية. بينما تكون المعايير ذات طابع اجتماعي خالص له فاعليته في الحكم على العمليات الاجتماعية في مجالاتها المتعددة الأوجه. وهذا التعريف والتحليل الذي قدمه بارسونز يختلف عن تحليلات ماركس التي وحدت بين القيم والمعايير وردتها إلى العمل المنتج النافع اجتماعياً(٣).

كذلك وحد أصحاب الاتجاهات المثالية بين المعايير والقيم وإن جعلوا المعايير سابقة على القيم.. فالخير يكون ذلك لأنه الأصل في تقدير خالق الوجود وهو الله الذي أراده لعباده(٤).

والقيم وإن كانت تتشكل في الأفراد بتشكل ثقافاتهم وبمراحل حياتهم وتتبلور في الذهن بقدر استطاعة الفهم، وتختلف معانيها من شخص لآخر. فمنا من يطبقها في حياته العملية لتضفي نوعاً من السلوك المميز عنده. وهي عند آخر لا أثر لها، وهي في حد ذاتها وإن كانت معياراً للسلوك الناضج الواعي الذي يؤدي في النهاية إلى مصلحة الفرد أو الجماعة لكن بلغة الاستدراك تقول أي القيم أفضل من غيرها؟ وهل ظلت تلك القيم المتبناه عن الذوق والوجد وعن الأوضاع الاصطلاحية والعادات الاجتماعية والخير الفقير في حالة من الوضوح والتحديد

---

١ - القيم والتربية، مرجع سابق ص ١٠.

٢ - الاتجاه الأخلاقي في الإسلام، مرجع سابق ص ٢٧٣.

٣، ٤ - القيم والتربية ص ١١، ١٢. مرجع سابق.

معمـولاً بها عنـد من يـرى فيهـا الاختيـار؟ . . أم أدت بـه إلى مـا يسمى بـالصراع القيمي ذلك الصراع الـذي هدد الكيـان البنائي للقيـم الاجتماعية حتى أصبحت لفظـاً بغير معنى . . وهل ظلت كذلك القيم الدينية لها مكان بيننا ومعمولاً بها . . وماهي في تفصيلاتها المنهجية؟ .

قبل الإجابة عن تلك التسـاؤلات يجدر بنا إبـراز حقيقة المعيار الأخلاقي في الإسـلام ثم الرجوع بنا إلى الفكر الغربي المعاصر باعتباره فكراً عقلياً بحتاً وإن كان يعد مصدراً معتداً به في تقويم المفاهيم الاصطـلاحية للقيم الوضعية . ثم نعود من حيث بدأنـا لبيان الفكر الإسلامي بـاعتباره عقلياً ووجدانيـاً ومنشأه في تقويـم المفهوم الاصطـلاحي للقيم الإنسانيـة . ومن ثم نستطيع أن نقف على تلك التسـاؤلات .

حقيقة المعيار الأخلاقي في الإسلام

إذا كـان المعيـار الأخـلاقي هـو الـذي نستطيـع أن نميـز بـه بين السلـوك الأخـلاقي وغير الأخلاقي ونقيس به الأخلاق بصورة عامـة. فهل هو معيار مسبق لما يجب أن يكون عليه سلوك المسلم حمله إلينا الشرع، وارتضـاه العقل والوجدان في ظل الإسلام؟. أم ترك للبـديهة الإنسـانية تملي على نفسها ماتشاء وتتأول ماترتضيه؟.

وفي مقام الـوقوف على ذلك يجب معرفة الميـزان وبيان حقيقته التي أوردهـا القرآن. ومن ثم الوقوف على القيم التي يكون لها عند الله اعتبار في تقدير الجزاء لمعرفة حقيقة المعيار الأخلاقي في الإسلام.

فقد ورد ذكر الوزن والميزان في آيات بينات هي:

قـال تعالى في سـورة الحديد – ٢٥: ﴿لَقَـدْ أَرْسَلْنَـا رُسُلَنَـا بِـالْبَيِّنَاتِ وَأَنْـزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَـابَ والمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ..﴾.

كما قـال تعالى في سـورة الأنبياء – ٤٧: ﴿وَنَضَـعُ المَوَازِينَ الْقِسْـطَ لِيَوْمِ القِيَـامَةِ فَـلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً..﴾.

وسورة المؤمنـون ١٠٢ – ١٠٣: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَـأُولَئِكَ هُمُ المفْلِحُونَ. وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾.

وهناك أمـر بجعل الوزن بالعدل والإنصـاف في الدنيا بلا تطفيف أو نقص – قـال تعالى في سورة الرحمن – ٩: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا المِيزَانَ﴾.

ثم نجد في سورة الأعراف –٨ – ٩ – يقول تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ المفْلِحون. وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ...﴾.

ففي الآيـة الأولى من سـورة الحديـد – ٢٥ نجـد إخبـار من الله – تعـالى– بإرسـال الـرسل بالحجج القـاطعة والمعجزات البينة. وإنزال القـانون الذي يُحكم به بين النـاس ليستقيم الناس على أمر من الحق والعدل في معاملاتهم الدنيوية.

أما في الآيـة الثانية من سورة الأنبيـاء – ٤٧ ففيها إخبار من الله – تعالى– بأنـه أعطى لنفسه

دون غيره وضع القوانين العادلة والموازين الصحيحة التي توزن بها الأعمال في الآخرة فلاينقص مُحسنٌ من إحسانه، ولايزاد مُسيءٌ على إساءته.

وفي الآيات من ١٠٢-١٠٣ من سورة المؤمنون نجد أيضاً إخبار من الله - تعالى - عن ثقل الموازين وخفتها، وأهميتها في تقدير الفلاح والخسران، وتأكيد مآل من خسر.

وفي سورة الرحمن الآية ٩ نجد أمر تكليفي للبشر بجعل الوزن في الدنيا بالعدل والإنصاف بلاتطفيف أو نقص.

أما سورة الأعراف الآية ٨ فنرى إشارة وتوجيه إلى أن الوزن يوم القيامة هو [الحق].

ذلك كان عن ذكر الوزن والميزان في القرآن. أما عن بيان حقيقة الميزان. فكما نعلم أن الميزان في التصور الإنساني هو آلة لضبط الحقوق المتعلقة بالماديات. لكن نتساءل عن كيفية وزن الأعمال في الآخرة؟. وماهي القيم الترجيحية التي سيكون لها عند الله اعتبار في تقدير العطاء والجزاء؟.

أولاً: ذهب الإجماع في شأن الميزان [أي ميزان الآخرة] بأنه ميزان يناسب مقامه وبالشكل الذي نراه في الدنيا له كفتان ولسان وتوزن فيه الصحف المكتوب فيها الحسنات والسيئات. وأنه ليس هناك مايمنع في أن يجعل الله للأمور المعنوية شيئاً له ثقل تأسيساً على أنه قد أُعطي في التمثيل المخيف للموت - وهو أمر معنوي- بأنه يأتي يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح. وما ثبت من الأحاديث الصحيحة من «أنه يؤتى بالأعمال الصالحة على صورة حسنة وبالأعمال السيئة على صورة قبيحة فتوضع في الميزان فمن رجحت حسناته سُعد. ومن رجحت سيئاته شقي. ومن ثم فالمعاني قد تتمثل في أشياء لها وزن. ولكي نقرب ذلك للأذهان نقول بأنه مادام العلم قد أوصلنا اليوم لأن نضع موازين للحرارة والبرودة. وللرياح والأمطار .. إلخ وبشكل يناسب مقامها في الدنيا. فلايستبعد وجود الميزان في الآخرة.. نقول ذلك لمن لايؤمنون بالبعث والميزان.

ولما كان الله أعلم بمن خلق. لكن مشكلة الإنسان في الحياة أنه يريد أن يكون على الأرض إنساناً إلهاً ليصبح هو مقياس الأشياء جميعها. أو هو المقنن للقيم والمعايير، ويقيس منطقه في الدنيا بمقياس الأنانية فما قد يثبت على مر الزمن أنه نافع له جعله قانوناً خلقياً ارتسم به سلوكه. وما تبين على مر الزمن أنه ضار حذفه من قائمة الأفعال المقبولة، وجعل في اعتباره أن النفع والضرر يتغيران بتغير الظروف والأحوال. ومن ثم فقد نظر إلى مبادىء الأخلاق التي وضعها لنفسه على أنها نسبية لا مطلقة.. وكان ذلك جانب من تفكير الإنسان الإله!!.

أما الجانب الآخر من التفكير فنظر إلى أنه ما هو إلا إنسان حر طليق وُجِد على ظهر الأرض بمحض الصدفة وعليه أن يتخذ لنفسه ما شاء من قرار شرطه في ذلك أن يكون مسؤولاً خلقياً عن قراره وكفى. ونفى أن يكون هناك أحداً فوقه، أو أحداً إلى جانبه يملي عليه مايجب ومايجوز، أو يحل له، أو يحرم عليه. بل هو البادىء بقراره بدءاً غير مسبوق بمبدأ صاغه سواه.

تلك هي طبيعة البشر في غياب الشرائع والأديان، في كل وقت وآوان، ولهذا حينما جاء القرآن ليرسي مبادىء الإنسانية ونبذ شريعة الغاب والأنانية نظر بمعيار العدل فجعل [القيمة] عدلاً ولم يجعلها [خيراً] ليخرجها عن واقع الإلتباس بخصوصية النفع الملازمة لكل خير. فالقيمة إن دارت في فلك العدل هناك الأمن والأمان والاطمئنان، وهي وإن كانت في حاجة إلى عقل واعي مدرك، فهي أيضاً في حاجة إلى مشرع ليعادل النصاب المعياري الصحيح وفق معيار مسبق لايحابي أحداً ليصبح واجب الأداء. خصوصاً إذا كان المثل مختلف الجنس. فالعدل لايحابي أحداً بقصد نفعه، بل يهدف لتقويم سلوكه بغض النظر عن أن ذلك نافع له من عدمه لتعلق ذلك بإقامة الحق. ولهذا جعل الله الوزن يوم القيامة هو [الحق] ولم يجعله [الخير]. ذلك لأن القيمة لو دارت في فلك الخير أو باعتبارها خيراً بدلاً من الحق لتلازمت خصوصية النفع مع الخير وتأول معناه - كما نرى - في أن يقاس كل ماهو خير بأنه نافع حتى وإن لم يكن حقاً.

ولذا لو رجعنا للخير وتحديد معناه في القرآن، لوجدناه قد ورد ذكره بأكثر من عشرين وجهاً أو معنى بين درجات الوجوب والاعتقاد لجعل القيمة والفضيلة هي معيار النفع والاعتدال. فالخير الذي لايقود إلى الصلاح والإصلاح، ولايُغني أو يُقني هو خير فقير بكل المقاييس. وكذلك الذي لايقود إلى العفة وحسن الأدب هو كذلك أيضاً، والخير الذي لايقيسه الإنسان بميزان الأنفع والأحسن، بل يقيسه بميزان المنفعة وكفى لاتُرجح كفته في ميزان القيمة والفضيلة. ولذا نرى أن الخير الذي يهدف إليه فلاسفة العصر وعلماء الاجتماع في كل عصر ومصر. ليس هو الخير الذي حمله إلينا الأنبياء، وإن كان المسمى واحد، لكن المضمون يختلف تماماً في ظل الإسلام.

ولو نظرنا للمثلث القيمي المحدد أضلاعه بالحق والخير والجمال لوجدناه يختلف تماماً في الإسلام إذ لايستند ذلك الإطار التركيبي الابتكاري إلى أصول قيمية معترف بها. بل إلى انساق اجتماعية مضللة فلأن كانت محمولة على ألفاظ ذات دلالة عندهم إلا أنها جوفاء لاتحمل في معناها ولادلالاتها أي معنى أو قيمة.

فأي حق يقصدون؟. وأي خير يتمنون؟. وأي جمال يتغنون به ويتشدقون؟.

التفكير الغربي باعتباره عقلياً ومنشاه
في تقويم المفهوم الاصطلاحي للقيم الاجتماعية

رأينا كيف كانت الاتجاهات التي حكمت منطق القيم، ولو أردنا الوقوف على تأثير ذلك كله في الأخلاقيات والسلوكيات، أو في نتاج الفكر الغربي عامة لوجدنا الآن أننا نعيش في عصر أطلق عليه عصر العلم والتكنولوجيا وأصبحت سمة ذلك العصر سمة مادية بحته فيه كادت أن تتلاشى حتى القيم الاختيارية من بعض أفراد المجتمعات - إن لم يكن أكثرها- لأنها ستمدت أصلاً من المصدر البشري المتمثل في ثقافة العصر والثقافات التي سبقته، وباعتبار أن تلك الثقافات هي دائماً في حالة من التغير وعدم الثبات فتتغير قيمه بتغير المجتمع وأنماطه. . ذلك وحده كان كفيلاً بأن يؤدي إلى الصراع القيمي المتمثل في بناءات اختيارية تحض الإنسان على المثل الأعلى. . وبين بناءات تبريرية تعالج الواقع المعاش. . فعاش الإنسان بين شد وجذب. . فما كان يمثل في نظره قيمة في وقت من الأوقات أصبحت اليوم حقيقة بالية بعدت بالتفكير عن المثاليات والمثل الأعلى.

صراع تولد في العالم كله لافتقاد الشعور بالإيمان وبالتالي انهيار الأخلاق لارتباطها به. . فإذا ما سار الجانب الاعتقادي في جهة بعيداً عن الجانب الأخلاقي باعتباره ملازماً له في البقاء انهارت القيم التي يقوم عليها المجتمع. . ذلك الصراع هو مانعايشه الآن. وتعايشه كل المجتمعات. إلا أن شكل المعايشة هو الذي يختلف فقط. لكن النتيجة واحدة. . تفسخ وانحطاط. . لأن الأخلاق حينما تستمد معاييرها من الدين والمصدر الأزلي والأبدي. . فإنها تظل ثابتة ومستقرة في النفس مهما أعتور الثقافة من ضعف أو قوة. . لاكتسابها أصلاً بالمعرفة عن إيمان وعقيدة. خصوصاً إذا كانت عقيدة تؤمن بأهمية العقل وبضرورة الوجدان. لكن إذا طغي العقل على العاطفة. أو طغت العاطفة على منطق العقل فإن معيار القيمة يهتز أو يتلاشى. وهو مانراه اليوم من طغيان العقل على الوجدانات. . فتلاشى الجانب الإنساني في حياة البشر أو كاد.

ليس معنى ذلك أن نهدر حقائق العلم ونطلب التماس الحدس في أهم عصر نعيشه. . بل يجب أن نوازن بين مايجب أن تكون عليه انسانيتنا بدفقات وجدانية تجري منا مجرى الدم في عروقنا. وبين عقل يهدي البصيرة لأمور حياتنا وتنظيم شئونها، ومن ثم نعايش الواقع لاتبهرنا

أضواء العلم المتمثلة في تكنولوجياته وتختفي وجداناتنا، ويكون مصيرنا كمن وقف في وسط الطريق متردداً وشاكاً في أين بداية الطريق؟. وأين نهايته؟. أو من أين يبدؤه؟ هل يواصله دون تعسر في ظل قيم تحدد له الأهداف والغايات؟ أو أن يتراجع إلى ما كان عليه قبل السير فيه خوفاً من المشقة والضجر؟.

إذا نظرنا للتفكير الغربي الآن لوجدناه يسير سيراً سريعاً ومنذ زمن نحو التفكير العقلي البحت المدعم لمسار التكنولوجيا.. فاتسام العصر بالعلم واقتران التكنولوجيا به.. وعدم ارتباط العقيدة بالأخلاق.. أوجد حمى سرت في كيان الجسم البشري كله بأهمية العقل إذ أصبح هو المسيطر الوحيد حتى أصبحت كل كبيرة وصغيرة تقاس بمقياسه.. وضاع الوعي.. ولم يحتكم أغلب الناس إلى عقل هادي مع إدراك وجداني سليم.. رغماً من أن مهمتهما معاً متكاملة في كل أمر من أمور الحياة.. «ذلك أن الإنسان يختار أهدافه بالعاطفة ثم يخطط بالعقل لتحقيق تلك الأهداف.. إذاً بالعاطفة أردت وبالعقل نفذت»[1].

وحتى تكتمل الصورة في ذهن القارىء. نتساءل عن التكنولوجيا الغربية هل هي صحيحة المسار؟. أم أنها وجدت لتدمر قيماً ومن يحملونها؟.. أعتقد ويشاركني في الاعتقاد آخرين بأنها كذلك، رغماً من لمساتها الإنسانية!!.. لماذا؟ لأن العلم حينما يكون علماً نافعاً لابد وأن يرتكز على عقيدة إيمانية. يقترن فيها العلم بالإيمان النابع من الشرائع السماوية التي جاءت لتكون هي المعيار الوحيد.. بل الأول والأخير لسعادة البشر. ومن ثم تصبح التكنولوجيا صحيحة المسار. موجهه.. قامت أساساً على علم مقرون بالإيمان.. إيمان بالله وبالقيم التي هي جزء لايتجزأ من شرائعه.. بل هي شرائع التوجه له دون غيره.. فالتكنولوجيا الغربية بعيدة الآن كل البعد عن شيء اسمه [الإيمان]، ولم يقترن العلم به.. فأصبح العلم على شاكله.. والإيمان على شاكلة أخرى فنرى الأخلاق قد تدنت.. «مع ملاحظة أن هذه الأخلاق لو بقيت على صورتها المستمدة من الدين المسيحي لتقاربت إن لم تتطابق مع الأخلاق الإسلامية.. غير أنها غلبت عليها الفلسفة التي ترى أن المثل الأخلاقية بعيدة عن السلوك الواقعي.. ومن ثم استبدلت بالأسس والمصادر التي انبثقت عنها الأخلاق المسيحية ومصادر أخرى.. وبذلك تحولت إلى أخلاق عامة لا ارتباط بينها وبين الدين»[2].. حتى نرى رجعة في الفكر الغربي ترى ضرورة أن تقترن الحقائق العلمية مع الاعتبارات العاطفية لمساعدة الأفراد على تغيير اتجاهاتهم[3].. وتلك حقيقة لم يفطنوا إليها إلا بعد مضي حقبة كبيرة من الزمن.. ولو أنهم

---

١ - ثقافتنا في مواجهة العصر، دكتور زكي نجيب محمود ص ٢٢٥.

٢ - أسس المجتمع الإسلامي والمجتمع الشيوعي، دكتور زيدان عبدالباقي ص ١٦٨.

٣ - رسالة اليونسكو - العدد(١) ضمن مقالة تفهم العلاقات بين الجماعات، جين د. جرامز، ترجمة عدلي سليمان.

رجعوا للمصدر التشريعي لنا . . لاكتشفوا من قبل ذلك بوقت طويل . . أن المصدر لذلك الفهم . . وكل فهم مستقبلاً هو القرآن الكريم الذي جاء مخاطباً العقل ومناشداً الوجدان ليكون التأثير أوقع في عملية التغيير في الاتجاهات إلى اتجاهات سليمة في الأفراد . . هذا من جهه . ومن جهة أخرى . . نرى أيضاً بوادر رجعة أخرى في الفكر الغربي تمثلت في الشعور بالحاجة إلى معاودة التفكير في شروط العلاقة بين الإنسان والطبيعة . . مما يرى معه ضرورة ابتكار قيم أخلاقية جديدة[1] . . وذلك بما يتفق مع النظرة البراجماتية التي «تفترض عدم الثبات في القيم والمعايير . . بل تستوجب ضرورة تغييرها لتلائم الظروف القائمة»[2] . ومن ثم نرى أن مفهوم القيمة في الغرب . . رغماً من ضرورة التأكيد عليه . . مفهوم مشروط بالنظرة النفعية . . وكأن القيمة ماهي إلا سلعة يجري عليها ما يجرى على السلعة من ابتكار وتحديث . . ذلك الابتكار الذي طولب به . . وتجاهل المضمون الأخلاقي الذي يؤكد على أهمية العلاقة بين الإنسان والإنسان .

ولكي يترسخ في ذهننا أهمية دور القيم في عصرنا نضرب مثلاً حياً لما يدور في الغرب ونسرد بعض الوقائع التي تدور هناك لعلها تكون شفيعنا في عرض فكرنا والرجوع بنا إلى وقفة تأمل وحساب . لأننا دائماً شغوفين باستيراد أفكاره طالما غلفت بأغلفة براقة زاهية تبهر العين وتوهم النفس فنقبلها ونتبناها دون تفحيص وتمحيص . خصوصاً وأن تلك الواقعة التي نسوقها بالفعل على وشك أن تصدر إلى مجتمعاتنا الإسلامية .

إن أبشع ماوصل إليه الفكر هناك خاصة في بريطانيا وأمريكا لهو دليل على تفسخ وانحطاط . . لقد عملوا ضمن ما أسموه بالاتجاه العلمي البحت على ابتكار «أنظمة لمحاربة العقم بمايسمى ببدائل الأمهات وتأجير الأرحام مقابل مبلغ من المال . فهناك تتبنى مؤسسة الأمهات البديلات تلك الفكرة وتعتزم توسيع نطاق عملها ليشمل الشرق الأوسط كله»[3] وذلك للقضاء بتاتاً على صلة الأرحام ومقوماتها واقتلاعها وضياع معنى القيم الحقيقية . . «رغماً من أن الأمومة ليست عملاً مادياً . ولم نسمع ولم نر أن حيواناً أجر رحمه لحيوان آخر[4] .

إذن الخطر قادم لا محالة إن لم نع تماماً أهمية دور القيم الأخلاقية الإسلامية والوقوف على الأصول القيمية لها . . فليس هناك إلا أن نتفهم جوهر عقيدتنا للاستعانة بها في حل مشاكلنا وتنظيم مجريات حياتنا .

---

١ - رسالة اليونسكو العدد (٤)، مستقبل التربية، ضمن مقالة نحو قيم أخلاقية أيكولوجية جديدة، ترجمة محمود عبدالحميد السيد ص ٦٣ .

٢ - حياة الفكر في العالم المعاصر، مرجع سابق ص ٧٢ .

٣، ٤ - مجلة الدستور التي تصدر من لندن باللغة العربية، الأعداد ٣٤١، ٣٦٠، ٣٦١ .

التفكير الإســــلامي
باعتبـاره عقليـاً ووجـدانيـاً ومنشـاه في
تقويـم المفهوم الاصطلاحي للقيم الإنسانية

سبق أن نوهنـا إلى أن هناك ازدواجيـة في تراثنـا بين الأخلاق الـدينية والأخـلاق الفلسفية. وسبق أن قلنا أن الأخلاقيين تكلمـوا عن الفضيلة وتناسوا القيمة وكان ذلك جـرياً على ما سار عليه الفكر اليوناني. بل تشبعت نظرية الوسط الإسلامي بنظرية الوسط الأرسطي - رغماً من أن هناك من نفى ذلك التأثر وهـو مانراه في الفصل الخامس من هذا المبحث - ومـا انتهينا إليه من أن تـوجيه الـوسط لايتعـدى أن يكـون توجيهـاً من ضمن البـدائل والاختيـارات التي أعطاهـا الإسلام لمعتنقيه.

وسبق أيضاً أن أوضحنـا ماتحمله القيمـة من معاني في التعريف اللغـوي من أنها هي العدل ومنشأ الاستقامة. وذلك خلافاً لما سار عليه التفكير الغربي من أنها هي [الخير] أو[الشر].

وتكلمنا عن طبيعة القيـم والنظريات التي حكمتهـا وأوردنا خصائصها. والعلاقة بين القيم والمعايير. وبيـان حقيقة المعيار الأخلاقي في الإسـلام. . فالإسلام حينما جـاء. . جاءليغير كل المفاهيم العقيمة والمعتقدات الـواهية. جاء ليحدث التاماً في جـرح الإنسـانية المريضة وليشفي غليل الظمأ الوجـداني بعد شطوح العقل وسطوته وجفـاف العاطفة ويبسها. ومن ثـم فـأصالة التفكير فيه ترجع إلى عقيدة خالصة جـاءت مقرة للصواب ورافضة للخطأ. ونقت المحرف من شوائب التحريف وأكملت الناقص.

كان من ضمن ما أرساه مفهوم [الدين القيم] الـذي لايأتيه الباطل أبداً من بين يديه ولا من خلفه فأكد على تلك الحقيقة في أكثر من موضع بالقرآن.

فنرى في مجال العبادة الخالصـة لله. . يقول تعالى في سورة البينة ٥ : ﴿وَمَـا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ﴾.

فعبادة الله وحـده. وإخلاص الدين له. والميـل عن الشرك وأهله. وإقامة الصـلاة وإيتاء الزكاة. . كل ذلك يشكل إطاراً عاماً لعقيدة خالصة يكمن معناها في الضمير.

وفي مجال الأمر بأفراد العبادة الخالصة لله دون سواه.

يقول تعالى في سورة يوسف - ٤٠ ﴿. . أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ .

أما في مجال الأحكام والقضاء. يقول تعالى في سورة البينة - ٢، ٣ ﴿رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ .

تلك هي الكتب التي تشمل موضوعات حقيقية وأحكام تقويمية لكل البشر.

أما في مجال هداية الناس بالكتاب القيّم : يقول تعالى في سورة الكهف ١-٢ : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً. قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً﴾ .

أما في مجال وصف الإسلام بالطريق المستقيم : يقول تعالى في سورة الأنعام - ١٦١ : ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .

أما في مجال وصف الإسلام كله كدين قيم - يقول تعالى في سورة الروم ٣٠ : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَيَعْلَمُونَ﴾ .

فإذا كنا نؤكد في دراستنا هذه بأن الدين الإسلامي دين قَيِّمْ في مجمله ودين قِيَمٌ في تفصيلاته فذلك قول ليس من عندياتنا بل هو المفهوم الحقيقي لمفهوم الدين القيم وهو [الإسلام] وتلك حقيقة يجب أن نعيها جيداً ونفطن إليها ونحتفظ بها كمسلمة . . لكن ما تفصيلات قيمه . أو ماهي تلك الأصول القيمية التي أكد عليها مراراً وتكراراً في القرآن لنبعد بذلك عن التعاميم المبهمة والإزدواجية الواضحة في كل الكتابات الأخلاقية؟ . ولنأخذ لنا مساراً واضحاً ومحدداً وغير محصور في تلك التي قالوا عنها أنها الحق والخير والجمال ومايتفرع عنها من معاني أخرى وباعتبار أن هذه وتلك من ضمن أصولنا . إلا أنها تختلف كلية في مضامينها عن تلك التي تبنوها وحصروها في ثلاث فقط ، بل أولوا معناها . لأننا كمسلمين حين نتبنى قيماً نسير على هداها ونعتز بها وتكون مصدر فخر وأمن وعزة وثبات واستقرار وتميز وتمايز يجب أن تأتينا أولاً من ذلك الدين القيم حتى لاتكون متحيزة لا لزمان ولا لمكان . ولا لجنس أو لون على حساب آخر. كذلك أن نعيها جيداً ونعمل على تطبيقها في السلوك الأخلاقي ولنبعد الأساليب التشكيكية المغرضة والموجهة للعقيدة الإسلامية ببيان حقيقتها ، وماتحمله من قيم ثابتة وواضحة ومستقرة لأن القيمة إن لم تكن محددة ومثار قبول واستحسان وبأن تأخذ صفة الدوام والاستمرار وترتكز على صلب العقيدة الدينية وتنبع منها فلاتسمى قيمة في نظرنا . لأن مضامينها قد تمثل ظاهرة في عصر وتنتبذ في عصر آخر. فإذا ما قامت على صلب العقيدة

وخصوصاً العقيدة الإسلامية وجد فيها الإنسان من المبادىء الإنسانية مرتعاً لسلوك من يريد أن يكون صاحب مبدأ على حسابها. . سلوك ملتزم وواضح وثابت ومستقر. وشتان بين ما يتلقى الإنسان أحواله ووارداته عن قيم تمثلت في كتاب قَيِّمْ لم يتبدل أصله ولم يتغير فحواه. وبين من يتلقاها عن الوجد والذوق والاصطلاحات العقيمة والعادات القبيحة. ومن ثم نجد ارتباط العقيدة بالأخلاق أو الأخلاق بالعقيدة في الإسلام ارتباطاً واضحاً وجلياً. بل إن العقيدة الإسلامية لبست ثوباً أخلاقياً لاينفصم عن توجهاتها ولايقوم الإيمان الحق إلا بسلوك أوضحته هي وحددته خلافاً للعقائد الأخرى التي حرفت وزيفت وتحولت الأخلاق فيها إلى أخلاق عامة لا ارتباط بينها وبين الدين. ويكفي ماذكرناه تدليلاً وتأكيداً على أن الخير المستهدف عندهم هو [الخير الفقير] البعيد عن الصلاح والإصلاح. . ذلك الخير الذي لايسمن ولايغني من جوع. لأنه لايستند لأصل قيمي هو [البر] الذي يكمن فيه معنى الخير الحقيقي.

إذن القول بأن الأخلاق الإسلامية كقيم وكعلم وكعقيدة وكشريعة هي القوة الوحيدة التي تسامى وتسمو فوق أي مذهب فلسفي أو اجتماعي أو سياسي أو مذهب وضعي مهما كانت شعارات هذه المذاهب البراقة هو حق لنا ولايبقى بعدئذ إلا أن نكشف عن تلك الأصول القيمية التي وردت محددة وواضحة بالكتاب والسنة وجاءت لتأكيد الكيان العقلي في الإنسان بجانب الكيان الوجداني، ولنرى التجربة الإيمانية الحقة قد تعمقت بضرب المثل الأعلى في سلوك الأنبياء والرسل بدءاً من آدم - عليه السلام - وانتهاءاً بمحمد (ﷺ) ومروراً بالصحابة الأجلاء ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين، وكان ذلك السلوك وفقاً لتلك الأصول القيمية الهادية.

الفصل الثالث

- الأصول القيمية في الإسلام.
- المعنى العلمي للاحصاء.

الفصل الثالث
الأصول القيمية في الإسلام

لو حاولنا الوقوف على تلك الأصول القيمية في الإسلام لوجدناها غنية وثرية لم يحصرها الإسلام في الحق أو الخير أو الجمال فقط، بل نوه عليها وأكدها باعتبارها خصائص تكريمية للبشرية جمعاء ولصيقة بعقله وقريبة من وجدانه منذ النفخة الأولى لقيام كيانه، وليس ذلك فقط بل نسبت مضامينها إلى الإله الواحد وبما تحمله من خصائص للألوهية وخصائص الربوبية، والتي بلغت على حد عقولنا ومحدودية فكرنا وعمق وجداننا، تسعة وتسعين اسماً وصفة تمثلت في أسماء الله الحسنى وصفاته العليا . . فهي تمثل خصائص وصفات[1] لها دلالات إيمانية تهدي لسواء السبيل، وهي وإن كانت مطلقة بالنسبة لله سبحانه وتعالى، فإنها تتدرج بالإنسان إلى مرتبة الكمال الذي لايرقى إلى مرتبة الكمال لذاته (سبحانه) وليرى أثرها على عباده ويكون فيها الخير كل الخير للإنسانية جمعاء، فلو استطعنا أن نتفهم معانيها ونؤمن بها كحقائق ونطبقها سلوكاً وأن نجعلها فكراً مدروساً لأجيالنا، وأن تأخذ الدعوة لها مجراها الحق في غرس الإيمان الحقيقي بأهمية مدلولاتها كقيم سلوكية بجانب أهميتها كمدلولات لفظية محمولة على العبادة فقط، بل وتنصرف معانيها إلى سلوك وتعامل، لأن الإنسان لايمكن أن يرتقي في مدارج القيمة والفضيلة إلا بتمثلها قولاً وعملاً، وبذا نكون قد أدينا واجبها حق الأداء، وأدت إلينا هي حق العزة والبقاء، ومع اعترافنا الكامل بها عن يقين بلا تأويل[2] ولاتعطيل[3] ولاتكييف[4] ولاتفويض[5]، وبأهميتها في السلوك الإنساني للاقتداء بها، فإنه لايخالجنا أدنى شك في كونها تحمل دلالات تؤكد المعنى الأخلاقي وتؤكد المعنى الإيماني الذي هو لب التوحيد.

قد يقال بأن تلك الأسماء والصفات قد لازمت مفهومنا عند بداية وعينا . . أقول نعم . . ولكن إذا كانت قد لازمت مفهومنا عند بداية وعينا . . فإنها لازمته كحقيقة مسلم بها لاتمس

---

١ - الصفات ماهي إلا تعبير عن خصائص موجودة لدى الذات الواحدة.
- أما الخصائص أو السمات فهي مؤشر للذهن البشري على المعاني الموجودة لدى الذات. انظر د زيدان عبدالباقي في كتابه (أسس المجتمع الإسلامي والمجتمع الشيوعي - دراسة مقارنة ص ٤١ الكتاب الأول سلسلة الثقافة الاجتماعية.

٢ - التأويل: هو صرف ظاهر الآيات والأحاديث الصحيحة عن ظاهرها إلى معنى آخر باطل . . مثل استوى بمعنى استولى، وهو ما ذهب إليه المشبهة والمعطلة.

٣ - التعطيل: هو جحد صفات الله ونفيها عنه كصفة العلو لله على السماء، فقد زعمت الفرق التي لم ينالها التوفيق أن الله تعالى في كل مكان.

٤ - التمثيل: هو تمثيل صفات الله بصفات خلقه، فلايقال ينزل إلى السماء كنزولنا.

٥ - التكييف: هو تكييف صفات الله بأن كيفيتها كذا وكذا - فعلو الله على السماء والعرش لايشبه مخلوقاته ولايعلمه أحد إلا الله.

مضامينها لأنها تخص البارىء المصور جلت قدرته، نقول لماذا لاتكون فكراً يهدي وقيم توجه ليقترن بها السلوك المفضل الذي تضمنه المفهوم المعنى وليس المفهوم اللفظي لكل خاصية من تلك الأسماء والصفات، خصوصاً بعد أن بان لنا بشواهد عقلية ونقلية أنها هي الأصول القيمية في الإسلام.

قد يقال بأن أغلبها اختص به سبحانه وتعالى دون غيره، مثل العظيم والبديع والخالق والمانع والضار والنافع والعلي والكبير. . نقول لاشك في ذلك فهي مطلقة بالنسبة لله سبحانه وتعالى، ولكن فيها مايحملنا على تمثلها علماً وعملاً وينصرف إلى الإنسان أغلبها بحكم خصائص التكريم والأمانة التي حملنا إياها، وبحكم توجهاتها وباعتبارها هي الأصول القيمية لنا التي ما جاء الأنبياء والرسل إلا للدعوة إليها وتأكيد أن الرب الذي يتمون إليه هو [غفور رحيم]، [تواب عليم]، [عزيز حكيم]، [عفو غفور]، [غفور حليم]، بل وأحكم الحاكمين. . إلخ، وأن الله الذي جمع هذه الخصائص والصفات ليس هناك من إله غيره إلا هو (سبحانه)، ومن ثم فالغرض هو حصول الفرد على تكوين خلفية نابعة من الدين الإسلامي ومؤكدة للمثل الأعلى ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾[1] لتصبح في مفهومنا قيماً نعتز بها، وتكون هي المشكلة لسلوكنا سلوكاً متزناً يتفق مع مكانة عليم وخبير ورحيم ورؤوف وودود. . إلخ كل تلك الصفات الشريفة والخصائص العظيمة فهي مطلقة بالنسبة لله تعالى، وبالنسبة لنا محدودة بقدرتنا على الفهم والتفكر والاستنباط.

لماذا لانجعل منها قيماً لتصبح معيارًا للسلوك السوي؟ فالحكمة عند البشر مطلوبة لأنها ميزان العقل ... بها توزن المقادير. . تلك التي ترتبط بمصير الأفراد والذين يشكلون مجتمعاً أصغر فأكبر فأمم.

أما عن الرحمة فإذا نظرنا إلى معناها وفهمنا مقصدها لجعلناها من القيم التي يجب أن نضع لها اعتباراً خاصاً لأنها منشأ كل القيم. . فالرحمة عند الله سابقة المشيئة كتبها لعباده الصالحين والكل من عباده يرى فيها مطمعاً في الآخرة. . فلماذا يستكثر الإنسان الرحمة على أخيه الإنسان في مجال حياته وشئون دنياه؟.

أعتقد ويشاركني في الاعتقاد آخرين، بأننا لو جعلناها كقيمة ومعياراً في تعاملنا ليس مع بني جنسنا فقط، ولكن مع سائر الكائنات الأخرى، فإنها تصون المجتمعات من الانهيار، لأن أي مجتمع بدون رحمة تكون قائمة في وجدان أفراده، يتفشى فيه الظلم الذي هو السبب الرئيسي في زوال النعم، وفي زوال الأمم، ويبعث على الحقد ويولد الضغينة.

---

١ - سورة النحل - الآية ٦٠.

أما إذا ما أصبحت معياراً للسلوك وقيمة عليا يؤمن بها الإنسان فإنها تخلق في نفسه المودة والتسامح، وتشيع روح الألفة بين النفوس. . فما بالنا كذلك بالعلم والخبرة والصبر والغفر (الستر) والحق والعدل والعزة والبر والود والسلام... إلخ وكل تلك الأصول القيمية الحقة التي تبعد الظلم والتظالم وتحق الحق وتزن بالقسط وتفشي روح السلام النفسي والسلام العالمي.

ولنرى في النهاية أن من انتسب إلى الكريم لم يخش الفاقة، ومن انتمى إلى العزيز لم يرض الذلة، ومن وثق بالحليم لم يبد له اعتراضاً، ومن آمن بالعادل لم يخف من الظالمين، ومن لجأ إلى القوي القهار لم يخشى صولة الطاغية الجبار.

ولنعلم كذلك أنه من لم يكن له حظ من معاني أسماء الله تعالى إلا بأن يسمع لفظة ويفهم في اللغة تفسيره ووضعه دون أن يعتقد في القلب وجود معناه في الله ويعمل بها اعتقد فهو منحوس الحظ نازل الدرجة لايحسن الانتفاع بما ناله من علم. فسماع اللغة لايستدعي إلا سلامة حاسة السمع التي يدرك بها الأصوات، وهي رتبة - كما قال إمامنا الغزالي رحمه الله - يشارك فيها البهيمة[1] بل يجب أن يكون للأسماء والصفات فاعلية ذات أثر وعلاقة بالناس والأحياء، وعلى أساس فهم حقائقها يقوم الإيمان الواعي المدرك[2].

ولنعلم كذلك أنه لمحبة الله لأسمائه وصفاته، أمر عباده بموجبها ومقتضاها فأمرهم بالعدل والإحسان والبر والعفو والصبر والمغفرة والرحمة والصدق والعلم والشكر والحلم والأناة والتثبت، وأبغضهم إليه من اتصف بالكبر والعظمة والجبروت لمنافاتها لصفات العبيد وخروج من اتصف بها من ربقة العبودية إلا ما تقدم من صفات فإنها لاتنافي العبودية. بل اتصاف العبد بها من كمال عبوديته[3].

ولكي نستطيع الوقوف على تلك الأسماء والصفات وتحديدها والدلالات التي تحملها، وانصرافها كقيم تضبط السلوك الإنساني وتوجه مجرى حياته إلى أهداف تليق بأخلاق الإسلام والمسلمين. . يجب كشف العلاقة الحتمية بين الأسماء والصفات وبين المعنى المقصود أو الأقرب إلى الفهم في حديث الرسول (ﷺ) الذي رواه أبي هريرة (رضي الله عنه) حينما قال:

قال رسول الله ﷺ «إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً، إنه وتر يحب الوتر، من أحصاها دخل الجنة[4].

---

١ - المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، الإمام محمد أبي حامد الغزالي.

٢ - في ظلال القرآن - سيد قطب - المجلد السادس الأجزاء ٢٦-٣٠ الطبعة الخامسة ص ٣٥٢.

٣ - طريق الهجرتين وباب السعادتين، بن قيم الجوزية ص ١٦٢، ١٦٣.

٤ - أخرجه البخاري بشرح الفتح في الشروط ٦/ ٢٨٣ باب: مايجوز من الاشتراط والثنيا في الإقرار، وفي الدعوات ١٣/ ٤٧١، ٤٨٦ باب: لله مائة اسم غير واحدة، وفي التوحيد ٧/ ١٤٨ باب: إن لله مائة اسم إلا واحدة، ومسلم في الذكر والدعاء ٢٠٦٣ باب: في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها. وأورده مسلم في صحيحه (الجزء الثاني) ص ٤٦٧ من رواية أبي هريرة، وانظر كذلك تفسير أسماء الله الحسنى لأبي اسحق الزجاج - حققه ونشره أحمد يوسف الدقاق / هامش ص ٢٢.

نقـول وبـالله التوفيـق . . مع اتفاق العلماء الأجـلاء على أن هـذا الحديث «ليس فيـه حصر لأسماء الله تعالى، وليس معناه أن ليس لله تعالى أسماء غير هـذه التسعة والتسعين بشواهد نقليه هي دعاء الرسول (ﷺ) «أسألك اللهم بكل اسم هـو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحـداً من خلقك أو استأثرت بـه في علم الغيب عندك أن تجعل القـرآن العظيم ربيع قلبي، ونور بصري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي»[١].

لكن مـا وقفنا عنـده طويـلاً كان عنـد عبارة *(من أحصاهـا دخل الجنة)* التي كانـت مثار الاهتمام من كثير من العلماء للـوقوف على المعنى الحقيقي للحـديث الشريف للعمل به والفـوز بدخـول الجنة . . لدرجة أنـه طالعتنا جهود أجـلاء في تتبع ومحاولات لحصر ماورد من أسماء الله تعالى في القـرآن والسنة، على اعتبـار أن مفهوم الحديث مفهـوم عددي ويقـوم على الإحصاء، للفوز بالجنة[٢].

ونرى أنه قد تعددت الآراء في الإحصاء وباختصار على الوجه التالي :

قيل أن الإحصاء في مثل هذا يحتمل وجوهاً :

أولاً : أن يعـدها الإنسـان حتى يستوفيهـا، أي أنه لايقتصر على بعضهـا، ولكن يدعـو الله بها كلها ويثني عليه بجميعها فيستوجب الموعود عليها من الثواب.

ثانيـاً : أن المراد بـالإحصاء هـو الإطاقـة لما في قولـه تعـالى (عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ) ومنـه الحديث (استقيموا ولن تحصوا) أي لن تبلغوا كنه الاستقامة.

وقيل بأنـه من أطـاق القيـام بحق هـذه الأسماء والعمل بمقتضاهـا، وهـو أن يعتبر بمعانيها فيلزم الإنسان نفسه بواجبها، فإذا قال الرازق وثق بالرزق وكذا سائر الأسماء.

ثالثاً : الإحاطة بمعانيها والعمل بها.

ثم نـرى ابن حجـر العسقـلاني في فتح البـاري بشرح صحيح البخـاري يشير إلى أن هنـاك الإحصاء الفقهي وهو العلم بمعانيها من اللغة وتنزيهها على الوجوه التي تحملها الشريعة.

كذلك هنـاك الإحصاء النظـري، وهو أن يعلم معنى كل اسم بـالنظر في صيغتـه ويستدل عليه بأثـره الساري في الوجـود، فلاتمر على موجـود إلا ويظهر لك فيـه معنى من معان الأسماء وتعرف خواص بعضها وموضع القيد ومقتضى كل اسم منها[٣].

---

١ - أسماء الله الحسنى والآيات الواردة فيها، حسنين محمد مخلوف، والحديث رواه أحمد بسند حسن.

٢ - الجواهر العلية في شرح أسماء الله الحسنى القرآنية، عبدالرحمن عليش.

٣ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري، بن حجر العسقلاني، ج ١٤ ص ٤٧٨ ومابعدها.

المعنـى العلمـي للإحصاء

ولو حاولنا الوقوف على المعنى العلمي لـلإحصـاء لمحاولة كشف العلاقة الحتمية بين الأسماء والصفـات الـواردة في الحديث وبين المعنى المقصـود أو الأقـرب إلى الفهم على ضوء مـا جـاء بالقرآن الكريم والسـنة الشريفة لوجدنا الآتي :

التفسير العلمي لـلإحصـاء يذهب بنـا إلى أن الإحصـاء «*علم يبحث في الحصـول على قيم معينة لتمثل الاتجاهات التي تشير إليها مجموعة كبيرة من الإرصاد والقياسات*»[1]، ونراه قد تطـور من مجرد فكرة الحصر والعـد إلى أن أصبح علماً لـه قواعـده ونظـرياتـه، ويطبق في بحث المسائل، «فيستخدم في علم الفلك والوراثة والأحيـاء وعلـم النفس والعلوم الاقتصادية والعلوم الاجتماعية والسياسية وغيرها»[2].

ولو أردنـا تطبيق معنى الإحصاء العلمي لينصرف إلى الأخلاق ومعـاييرها لوجدنـاه أقرب إلى الأخلاق الإسـلامية من أي علـم آخر، لأن القيمـة المفترض الحصول عليها تصبـح واضحة في الأخـلاق الإسلاميـة عنهـا في العلوم الأخـرى، بل وتصبح من الحقـائق المسلم بها إذا اهتدينـا إليها. ولانبالغ إذا قلنـا بأن القيمة الأخلاقية المفترض الحصول عليها في الأخـلاق الإسلامية لها أصل وارد في الحديث الشريف. . وذلك الأصل هو الـذي مثل الاتجاهات الإسمية والـوصفية لدلالات شريفـة ومعان ساميـة حواها القـرآن وجاءت بها السنة المطهـرة متمثلة في الحديث. . *ومن ثم من أحصاها الواردة في الحديث لم يقصد عدها أو تعدادها كما ذهب إلى ذلك البعض، بل الأقرب إلى الفهـم والتصور على ضوء القـرآن الكريم، والمعنى اللغـوي، والمعنى العلمي للإحصـاء هو جعلها قيمة مفضلـة تفضيلاً شريفاً يجب أن يفهم معنـاها ويعمل بها وتكتسب خصائصها ودلالاتها لتصبح معياراً سلوكياً.*

وهي وإن كـانت تمثل قيم فهـي ليست كشأن القيم التي تتبـدل وتتغير بطبيعـة البحث العلمي المستمر، ولا هي كـالقيم المادية أو غيرها، بل هي هنـا في الحديث تمثل قيماً روحية، لها من الثبات والوضوح والاستقرار ماتجعل النفس تهفو إليها متطلعة لكمالاتها ليصوغ المؤمن نفسه وفق إيحائهـا واتجاهها فإذا كـان الله تعالى يحب من اتصـف بها وليرى آثارهـا في سلوكـه ومن ثم

---

١ - الموسوعة العربية الميسرة، مادة إحصاء.
٢ - الإحصاء، د. أحمد عبادة سرحان، د. فاروق عبالعظيم ص ٣٠٢.

يجب أن تكون هي المعيار الأول والأخير المحدد لذلك السلوك، فعلى أساسها تتحدد علائق الناس بالناس والأحياء.

فكأن معنى الإحصاء في الحديث الشريف هو معنى قيمي وليس معنى عددي، لأننا لو نظرنا للتسعة والتسعين اسماً وصفة التي وردت في الحديث لأيقنا أنها في مجموعها مثلت الاتجاهات الأسمية والوصفية للمعان والألفاظ الشريفة التي جاء ذكرها في القرآن، وأن من تفهم معانيها وخصائصها ودلالاتها على ضوء ما جاء بالكتاب والسنة فكأنه تفهم معان ودلالات وخصائص أوردها القرآن الكريم.

ذلك وحده يعتبر كافياً ليهدينا عن أن تلك الأسماء والصفات هي الأصول القيمية في الإسلام، ويرشدنا إلى أن الدين الإسلامي دين قَيِّم في مجمله، ودين قَيِّمْ في تفصيلاته

ولا يبقى بعد ذلك إلا أن نورد الأسماء والصفات للوقوف عليها واستخراج القيمة الحقيقية منها ليصوغ المسلم سلوكه واتجاهاته وفق إيحائها.

الفصـل الرابع

- معنى الحسنى في القرآن.
- الأسماء الحسنى وفق ما جاءت بها رواية الحديث الشريف.
- ماتوحي إليه من أصول قيمية.

الفصل الرابع

سنورد في هذا الفصل الأسماء الحسنى والصفات العليا وفق ما جاءت بها رواية الحديث، وماتوحي إليه الأسماء والصفات من قيم، بعد بيان معنى الحسنى في القرآن.

أولاً: بيان معنى الحسنى:

قيل بأن الحسنى كلمة مستغني عن وصفها ونعتها. فالعرب توقعها الخلة المحبوبة، والخصلة المرغوب فيها، فكأن الذي يعلمه العرب من علمها أمرها يغني عن نعتها[1].

بمعنى أنها تمثل خصائص وصفات تحمل من الدلالات ماتهفو إليها النفس متطلعة لكمالاتها. فمنها خصائص منفردة للألوهية وخصائص منفردة للربوبية، ومنها خصائص التكريم للبشرية.

وورد الحسنى في القرآن على ستة أوجه أو معاني هي: الجنة، والعليا، والبر، والخير، والبنون. والخَلَفَ (قاله الإمام أحمد، وألحقه بعضهم بالأول)[2].

عن المعنى الأول (الجنة) قال تعالى في سورة يونس - ٢٦: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وهنا إخبار عن الذين أحسنوا العمل في الإسلام بشرط الإيمان، وفعل الأصلح ومردود ذلك عليهم بأن لهم الدرجات العلا - وهي الجنة - وليس ذلك فقط بل النظر إلى وجه الله (تعالى) بشرى لهم، فلاتغشى وجوههم بالسواد ولاتعتري نفوسهم بالهوان والضعف فهم في نعيم مقيم.

كذلك قال تعالى في سورة الأنبياء - ١٠١: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾.

وفيها أيضاً إخبار عن الذين سبقت لهم الدرجات العلا فهم عن النار مبعدون لايصلون حرها ولايذاقون عذابها.

كذلك قال تعالى في سورة النجم - ٣١: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾.

---

١ - منتخب قرة العيون النواظر في الوجوه والنظائر، بن الجوزي، تحقيق ودراسة محمد السيد الصفطاوي، ود. فؤاد عبدالمنعم أحمد ص ٩٦.

٢ - المرجع السابق.

ففيها مجازاة المسيء بعمله، ومجازاة المحسن بالجنة جزاء إحسانه.

أما عن الوجه الثاني بمعنى (العليا) قال تعالى في سورة الأعراف - ١٨٠ : ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ففيها أخبار عن أن لله أحسن الأسماء وأجلها لإنبائها عن أحسن المعاني وأشرفها، وأمر بتسميته بتلك الأسماء وترك الذين يميلون عنها كما فعل المشركون حيث اشتقوا لآلهتهم أسماء منها اللات من الله، والعزى من العزيز ومناة من المنان فأدخلوا الأصنام وسائر معبوداتهم بأسمائه وذلك بمعنى الإشراك ﴿تعالى عن ذلك علواً كبيرا﴾، وبذا سينالون جزاء ما عملوا في الآخرة.

ولذا يجب على المسلم الإيمان بها والتوسل بالدعوة إليها قولاً وعملاً لما فيها من دلالات تضفي على المسلم والمؤمن خصائص تكريمه، مع الالتزام بمسمياتها، وكما سمى الله نفسه بها، وسماه بها رسوله الكريم (ﷺ) وكما ورد ذكرها في القرآن.

أما عن المعنى الثالث (البر) قال تعالى في سورة الأحقاف - ١٥ : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

وذلك في معرض الإخبار بالإحسان على الوالدين ووصاية الله بهما وإبراز سببه، وتصوير حقيقي بما تعتلج به نفس الابن البار الذي نضج عقله وتفتحت مداركه فرأى أثر نعمة الدين والدنيا عليه وعلى والديه فطلب من الله أن يلهمه الصواب في أن يؤدي حق النعمة بالشكر والعمل بما يرضاه، ثم دعا لنفسه بالصلاح مابقي من العمر، ودعا لذريته أن يصلح أمرهم ليكون له نصيب من ذلك الإحسان عندهما، ثم تاب وأناب عما فات من عمره ومضى وأقر بالإسلام.

أما عن الوجه الرابع : (الخير) قال تعالى في سورة التوبة - ١٠٧ : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾. وفيها إخبار عمن أساءوا العمل وبالغوا في الإجرام وأقاموا مسجد ضرار ليفرقوا بين المؤمنين، ثم حلفهم بأنهم ما أرادوا بذلك العمل إلا وجه الخير. ولايخالجنا أدنى شك في أن نقول بأن هؤلاء مثلهم كثيرون في عصرنا - وإن تشابه العمل أو اختلف - يتوارون وراء أعمال يفسرونها بالخير، ويحلفون عليها بذلك، لكن هدفهم الوحيد

هو اتخاذها ذريعة لفكرهم النفعي الذي يتمثل في الإضرار والإساءة.

أما عن المعنى الخامس: **(البنون)** قال تعالى في سورة النحل - ٦٢: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾.

وفيها أيضاً إخبار عن المشركين الذين جعلوا لله البنات، مع كراهتهم لمن ويجعلون لله مايعدلونه، ويزعمون أن لهم العاقبة الحسنى عند الله وأنهم من أهل الجنة، فلاجرم أن أودعوا في النار وعذبوا بعذابها وتركوا فيها.

أما عن المعنى السادس **(الخَلَف)** قال تعالى في سورة الليل ٥-١٠: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾.

وقبل هذه الآيات.. تبدأ سورة الليل بالقسم العظيم من الله تعالى على أنه خلق النوعين من البشر، الذكر والأنثى، وأن السعي في الحياة وإن كان مختلفاً باختلاف النوع والقدرة فإنه تعالى سيهيىء لمن أراد الإنفاق في سبيل الله واتقاء مرضاته سبل الخير ويسهل عليه حياته ويخلفه خلفاً حقيقياً، وأما من بخل بانفاق المال وشح به على نفسه وغيره ولم يثق في قدرة الله وعطائه فسيهيىء لعمل الشر لأنه مكذب بثواب الجنة.

وفي هذه الآيات جميعها التي أوردها القرآن الكريم يتضح معاني الحسنى في الأوجه السابقة.

ثانياً : الأسماء وفق ماجاءت بها رواية الحديث :

هـو الله الـذي لا إلـه إلا هو – الـرحمن، الـرحيم، الملك، القـدوس، السـلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبـار، المتكبر، الخالق، البارىء، المصور، الغفار، القهـار، الوهاب، الـرزاق، الفتاح، العليم، القـابض، البـاسط، الخافض، الرافع، المعـز، المذل، السميع، البصير، الحكم، العـدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفـور، الشكـور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الـرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الـودود، المجيـد، البـاعث، الشهيـد، الحق، الـوكيل، القـوي، المتين، الـولي، الحميـد، المحصي، المبدىء، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الأحد، الصمد، القادر، المقتـدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، البـاطن، الوالي، المتعالي، البر، التـواب، المنتقـم، العفـو، الـرؤوف، مـالك الملك ذو الجلال والإكـرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور.

ثالثاً : ماتوحي إليه الأسماء الحسنى والصفات العليا من أصول قيمية :

١ – أصول قيم للعبودية .

٢ – أصول قيم التكريم .

٣ – أصول قيم الحمد والثناء .

٤ – أصول قيم الحق .

٥ – أصول قيم الهداية .

٦ – أصول قيم العلم .

٧ – أصول قيم الحياة .

٨ – أصول قيم العمل .

٩ – أصول قيم الإنابة .

١٠ – أصول قيم الإيمان

١١ – أصول قيم العصمة والاعتصام .

١٢- أصول قيم الخلق والإبداع .

١٣- أصول قيم الأمانة .

١٤- أصول قيم الإيضاح والتبيين .

١٥- أصول قيم الحكمة .

١٦- أصول قيم الخبرة .

١٧- أصول قيم الود .

١٨- أصول قيم السلام .

١٩- أصول قيم التلطف .

٢٠- أصول قيم الوثوق في الله .

٢١- أصول قيم العزة والتواضع .

٢٢- أصول قيم الاستعانة .

٢٣- أصول قيم العفو.

٢٤- أصول قيم الرحمة .

وسوف نورد بالفصل السادس السلوك التطبيقي لمعاني القيم، وفيه نتناول إبراز الأصول القيمية والقيم التفصيلية المستوحاة منها وشرح لمعانيها ومدلولاتها كما وردت بالقرآن الكريم .

وقد اخترنا من قيم العبودية التحدث عن قيمتي الألوهية والربوبية ، ومن قيم الحق التحدث عن قيم الصدق والعدل والحق، ومن قيم الحياة التحدث عن قيمتي الحياة والحياء ، ومن قيم الأمانة التحدث عن قيمة الأمانة ، ومن قيم العلم التحدث عن قيمة العلم، ومن قيم الحمد والثناء تحدثنا عن قيمتي الحمد والشكر، ومن قيم الحكمة تحدثنا عن الحكمة ، ومن قيم الود والسلام تحدثنا عن قيمتي الحب والسلام ، ومن قيم الاستعانة تحدثنا عن قيم الصبر والحلم والتوكل، ومن قيم العزة تحدثنا عن قيمتي العزة والتواضع ، ومن قيم الرحمة تحدثنا عن قيمتي الرحمة والبر، ومن ثم تكون مجموع القيم التي استخلصناها وأفردنا لها مباحث خاصة ضمن السلوك التطبيقي لمعاني القيم (٢١) قيمة ، وسنخصص الأجزاء الباقية من هذا الكتاب -إن شاء الله- للتحدث تباعاً عن بقية القيم المستخلصة وفق الأصول القيمية المتبقية .

وبعد أن أوردنا الأسماء والصفات وماتوحي إليه من أصول قيمية ، ننوه هنا حتى لايختلط

الأمر في الذهن إلى أن تلك الأسماء من حيث مدلولاتها تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

١ – **أسماء الذات** : وهي مايقع مدلولها على الذات العلية ، ولايقع هذا المدلول على اسم آخر أو فعل ، وهذا لاينطبق إلا على لفظ الجلالة (الله)[١].

٢ – **أسماء للصفات** : كاللطيف والخبير والرحيم إلخ ... وهي كل اسم يقع مدلوله على صفة لله تعالى .

٣ – **أسماء للأفعال** : وهي كل اسم يقع مدلوله على فعل من أفعال الله تعالى .

أما صفات الله الواجبة له – سبحانه – تنقسم إلى صفات الذات وصفات للفعل[٢]، والفرق بين صفات الذات وصفات الفعل هو أن صفة الذات هي التي لايوجد لها مقابل في الأسماء أما صفة الفعل فهي التي يوجد لها مقابل ، بمعنى إذا قلنا (الله حي) تكون (حي) هي صفة ذات . . إنما الله (محيي) تصبح صفة فعل ، لأن (محيي) يوجد مقابلها وهي (مميت) . . لكن (حي) لايوجد مقابلها وهو (ميت)[٣].

فإذا رأينا الصفة لا مقابل لها فلنعلم أنها صفة للذات . . أما إذا رأينا الصفة لها مقابل فلنعلم أنها من صفة الفعل .

مثلاً : الله عزيز . . هي صفة ذات ، إنما الله معز . . مادام (معز) يقتضي أن يوجد (مذل) ، كذلك (محيي) يقتضي أن يكون (مميت) ، كذلك (قابض) يقتضي أن يكون (باسط) ، و(خافض) يقتضي أن يكون (رافع)[٤].

ذلك لأن معنى الصفة هي في متعلق فعله – سبحانه – ليس في ذاته ، فعزيز هو في ذاته ، بعد ذلك يخلع العزة على من يشاء ، ويعطي الذلة لمن يشاء ، تلك صفة ذات وهذه صفة فعل[٥].

كذلك هناك صفات تسمى بأسماء فتنتقل الصفة إلى الاسم إذا بلغ الكمال في الصفة مبلغاً بحيث إذا «أطلق» انصرفت إلى (الله) سبحانه وتعالى ، فإذا قلنا فلان غني . . يصبح رأيت زيداً الغني[٦]، لكن إذا ما أفردت كلمة (الغني) فقط تنصرف إلى الكمال المطلق في الغني وهو الله[٧].

---

١ – المقصد الأسنى ، مرجع سابق .

٢–٤ : المنتخب من تفسير القرآن الكريم للشيخ محمد متولي الشعراوي ، الجز الثالث ص ١٧٦ وما بعدها ، وكذلك الجزء الثاني ص ١٤ .

٥ –٧ : المرجع السابق ص ١٧٨ .

وحين تنصرف كلمة الوصف في إطلاقها إلى الكمال المطلق يصبح مدلولها (الله) ويصير انتقالها من باب الصفة إلى باب الاسم(١).

فالحي على إطلاقه والغني على إطلاقه باعتبارهما صفات تنصرف إلى الله، ومن الجائز أن أصف إنساناً مذكوراً بالغني(٢)، وإن اتصف إنساناً مذكوراً بالحياة وجب وصفه بالقدرة.

أما إذا أطلق اللفظ فإنه ينصرف إلى الكمال للأطلق في الصفة، ومن هنا تكون الصفة اسماً(٣).

قد يقال الإنسان حي، والله حي، والإنسان قادر وله قدرة، والله قادر وله قدرة، الإنسان حليم والله حليم، تلك هي مرتبة الصفات ولكنها صفات تقال بالتشكيك ومعنى التشكيك أن الصفة قد يكون اسمها واحداً، لكن معناها في مسمياتها مختلف(٤).

فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد سمى نفسه بأسماء وسمى بعض عباده بها، كذلك سمى صفاته بأسماء، وسمى ببعضها صفات خلقه، لكن الواجب التيقين إليه بأن المسمى ليس كالمسمى.. فتسمية نفسه سبحانه: حياً، علياً، قديراً، رؤوفاً، رحيماً، عزيزاً، حكيماً، سميعاً، بصيراً، ملكاً، مؤمناً، جباراً، متكبراً، كما قال تعالى في سورة الأنعام ٩٥: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾.

كذلك في سورة هود -٧٥ ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ...﴾، والصافات -١٠١: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾، وفي التوبة - ١٢٨: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾، وفي الإنسان -٢ ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾، وفي يوسف - ٥١: ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ﴾. وفي الكهف - ٧٩: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾، وفي غافر - ٣٥: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾. فليس معنى ذلك أن الحي كالحي، أو الحليم كالحليم، أو الرؤوف كالرؤوف... إلخ، لأن المسمى ليس كالمسمى(٥) فليست حياته -سبحانه- كحياتنا، ولا علمه كعلمنا، ولا قدرته كقدرتنا، ولا سمعه كسمعنا، ولابصره كبصرنا، فالأسماء وإن كانت معلومة، إلا أن الكيفيات مجهولة.. والسؤال عنها بدعة، وشتان بين مسمى للألوهية ومسمى للعبودية، ووصف للألوهية ووصف للبشرية.

وعلى ضوء جميع ما تقدم يتضح أن تلك الأسماء منها ما يدل على:

- الذات العلية كاسمه سبحانه (الله).

١-٤: المرجع السابق ص ١٧٨.

٥ - شرح العقيدة الطحاوية مرجع سابق ص ١٠٠، ١٠١.

- الصفات الثابتة للذات مثل :

العليم

القدير

السميع

البصير

الحي

- ومنها مايدل على إضافة أمر إليه كأسمه :

الخالق

الرازق

العظيم

- سلب شيء عنه مع التقديس والتنزيه والتمجيد :

القدوس

المجيد

- ومنها مايدل على وجوده مثل :

الحي

الباقي

الوارث

- ومنها مايدل على توحيده مثل :

الواحد

العلي

القادر

- ومنها مايدل على أن كل موجود من اختراعه ليس على مثال أو احتذاء :

الخالق

البارىء

المصور

- ومنها مايدل على أنه مدبر لكل الكائنات :

القيوم

العليم

الحليم

- ومنها مايكون نقلها إلى العبد مجازاً، وهو الأكثر منها.

- ومنها مايكون في حق العبد حقيقة، وفي حق الله تعالى مجازاً :

كالصبور

والشكور

إننا حين ننظر لتلك الأسماء الحسنى والصفات العليا، فإننا يجب أن ننظر إليها كحقائق مسلم بها، ولا تأول مضامينها لأنها تخص البارىء المصور جلت قدرته، ويجب أن يتعمق في احساسنا مدى ماتحمله من دلالات وايحاءات للمسلم والمؤمن ليستوحي من ذلك قيماً تحمل دلالات هادية في تقويم السلوك عامة وسلوك المسلم خاصة فهي تتضمن دلالات وخصائص لايختلف عليها اثنان عمر الإيمان قلبيهما، ذلك لتقويم سلوكنا وتأكيداً لإيماننا، ومن ثم نكون قد جمعنا بين العلم والعمل في أهم ركن من أركان الإسلام.. ألا وهو الركن التوحيدي.

ويجب أن تكون كل قيمة مستخلصة ملازمة لفكرنا لنحكم بها حركة حياتنا، ولنعلم بأن الله سبحانه وتعالى حينما سمى نفسه بهذه الأسماء، ووصف نفسه بتلك الصفات، وأجاز لنا الاتصاف ببعض صفاته من غير تشبيه ولاتعطيل فلأنه ليس كمثله شيء - سبحانه وتعالى عما يصفون- فبذلك يكونَ قد كرمنا بها وشرفنا بحوزتها، فليكن لها معنى سامي في نفوسنا، ولتصبح دليلنا الصادق إلى طريق الهدى والرشاد.. بها نكون قد عرفنا أشرف الصفات وأجلها، وحملنا أشرف القيم وأعزها.

ويكفي الإنسان فخراً وأنساً أن يستمد معان القيم من صفات لها من القداسة والتنزيه بدلاً من أن تستمد من قيم ابتكارية تحوم حول الشيء ولاتجعل له معياراً يتناسب مع العقل والشرع.

ويكفيك أخي المسلم أن تجد الأخلاق الإسلامية وقيمها تختلف عن تلك التي تجعل من القوانين الأخلاقية كغيرها من القوانين القابلة للتغير والتعديل بحسب نفعيتها وليتها نافعة بل مخزية.. ذلك لأن الأخلاق غير الدينية هي في صميمها أخلاق أنانية.

ولذا فكل نظام أخلاقي لا يستمد روحه من وحي الله الملزم فهو باطل وأن كل محاولات بناء الأخلاق بمعزل عن الدين وأصوله القيمية هي محاولات محكوم عليها بالفشل ذلك لأن الأخلاق عامة لا تجد مكاناً أكثر خصوبة تزدهر فيه من كيان المؤمن الحق الذي يأبى ترك شريعة السماء والالتجاء إلى شريعة الغاب .

وصدق تعالى حينما قال في سورة الرعد - ١١ : ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ .

الفصل الخامس

- الأصول الإسلامية لتوجيه الوسط الإسلامي.
- الغاية القصوى للأخلاق الإسلامية.
- التوازن القيمي أو التوازن الخلقي المبني على أساس قيمي.
- التوازن القيمي باعتباره المبدأ الأساسي لأخلاق الإسلام.
- العناصر القيمية المستخلصة من القرآن الكريم.
  - العناصر القيمية للحياة
  - العناصر القيمية للحياء
  - العناصر القيمية للرحمة
  - العناصر القيمية للتوبة
  - العناصر القيمية للرأفة
  - العناصر القيمية للغفر
  - العناصر القيمية للود
  - العناصر القيمية للعزة
  - العناصر القيمية للبر
  - العناصر القيمية للعفو
  - لعناصر القيمية للحلم
  - لعناصر القيمية للعلم
  - العناصر القيمية للحكمة
  - العناصر القيمية للقوة
  - العناصر القيمية للقدرة
  - العناصر القيمية للحمد
  - العناصر القيمية للشكر
  - العناصر القيمية للخبرة
  - العناصر القيمية للصبر
  - العناصر القيمية للكرم
  - العناصر القيمية للغنى
  - العناصر القيمية للعمل
  - العناصر القيمية للصدق
  - العناصر القيمية للعدل
  - لعناصر القيمية للحق
  - العناصر القيمية للسلام
  - العناصر القيمية للتوكل
  - العناصر القيمية للتواضع

الفصل الخامس

في هذا الفصل نتعرض لبيان المبدأ الأساسي الذي تقوم عليه الأخلاق الإسلامية من خلال رؤية عصرية تساير المنطق العلمي، وسنناقش وصولاً لذلك :

١ - *الأصول الإسلامية لتوجيه الوسط الإسلامي وعلاقته بالدراسات الأخلاقية وما انتهينا بشأنه .*

٢ - *بيان الغاية القصوى للأخلاق الإسلامية .*

٣ - *إرساء مبدأ التوازن الخلقي المبني على أساس قيمي، أو مبدأ التوازن القيمي في الفعل الحركي أو السلوكي للإنسان باعتباره المبدأ الأساسي لأخلاق الإسلام إذ ليس مبدأ التناسق الخلقي الذي ذهب إليه أحد الباحثين[1] هو المبدأ الغالب عليها كما سنرى .*

أولاً : - الأصول الإسلامية لتوجيه الوسط :

لو حاولنا الوقوف على الأصول الإسلامية لتوجيه الوسط لوجدنا في القرآن إشارة إليه من قول الحق تبارك وتعالى في سورة البقرة - ١٤٣ : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، وذلك مجرد توجيه أنصب على الأمة الإسلامية نفسها .. فهي وسط بين الأمم التي تجنح إلى الغلو الضار، والأمم التي تميل إلى التفريط المهلك .

«فهناك من الأمم من غلا في صفات المخلوقين وجعل لهم من صفات الخالق وحقوقه الشيء الكثير كالنصارى الذين غالوا في المسيح والرهبان . . ومنهم من جفا الأنبياء ورد دعوتهم كاليهود الذين قتلوا زكريا ويحيى وحاولوا قتل المسيح ورموه بالبهتان»[2] .

أما الأمة الإسلامية بتوجيهها ذلك فقد آمنت بكل رسول أرسله الله واعتقدت في رسالاتهم وعرفت لهم مقاماتهم الرفيعة التي فضلهم بها الله .

ونجد أهل السنة بتوجيه ذلك الوسط كانوا وسطاً في باب صفات الله- سبحانه وتعالى - بين أهل التعطيل وأهل التمثيل، أي أنهم وسط بين من «ينفيها ويعطل الذات العلية عنها ويحرف ماورد فيها من الآيات والأحاديث عن معانيها الصحيحة إلى مايعتقدونه هم من معان بلا دليل صحيح وعقل صريح، كالقول عن رحمة الله بأنها إرادته وإحسانه، ويده قدرته،

---

١ - كشف أحد الباحثين النقاب عن مبدأ التناسق الخلقي باعتباره المعيار الإسلامي الأصيل للفضيلة الخلقية، انظر المبحث الثامن من كتاب الفضائل الخلقية في الإسلام للدكتور أحمد عبدالرحمن إبراهيم ص ٢٨٩ .

٢ - شرح العقيدة الواسطية، مرجع سابق ص ١١٨ .

عينه حفظه ورعايته، وإستواءه على العرش إستيلاؤه.. إلى أمثال ذلك من أنواع النفي والتعطيل التي أوقعهم فيها سوء ظنهم بربهم وتوهمهم أن قيام صفات الله لايعقل إلا على النحو الموجود في قيامها بالمخلوق»[1]، بل لو قالوا بأن المخلوق له أن يستمد العون من كل اسم وصفة لكان أقرب ذلك إلى ما انتهى إليه أصحاب الحجة المستقاة من البرهان والمعقول، وهم أهل السنة الذين يثبتون الصفات لله تعالى إثباتاً بلاتمثيل، وينزهونه عن مشابهة المخلوقات تنزيهاً بلا تعطيل، خاصة بعد أن رد الله تعالى على الطائفتين المشبهة والمعطلة بقوله تعالى في سورة الشورى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾.

كذلك أهل السنة بتوجيه ذلك الوسط كانوا وسطاً في «باب أفعال الله بين الجبرية والقدرية، وفي باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية من القدرية وغيرهم[2]».

هم الفرقة الواسطية الذين لاذوا بالنقل مع اتخاذ الحجة والبرهان، فلم يُفْرطوا بسطوة العقل، ولم يُفَرطوا فيما اهتدوا إليه من نقل فظلت معرفتهم بالله أسلم معرفة في التقدير والاعتقاد[3].

هم الذين أثبتوا لله ما أثبته هو لنفسه وردوا بأن الصفات موجودة وجوداً حقيقياً والكيفيات مجهولة، وأمسكوا عن البحث في ذات الله. لأنه جل وعلا بغير تشبيه وليس كمثله شيء فكانت حجتهم هي الحجة الراجحة لسببين[4]:

الأول: إن الدين ينهى عن الخوض في ذلك لما ورد في التنزيل من قوله تعالى في سورة آل عمران -٧: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلا الله والرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾.

ثانياً: إن التأويل أمر مظنون بالاتفاق، والخوض في صفات الباريء بالظن لايجوز.

وهم أيضاً الذين أجازوا رؤية الله بمعنى العلم في الدنيا الذي يحصل من النظر لا بمعنى الحس الذي يقع على المجسمات[5].

فالتوجيه الذي نوهت إليه الآية الكريمة توجيه بان أثرهُ في العقيدة أولاً، كذلك تدعم ذلك التوجيه وبصورة مكررة وبألفاظ أخرى في آيات كريمة مثل:

---

١ - المرجع السابق ص ١١٩.
٢ - المرجع السابق ص ١٢٠ - ١٢١.
٣ - المرجع السابق.
٤ - الله، عباس محمود العقاد ص ١٨٠ بتصرف.
٥ - المرجع السابق.

﴿والَّـذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُـوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَـانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامـاً﴾ ، في سـورة الفرقـان – ٦٧ وكذلك في سورة الإسراء –٢٩ : ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُـولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَتَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ ، وأيضاً في الإسراء – ١١٠ : ﴿وَلاَتَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَتُخَافِتْ بِهَا وابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ .

فإذا جاء الإسلام بتـوجيه الوسط باعتبـاره الوسط العادل في قضايـا تتعلق بمسار العقيدة الإسلامية وبأحكامهـا وفي جزئيات سواء في العبادة أو المعاملـة . فليس معنى ذلك أنه توجيه يعتبر مبدأ أسـاسي تدور عليـه الأخلاق الإسـلامية ، بل إن التجـاوز بجعله نظـرية إسـلامية لتـوافـق في معناهـا الأخلاقي مع الاتجاهـات والنظريـات الأخرى الـوضعية فيـه خروج على مقتضى الشرع ، بل وخلط لأبسط قـواعد الحق ، فهو تـوجيه لايتعـدى إلا أن يكون تـوجيهاً ضمن البدائل والاختيارات التي أعطاها الإسلام لمعتنقيه ويقـوم على قاعدة أصولية هامة هي «لا إفراط ولا تفريط» .

فالآيات الســابقة باعتبارها تـوجيهات حددت كيف يكون مسـار العقيدة ، وكيف يكون مسـار الإنفاق المادي والمعنـوي ، وحتى لايلتبس مطلق الإنفاق في ذهن القـارىء ، نقول إنـه الإنفاق المقيد بالنفس وليس مطلق الإنفاق في وجوه الخير .

فالإفـراط أو التفريط في العقيـدة مذموم والإسـراف في المأكـل والمشرب والملبس منهي عنه والتقتير على النفس أو الأنفس التابعة باتجاه الشح أيضاً منهي عنه . . فتلك آيات شريفة حملت توجيهـات في قضايـا جزئيـة سواء في العبادات مـن ناحية التقـرب إلى الله بالـدعاء وسـلامة الاعتقاد ، وكذلك سـلامة التصرف السلوكي الذي يخص العبادة والمعاملـة فلا الجهر المتعمد يكون . . أو المخـافتة المصطنعة . . بل كل ذلك بـاتباع الطـريق الوسط بين الجهر والمخـافتة ، والطريق الوسط في سلامة الاعتقاد ، والطريق الوسط في الإنفاق المادي على النفس أو الأنفس التابعة .

ذلك هو الوسط العادل والخيار الأفضل لأمة الإسلام .

ولقد كـان من دواعي جعل ذلك التوجيه نظريـة إسلامية لتشمل المبدأ الأسـاسي لأخلاق القرآن والارتكـان إليها هو مسـايرة الفكـر اليوناني . ومن ثم الصقت بها تهمـة التأثر بنظـرية الوسط الأرسطي ، رغماً من أن أرسطو نفسه «أدرك عدم شمول معيار الوسط لجميع الأفعال الأخلاقية ... »[1] فإذا كنا قـد عرفنا للتوسط قيمتـه وفضله باعتباره توجيـه قيّم ورد ذكره في القرآن الكـريم ، فليس معنى ذلك أن معرفـة التوسط يعتبر نظريـة أو مبدأ أساسي تـدور عليه

---

١ – الاتجاه الأخلاقي في الإسلام ، مرجع سابق .

الأخلاق الإسلامية، بل معناه أن هناك إدراك لذلك التوجيه وإدراك لسوء مغبة التقصير والغلو، ومعرفة فضل التوسط والقصد[1]. وبالرغم من نفي ذلك التأثر والتشكيك في صحته «إلا أن ذلك لم يتابع بخطوات جادة للباحثين في الكشف عن المعيار الإسلامي الأصيل للأخلاق الإسلامية على - حد قول أحد الباحثين المعاصرين[2]- والذي حاول في دراسته المسماه (الفضائل الخلقية في الإسلام) أن يكشف عنه وعن الغاية القصوى للفضيلة الإسلامية، وتحديد المعيار العام الذي يقوم ممارستها استناداً إلى القرآن الكريم والسنة المطهرة، بعد أن رأى عدم تبين معرفة علمية سليمة بفضائل الإسلام الخلقية أو بنظامه الخلقي، ومن ثم استنبط مبدأ عاماً تدور عليه الأخلاق الإسلامية هو (مبدأ التناسق الخلقي بين الواجبات المتباينة الدرجات) والذي قال عنه أنه ظل مطموراً تحت ركام الجدل الذي جلبته الفلسفة اليونانية على الفكر الإسلامي، وكان نتيجة حتمية لنوعية الكتابات التي تناولت الموضوع، وأنه يُعتبر المبدأ الوحيد، أو هو المعيار الإسلامي الأصيل الشامل الذي يمتد نفوذه إلى العبادة نفسها، ولا يقتصر على الفضائل وحدها[3].

ومع احترامنا لجهود الباحث وتقديرنا لبحثه، واعتمادنا على بعض ما جاء في بحثه كمرجع لنا.. نؤكد هنا في دراستنا هذه بأن المبدأ الأساسي لأخلاق الإسلام ليس هو مبدأ (التناسق الخلقي) المقال به، بل هو مبدأ:

التوازن القيمي، أو (التوازن الخلقي) المبني على أساس قيمي، وهو المبدأ الذي يخلق توازناً في الفعل الحركي أو السلوكي للإنسان بما لا يخرج عن مضمونه فعل ولا تفعل فيجعل الإنسان مهيمناً على رغباته متطلعاً لكمالاته.

وسوف نناقش هذا المبدأ ونوضحه ونركز عليه بعد بيان الغاية القصوى للأخلاق الإسلامية.

---

١ - إقرأ في هذا المعنى، فلسفة الأخلاق في الإسلام وصلاتها بالفلسفة الإغريقية، محمد يوسف موسى ص ٢٧.
٢ - انظر المبحث الثامن من كتاب الفضائل الخلقية في الإسلام، مرجع سابق.
٣ - المرجع السابق ص ٢٨٩ - ٣١٨.

الغاية القصوى للأخلاق الإسلامية

إذا كان علمنا بالضرورة أن الحقيقة المقبولة منا والمنكورة من الملاحدة يترتب عليها واجب تكليفي يتمثل في أفعل ولاتفعل ليصبح الإيمان بتلك الحقيقة إيماناً عملياً وليس إيماناً قولياً . . إذن يصبح الأمر التكليفي وأداته على الوجه المشروع هو محك التجربة الإيمانية الصحيحة، وقبول الأمر التكليفي وأداته على الوجه المشروع أيضاً ليس فيه قسر، بل اختيار لمن أيقن بالآخرة والحساب، ومن ثم يصبح الأمر التكليفي أمر إلزام خلقي لاتشوبه عيب المنفعة التي تدور عليها الأخلاق غير الإسلامية التي راعت في سلوكياتها الأخلاقية النظرة النفعية .

فطالما هناك أمر اعتقادي واختياري وصل بنا إلى الإيمان مشروط بأمور تكليفية، تعبدية وتعاملية، وفق قيم هادية، فيجب أن نلتزم بها خلقياً في السلوك العام ولاندور حول منفعيتها . . لأننا إن حاولنا أن ندور حول صلاحيتها أو منفعيتها نكون قد أهدرنا الشرط الإيماني وهو قبول الأمر الواجب بغض النظر عن نتائج الفعل . . اللهم إلا إذا نظرنا على أن إيماننا سيجلب لنا الخير . . وتلك أيضاً نظرة مشوبه بعيب المنفعة . . تنهار أمام قوة خلقت وسوت وأصبحت حقيقة معترف بها .

أما في مقام الاستشراف القرآني من إعطاء الثواب على نية الفعل الخالص، فذلك استشراف وجداني لايمكن بحال من الأحوال النظر إليه على أنه منفعة مقيدة بفعل الثواب، بل يجب أن ننظر إليه كهدياً لحصول المنفعة الكبرى وهي رضاء الله تعالى والفوز بالجنة .

إذن يجب أن نعلم بأن الغاية القصوى لأخلاق الإسلام هي رضاء الله تعالى .

التوازن القيمي
أو التوازن الخلقي المبني على أساس قيمي

قبل تعريف ذلك التوازن القيمي باعتباره المبدأ الأساسي لأخلاق الإسلام . . يجدر بنا أن نعيد للأذهان أولاً مبدأ التوازن الطبيعي كمدخل لفهم مبدأ التوازن القيمي .

لما كان مبدأ التوازن في الطبيعة يعتمد على أمور حيوية كالعلاقات بين الكائنات الحية ، كذلك على عوامل طبيعية مثل الضوء والحرارة والماء والغازات ، ووجود خلل بين العلاقات الترابطية من جهة ، وبين الكائنات الحية والعوامل الطبيعية من جهة أخرى يؤدي إلى اختلال ذلك التوازن .

وإذا كانت الظروف البيئية هامة في عملية التوازن البيولوجي نفسها على اعتبار أن التوازن نفسه في العمليات البيولوجية هو الذي يخلق استقراراً في الحياة نتيجة الاعتماد المتبادل على عناصره . ومن ثم فإن أية تغيرات في الاعتماد المتبادل سيؤدي حتماً إلى عدم الاستقرار وبالتالي إلى تفكك العلاقات الترابطية .

ولما كان قد استقر أمر العلماء والفلاسفة على أن كل شيء في الدنيا وفي الكون بأسره واقع في نطاق ذلك التوازن ، «وأن مايسمى اختلال إنما هو حادث ضروري لمعادلة شيء آخر، بل أن كل الأحداث التي تقع . . تقع لإحداث توازن ما قد تمتد حلقاته إلى ملايين الأحداث الأخرى ، وغاية مافي الأمر أن هناك كوناً ضخماً يحتوى على عدد لانهاية له من الإجرام والكائنات الصغيرة والكبيرة والماديات والنفسانيات المتحركة والثابتة والظاهرة والخفية ، فكلها ، بل أجزائها وأجزاء أجزائها متماسكة متكاتفة في نظام من الدقة العجيبة[1]. فلو نظرنا إلى الدنيا . . لوجدناها (تآكل مستمر) . . الإنسان يأكل النبات الذي يحيا من الأرض التي يعود إليها . . الإنسان يأكل الطير الذي يأكل الدودة التي تأكل الإنسان[2] .

فإذا كان التوازن قد طبق في كل شيء فبان أثره في الاقتصاد وظهوره بصورة الدورات الاقتصادية كما ظهر في السياسة الدولية فأوجد مبدأ التوازن الدولي الذي تسير عليه السياسة

---

١ - أبحاث في الفقه والفلسفة ، يوسف حسين طاهر ص ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ .
٢ - المرجع السابق .

الدولية - وإن كان من مظهره الانحرافي مبدأ فرق تسد - وبان أثره كذلك في النظم الدستورية فأوجد استقلال السلطات الثلاثة لتتوازن كل منهما مع الأخرى.

ونرى هذا التوازن قد وضح في جسد الإنسان ذاته، خلايا تذوب وتفنى وتتجدد غيرها لتحل محلها.. جراثيم تأكل بعضها.. كرات الدم البيضاء تقاتل العدو فيموت المقاتلون من الطرفين. وهكذا دون أن يكون في ذلك أدنى اختلال[1].

وصدق تعالى حينما قال في سورة الحجر - ١٩ : ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾، وكذلك في سورة الذاريات ٢١ : ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

كذلك نرى التوازن واضحاً في العقيدة الإسلامية التي لم تهمل حياة الجسد عل حياة الروح، ولا تلك عن هذه.. بل جاء فيها التوازن بين متطلبات الروح ومتطلبات الجسد.. خلافاً للشرائع الأخرى.. فاليهودية مالت إلى الحياة المادية على حساب الحياة الوجدانية، ومن ثم كانت شريعة للجسد أكثر مما كانت شريعة للروح. وكذلك المسيحية التي مالت إلى الروح على حساب الجسد.. فكانت شريعة للروح أكثر مما كانت شريعة للجسد.. نجد أن الإسلام قد جاء ليقيم توازناً في كل شيء، سواء في المعتقدات أو الأخلاق، وكانت مهمة ذلك التوازن على وجه التحديد تتلخص في الآتي :

١ - «حفظ الكيان الإنساني مع الملائمة بينه وبين الكيان الاجتماعي، فهما ليس طرفي نقيض بل متكاملان معاً ومتعاونان»[2].

٢ - «إحداث توازن بين الفرد والمجتمع في مجال حقوق كل منهما وواجباته»[3].

٣ - «إحداث توازن نفسي وخلقي في داخل الكيان الإنساني نفسه ليكون منطلقاً لتوازنه مع المجتمع»[4].

٤ - بناء الشخصية المسلمة المتزنة في قراراتها المصوابة في أحكامها المسيطرة على انفعالاتها.

فإذا كان الأمر واضحاً وجلياً في قيام ذلك التوازن سواء في الطبيعة أو في كل شيء فلماذا لايتعدى ذلك إلى الأخلاق الإسلامية والسلوك، ذلك لأن مبدأ التوازن القيمي المستنبط بعناصره القيمية المستندة إلى القرآن والسنة والذي ستتكلم عنه وعنها هي التي تخلق توازناً في

---

١ - المرجع السابق.
٢ - ثقافة المسلم في وجه التيارات المعاصرة - الدكتور عبدالحليم عويس ص ٢٤٠.
٣ - المرجع السابق.
٤ - المرجع السابق.

الفعل الحركي أو السلوكي للإنسان بما يضمن وجود العلاقات الترابطية واستمرارها بين الجماعة الواحدة على أساس متوازن.

والخلاصة التي تفرض نفسها . . أن التوازن بعد أن بان أثره في كل شيء وبان كذلك بأن له أصل قيمي في منهج حياتنا . . فأولى أن ينطبق على أخلاق الإنسان المسلم وسلوكياته في ظل الإسلام ليخلق استقراراً في حياة الناس بفعل تبني قيم وترجيح مثل . . فهي الوحيدة التي تخلق هذا التوازن.

وإذا كان تأكيدنا على مبدأ التوازن الخلقي، واستنباطنا إياه . . وجعلنا له عناصر قيمية تؤكده وتدعمه من القرآن والسنة واعتباره مبدأ أساسياً تدور عليه الأخلاق الإسلامية . . فلأنه هو المبدأ الغالب عليها بشواهد نقلية وعقلية سبق إيضاحها، وسيبين أكثر عند استعراض العناصر القيمية، ومن ثم نرى أن التوازن الخلقي المبني على أساس قيمي لايتعارض أبداً مع توجيه الوسط الإسلامي . أو أي توجيه آخر، بل نرى أن توجيه الوسط الإسلامي يدور في فلكه ليخلق توازناً في المعتقدات وقضايا الإنفاق على النفس والأنفس التابعة، ومن ثم يقضي على الفكرة القائمة في الأذهان بأن المبدأ الأساسي لأخلاق الإسلام قد ظل مجهولاً . . أو قيل تخميناً أنه الوسط . . أو الحياء . . أو السعادة . . أو المنفعة . . ذلك لأنه مبدأ تدور في فلكه كل التوجيهات الكريمة الثابتة بالقرآن والمؤكدة بفعل السنة المطهرة، فسواء كان توجيه وسط، أو توجيه حياء، أو توجيه سعادة . . أو غيره . . فتلك جميعها جزئيات لاترتقي لأن تصبح مبدأ عاماً تدور عليه الأخلاق الإسلامية، ومن ثم يصبح التوازن الخلقي المبني على أساس قيمي هو المبدأ الوحيد الذي يعد الأساس لأخلاق الإسلام . . وليس هو مبدأ التناسق الخلقي المقال به.

ذلك لأن التوازن أعم من التناسق . . فإذا فقد الإنسان توازنه فقد حياته، أو فقد نفسه، فمرجعه قدرة وإرادة، أما التناسق مرجعه اصطناع وتكلف.

التوازن الخلقي، أو التوازن القيمي
باعتباره المبدأ الأساسي لأخلاق الإسلام

التوازن القيمي هو مبدأ ثبت إطاره العام بالدليلين العقلي والشرعي باعتباره المبدأ الأساسي لأخلاق الإسلام ومن ثم فتفهمه يجب أن يستند إلى عناصر قيمية لتؤكد القيم المستخلصة، واستخلاص تلك العناصر القيمية المؤكدة للقيم يجب أن ينبع من العقيدة الإسلامية باعتبار أن له أصل فيها بدلالة [الإقران].

فلو نظرنا للسياق القرآني لوجدنا أن عناصر التوازن القيمي تتعدد صورها لخلق ذلك التوازن، وبإشارات تأكيدية، ونرى الآتي :

١ - آيات قرن فيها الاسم بالصفة مثل : ﴿العزيز الحكيم﴾ .

٢ - آيات يتحدد فيها الاسم وتتنوع فيها الصفة مثل : ﴿إِنَّ الله كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً﴾ .

٣ - آيات يتنوع فيها الاسم وتتحدد الصفة مثل : ﴿هُوَ الله الَّذِي لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَن الرَّحِيم﴾ .

٤ - آيات تتحدد فيها الصفة ويتنوع فيها الاسم مثل : ﴿فَتَعَالى الله المَلِكُ الحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيم﴾ .

ويتكرر ذلك في السياق القرآني في مواضع مختلفة، ونرى ظاهرة [الإقران] قد أخذت مساحة واسعة بالقرآن :

فمثلاً نرى العناصر القيمية الآتية :

١ - التوبة

٢ - الرأفة

٣ - الغفر

٤ - العزة

٥ - البر

مقرونة بقيمة الرحمة كما في قوله تعالى : (التواب الرحيم)، (رؤوف رحيم)، (غفور رحيم)، (العزيز الرحيم)، (البر الرحيم).

أو بمعنى آخر إذا أردنا أن نستخلص عناصر قيمية لفهم قيمة الرحمة، لابد وأن يكون ذلك من القرآن بعدما هدانا الله تعالى إلى ذلك بدلالة [الإقران] ورأينا أن تلك العناصر قد ورد ذكرها في القرآن مقرونة بها، ومن ثم فلايمكن أن تفهم الرحمة بعيداً عنها. أي في معرفة قيمة التوبة، وقيمة الرأفة، وقيمة الغفر، وقيمة العزة، وقيمة البر كعناصر مؤكدة لوجودها وتفهمها وبالتالي انعكاس أثرها على السلوك، وحتى يقال إنك فعلاً تؤمن بها، ولاستنادها إلى أصل قيمي هو «الرحيم» فبدونها لايكون للرحمة البشرية اعتبار أو قيمة في ميزان القيم الحقيقية وتصبح لفظاً بغير معنى وتفقد معناها إذا خلت من البر، الرأفة، التوبة، الغفر والعزة. ومن ثم تصبح الرحمة قيمة حقيقية لاتأول معناها إلى خور في الطبيعة - كما يقال -، ذلك لأن معرفة عنصر العزة الذي يقتضي معنى الشدة والصلابة تجعل الإنسان يوازن بين مطلوبات الرحمة ومطلوبات العزة باعتبارها عنصراً قيمياً للرحمة، وذلك في المواقف التي تقتضيها، فلاتصبح رحمة مفرطة ولاشدة بدونها، بالإضافة لفهم بعض العناصر الباقية من التوبة والرأفة والغفر (الستر) والبر.

كذلك استخلاصنا لقيمة التوبة.. فلايمكن أن تفهم (التوبة) بعيداً عن معرفة قيمة الاستغفار، وقيمة الاستجابة، وقيمة الغفر (الستر)، كعناصر قيمة لها، إذ تستند إلى أصل قيمي هو «التواب».

كذلك قيمة (الغفر) أو الستر لايمكن أن تفهم بعيداً عن معرفة قيمة العفو، وقيمة الحلم، وقيمة العزة كعناصر قيمية مؤكدة لها لاستنادها إلى أصل قيمي هو «الغفور».

وكذلك استخلاصنا لقيمة العلم.. فالعلم وحده لايكون قيمة إلا إذا كان عن إحاطة وخبرة، والعلم والخبرة والإحاطة ليس لكل منها قيمة حقيقية إلا إذا جاء لنا في صورة حكمة. والعلم والخبرة والإحاطة والحكمة ليس لكل منها قيمة حقيقية إذا لم يتلازما بالحس الواعي المدرك والمستجيب للإيضاح والتبيين، وبأهمية الخلق والإبداع، وكل ذلك يتوج بالحلم والعزة كعناصر قيمية استندت لأصول قيمية تمثلت في العليم والسميع، والخبير، والحكيم، والعزيز، والحليم.

وتلك هي العناصر القيمية المستخلصة لقيمة العلم والتي تعاملت مع الأصل القيمي، ووردت في السياق القرآني، وإلى آخر ما استخلصناه من عناصر لباقي القيم الأخرى. ومن ثم نرى أن كل قيمة استخلصت من أصلها القيمي تشكل هي الأخرى عنصراً قيمياً هاماً لقيمة

أخرى، ليؤدي ذلك إلى خلق التوازن في الفعل الحركي أو السلوكي للإنسان، وإلى تكامل البناء القيمي في الإسلام.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هناك قيماً مستخلصة لم نـر في السياق القرآني عناصر لها بدلالة [الإقران]، مثل الحق، العدل، الصدق، الصبر، الود، السلام... إلخ، ولذا فقد استخلصنا لها عناصر قيمية تؤكدها سواء من القرآن الكريم نفسه أو السنة المطهرة.

ولاشك أن تجاهل كل أو بعض تلك العناصر القيمية في السلوك يؤدي إلى اختلاله، ولذا نؤكد على وجوب التكامل بين القيم بعضها مع بعض كوحدة واحدة مع مراعاة عناصر التوازن التي تعاملت مع القيمة الأم واستخلصت من السياق القرآني كما أشرنا سابقاً، وكما سنرى بوضوح عند إيراد العناصر القيمية للقيم بدلالة الإقران ضمن السلوك التطبيقي لمعاني القيم.

ولنعلم بأنه كلما كان التوازن القيمي واضحاً في السلوك على هدي ذلك، كلما كان اعتدال النفس متوازناً في الانفعال، وتصبح كمرآة صافية تعكس عليها كل الموضوعات الحياتية وذلك مايهدف إليه الإسلام من وجود الفطر السليمة والعقول المدركة. ولو أن هناك إنسان توسمت فيه القيمة لما علمت من سلوكه حصوله على بعض خصائصها، فإنه لاينبغي ألا نستدل من ذلك وحده على أنها كائنة فيه إلا بعد أن نتأكد من فهمه لبقية العناصر القيمية الأخرى المشكلة للقيمة وتكاملها في حقه، وأن نرى سلوكه محققاً لها وملتزماً بها، (سلوك ثابت وواضح ومستقر) ومن ثم نستطيع أن نقول عليه أنه قد تفهم ذلك المبدأ باعتباره هو المبدأ الوحيد لأخلاق الإسلام.

العناصر القيمية للقيم المستخلصة

أولاً : العناصر القيمية لفهم قيمة الرحمة :

لاتفهم الرحمة إلا إذا فهمت العناصر القيميـة لها المتمثلة في الآتي والتي وضحت من السياق القرآني :

١ - قيمة التوبة.

٢ - قيمة الرأفة.

٣ - قيمة الغفر (الستر).

٤ - قيمة العزة.

٥ - قيمة البر.

عن العنصر الأول (قيمـة التوبـة) قال تعـالى في سـورة البقرة - ٣٧ : ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

الثاني : (قيمة الـرأفة) قال تعـالى في سورة البقرة - ١٤٣ : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

الثالث : (قيمة الغفر) (الستر) قـال تعالى في سورة البقرة -١٧٣ : ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ والدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَعَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

الرابع : (قيمة العزة) قال تعالى في سورة الشعراء - ٩ : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

الخامس : (قيمة البرّ) قال تعالى في سورة الطور - ٢٨ : ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾.

ثانياً : العناصر القيمية لفهم قيمة التوبة :

تتحق العناصر القيمية لفهم قيمة التوبة في معرفة قيم :

١ - الاستغفار

٢ - الاستجابة

٣ - الغفر أو (الستر)

عن العنصرين الأول والثاني (الاستغفار والاستجابة) قال تعالى في سورة هود ٦١ : ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ .

عن العنصر الثالث (الغفر) أو (الستر) قال تعالى في سورة طه - ٨٢ : ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ .

ثالثاً : عن العناصر القيمية لفهم قيمة الرأفة :

تتحقق العناصر القيمية للرأفة في معرفة عناصر الرحمة ، وهي التوبة ، الغفر، العزة، البر، باعتبار أن الرأفة هي شدة الرحمة .

قال تعالى في سورة البقرة - ١٤٣ : ﴿. . . . . إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ .

رابعاً : عن العناصر القيمية لفهم قيمة الغفر (الستر) :

تتحقق العناصر القيمية لفهم قيمة الغفر أو (الستر) في معرفة :

١ - العفو

٢ - الحلم

٣ - العزة

عن العنصر الأول (العفو) قال تعالى في سورة النساء ٤٣ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَاتَقُولُونَ وَلَاجُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً﴾ .

الثاني : (الحلم) قال تعالى في سورة الإسراء - ٤٤ : ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَاتَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ .

الثالث : (العزة) قال تعالى في سورة فاطر - ٢٨ : ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَىٰ اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ .

خامساً : العناصر القيمية لفهم قيمة الود :

تتحقق العناصر القيمية لفهم قيمة الود في معرفة :

١ - الإيمان .   ٢ - العمل .   ٣ - الغفر (الستر) .

عن العنصر الأول والثاني (الإيمان ، والعمل) قال تعالى في سورة مريم - ٩٦ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً﴾ .

الثالث : (الغفر) أو (الستر) قال تعالى في سورة البروج - ١٤ : ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ .

سادساً : العناصر القيمية للعزة :

تتحقق العناصر القيمية لفهم قيمة العزة في معرفة :

١ - العلم .

٢ - الحكمة .

٣ - الرحمة .

٤ - الهبة .

٥ - الغفر أو (الستر) .

٦ - الحمد .

(انظر مبحث العزة في السلوك التطبيقي منعاً من التكرار) .

سابعاً : العناصر القيمية للبر :

تتحقق العناصر القيمية لفهم قيمة البر في معرفة عناصر الرحمة ، لأن أَقْيم بر هو بر الرحمة .

ثامناً : العناصر القيمية لفهم قيمة العفو في معرفة :

١ - القدرة .

٢ - الغفر أو (الستر) .

عن العنصر الأول (القدرة) قال تعالى في سورة النساء - ٤٩ : ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً﴾ .

الثاني : (الغفر) أو (الستر) قال تعالى في سورة الحج - ٦٠ : ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ .

تاسعاً : العناصر القيمية للحلم :

تتحقق العناصر القيمية لفهم قيمة الحلم في معرفة :

١ - الغفر أو (الستر) .

٢ - الغنى.

٣ - العلم.

٤ - الشكر.

عن العنصر الأول (الغفر) أو (الستر) قال تعالى في سورة البقرة - ٢٢٥ : ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

الثاني : (الغنى) قال تعالى أيضاً في سورة البقرة - ٢٦٣ : ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾.

الثالث : (العلم) قال تعالى في سورة الأحزاب - ٥١ : ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَلِيماً﴾.

الرابع : (الشكر) قال تعالى في سورة التغابن - ١٧ : ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾.

عاشراً : العناصر القيمية للعلم :

تتحقق العناصر القيمية لفهم قيمة العلم في معرفة الآتي :

١ - الإحاطة.

٢ - الحكمة.

٣ - الخبرة.

٤ - العزة.

٥ - الحلم.

عن العنصر الأول (الإحاطة) من الأصل القيمي المتمثل في «الواسع» قال تعالى في سورة البقرة - ١١٥ : ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

عن العنصر الثاني : (الحكمة) من الأصل القيمي المتمثل في الحكيم قال تعالى في سورة الأنعام - ٨٣ : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

عن العنصر الثالث : (الخبرة) ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً﴾ النساء - ٣٥.

عن العنصر الرابع : (العزة) من الأصل القيمي المتمثل في العزيز قال تعالى أيضاً في سورة

الأنعـام – ٩٦ : ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنـاً والشَّمْسَ وَالْقَمَـرَ حُسْبَانـاً ذَٰلِكَ تَقْدِيـرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

الحادي عشر : العناصر القيمية للحكمة :

تتحقق العناصر القيمية لفهم قيمة الحكمة في معرفة :

١ – العلم.

٢ – العزة.

٣ – الإحاطة.

٤ – التوبة.

٥ – التواضع.

عن العنصر الأول (العلم) قال تعـالى في سورة البقرة – ٣٢ : ﴿قَـالُوا سُبْحَـانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَاعَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

الثاني : (العزة) قـال تعالى أيضاً في سـورة البقرة – ١٢٩ : ﴿رَبَّنَـا وَابْعَثْ فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الْحَكِيمُ﴾.

الثالث : (الإحـاطة) قـال تعالى في سـورة النسـاء – ١٣٠ : ﴿ وَإِنْ يَتَفَـرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُـلاًّ مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللهُ وَاسِعاً حَكِيماً﴾.

الرابع : (التوبة) قال تعالى في سـورة النور – ١٠ : ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾.

العنصر الخامس : (التـواضع) من الأصل القيمـي المتمثل في (العلي) ذلك لأن التعـالي في حق الله تعالى عن قدرة واقتدار، أما التواضع في حق البشر فهو عن مذلة وانكسار. قال تعالى في سورة الشورى – ٥١ : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَايَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾.

ثاني عشر : العناصر القيمية للقوة :

تتحقق العناصر القيمية لفهم قيمة القوة في معرفة :

١ – العزة.

٢ – الأمانة.

٣ – الصلابة من «المتين» ذلك لأن العزيـز من البشر مهما كان يأتيه الضعف والخور. فإذا

أضيفت إلى عزته صلابة، زادت القوة متانة.

عن العنصر الأول (العزة) قال تعالى في سورة هود - ٦٦ : ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾.

الثاني : (الأمانة) قال تعالى وفي شأن موسى - عليه السلام - في سورة القصص -٢٦ : ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾.

الثالث : (الصلابة) من الأصل القيمي المتمثل في «المتين» قال تعالى في سورة الذاريات - ٥٨ : ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾.

ثالث عشر : عن العناصر القيمية للقدرة تأكيداً لقوله تعالى في سورة البقرة - ٢٠ : ﴿إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

والقدرة في حق البشر تحتاج لفهمها العناصر القيمية التالية :

١ - العفو.

٢ - العلم.

٣ - العزة.

عن العنصر الأول (العفو) قال تعالى في سورة النساء - ١٤٩ : ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً﴾.

الثاني : (العلم) قال تعالى في سورة النحل - ٧٠ : ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شيئاً إن الله عليم قدير﴾.

الثالث : (العزة) قال تعالى في سورة القمر - ٤٢ : ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كلها فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾.

رابع عشر : العناصر القيمية للحمد :

تتحقق العناصر القيمية لفهم قيمة الحمد في معرفة :

١ - الغنى.

٢ - العزة.

٣ - الحكمة.

٤ - الولاية.

عن العنصر الأول (الغنى) قال تعالى في سورة البقرة - ٢٦٧ : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

الثاني : (العزة) قال تعالى في سورة إبراهيم - ١ : ﴿صِراطِ العَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ .

الثالث : (الحكمة) قال تعالى في سورة فصلت - ٤٢ : ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ .

الرابع : (الولاية) قال تعالى في سورة الشورى - ٢٨ : ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ .

الخامس عشر : العناصر القيمية للخبرة

تتحقق العناصر القيمية لفهم قيمة الخبرة في معرفة :

١ - العمل .

٢ - العلم .

٣ - الحكمة .

٤ - التلطف .

عن العنصر الأول (العمل) قال تعالى في سورة البقرة ٢٣٤ : ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ .

وليس خبير بما نعمل فقط ، بل عليم بما نصنع وخبير بما نفعل .

الثاني : (العلم) قال تعالى في سورة النساء - ٣٥ : ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً﴾ .

الثالث : (الحكمة) قال تعالى في سورة الأنعام - ١٨ : ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ .

الرابع : (التلطف) قال تعالى في سورة الأنعام أيضاً - ١٠٣ : ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ .

السادس عشر : العناصر القيمية للكرم

تتحقق العناصر القيمية لفهم قيمة الكرم في معرفة :

١ - الغني .

٢ - التواضع .

عن العنصر الأول (الغنى) قال تعالى في سورة النمل - ٤٠ : ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ .

فالكرم الحقيقي في غنى الحمد وغنى التواضع . . فنحن رأينا في السياق القرآني مدى الاستهزاء والإهانة التي وجهت لسيد من أسياد قريش كان يجمع لنفسه العز والكرم ، وأخذته نعرة الجاهلية يوماً بأن قال للرسول (ﷺ) [والله ماتستطيع أنت ولاربك أن تفعلا بي شيئاً ، إني لمن أعز هذا الوادي وأكرمه علي قومه] فكان جزاءه أن قتل يوم بدر وأذله الله ونزل في شأنه تبكيت إلهي حينما قيل له في سورة الدخان ٤٩ : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ فإذا كان الله تعالى لم يقرن العزة بالكرم لنفسه في السياق القرآني وهو أحق بها . . فكيف يجمع بينها عبد

حقير. آثم وزنيم؟.

سابع عشر: العناصر القيمية للغنى

تتحقق العناصر القيمية لفهم قيمة الغنى في معرفة :

١ - الرزاق.

٢ - الحميد.

يقول تعالى في سورة الذاريات -٥٨ : ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾، وفي سورة البقرة ٢٦٧ : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

ثامن عشر: العناصر القيمية للعمل

تتحقق العناصر القيمية لفهم قيمة العمل في معرفة :

١ - الخبرة.

٢ - الإخلاص.

٣ - الحياء.

لاشك في أن الخبرة بما تحمله من عناصر العلم والحكمة والتلطف، وماتحمله كل قيمة منها من عناصر قيمية تجعل للعمل قيمة بجانب الإخلاص الذي يصبح مرجعه الحياء من الله تعالى الذي أكد في أكثر من موضع بالقرآن بأنه بصير بما نعمل، بل وخبير به أيضاً.

قال تعالى في سورة البقرة - ٢٦٥ : ﴿. . . . وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، وفي نفس السورة-٢٧١ ﴿. . . . . وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

كذلك لم نر في السياق القرآني تخلل عناصر التوازن القيمي لبعض القيم المستخلصة ضمن ظاهرة [الإقران]، ومن ثم فقد استخلصنا لها عناصر قيمية سواء من الأصول القيمية أو السنة مثل :

قيمة الصدق تكمن عناصرها القيمية في العلم / الإيمان / البر.

قيمة العدل تكمن عناصرها القيمية في العلم / الحق / الصدق / الحكم.

قيمة الحق تكمن عناصرها القيمية في الصدق / التقوى / الطاعة / لزوم الجماعة.

قيمة الود تكمن عناصرها القيمية في الزهد / الطاعة.

قيمة السلام تكمن عناصرها القيمية في الحق / العدل / الإيمان / الصبر.

قيمة الصبر تكمن عناصرها القيمية في التصبر / الحمد / الشكر.

قيمة التوكل تكمن عناصرها القيمية في الإخلاص / العمل / الإرادة / الجهد / السبل المشروعة.

قيمة التواضع تكمن عناصرها القيمية في العزة / العدل / الود / الحياء.

قيمة الحياة تكمن عناصرها القيمية في الإيمان / الحياء / الوقت / الحب / الخير / الخلق والإبداع.

قيمة الحياء تكمن عناصرها القيمية في الرقابة / الحفظ / الخوف / الخشية.

قيمة البر تكمن عناصرها القيمية في الإيمان / الرحمة / الحياء.

قيمة الأمانة تكمن عناصرها القيمية في الصدق / الوفاء / القوة.

قيمة الشكر تكمن عناصرها القيمة في معرفة الغفر / الصبر.

وسوف نرى ذلك واضحاً وجلياً عند التحدث عن كل قيمة مستخلصة، ضمن السلوك التطبيقي لمعاني القيم بالفصل السادس.

الفصل السادس

■ القيم المستخلصة وفق الأصول القيمية والمعاني السلوكية.

- ☐ قيمة الالوهية
- ☐ قيمة الربوبية
- ☐ قيمة الحياة
- ☐ قيمة الحياء
- ☐ قيمة الرحمة
- ☐ قيمة البر سنخصص مبحثاً لها في الجزء الثاني بإذن الله
- ☐ قيمة العلم
- ☐ قيمة العزة
- ☐ قيمة الحمد
- ☐ قيمة الشكر
- ☐ قيمة الصبر
- ☐ قيمة الحلم
- ☐ قيمة الحكمة
- ☐ قيمة الصدق
- ☐ قيمة العدل
- ☐ قيمة الحق
- ☐ قيمة الأمانة
- ☐ قيمة التوكل
- ☐ قيمة السلام
- ☐ قيمة الود سنخصص مبحثاً لها في الجزء الثاني بإذن الله
- ☐ قيمة التواضع سنخصص لها مبحثاً في الجزء الثاني بإذن الله

الفصل السادس
القيم المستخلصة وفق الأصول القيمية والمعاني السلوكية

بعد أن تحدثنا في الفصل السابق عن الأصول الإسلامية لتوجيه الوسط الإسلامي، وما انتهينا بشأنه، وبيان الغاية القصوى لأخلاق الإسلام، وأرسينا مبدأ التوازن القيمي باعتباره المبدأ الأساسي لأخلاق الإسلام، وأشرنا إلى العناصر القيمية التي تحكم القيم المستخلصة.

وبعد أن أوردنا في الفصل الرابع شبه التصنيف العام لما توحي إليه الأسماء الحسنى والصفات العليا من أصول قيمية، واستخلاصنا لما يجاوز العشرين قيمة، ومن ثم سنتناول في هذا الفصل بيان تفصيلي لكل أصل قيمي، وما يوحي إليه من قيمة، وتوضيح مايعنيه في حق الله (تعالى). وماتعنيه القيمة المستخلصة في حق البشر باعتبارها قيمة أخلاقية، مع بيان الأوجه أو المعاني التي وردت بالقرآن لتوضيح معانيها ومدلولاتها، ثم نتكلم بصفة عامة عن القيمة وأثرها في سلوك الأنبياء والرسل، وسلوك صحابة رسول الله (ﷺ) موضحين العناصر القيمية التي حكمت منطق القيمة المستخلصة لفهمها ووضعها في الاعتبار السلوكي، وذلك ابتداء من قيمتي الحياة والحياء إلى أن نصل إلى قيمة التواضع. بالإضافة إلى قيمتي الألوهية والربوبية، ذلك فيما يخص الجزء الأول من القيم المستخلصة وفق الأصول القيمية والمعاني السلوكية والتي اشتمل عليها هذا لكتاب بجزئه الأول.

أما بقية القيم المستخلصة وعناصرها القيمية فستصدر تباعاً - بإذن الله - في أجزاء أخرى مستقبلاً.

الله (قيمة الألوهيــة)

إذا كـان (الله) سبحانـه وتعـالى إسماً للألـوهية التي تعترف بها الـديـانات الثـلاث الكبرى اليهودية، والمسيحية، والإسلام، إلا أن الاعتراف شيء والتوحيـد شيء آخر، فإفراد الله بالدعاء لـه والـدعـوة إليـه، والاحتكـام إلى شرعه، والعمـل بسنة رسلـه هـو محك التجـربـة الإيمانيـة الصحيحة. ذلك لأن الكفـار قد اعترفوا بـوجود الله، لكن جحدوه ذاتـاً وصفاتاً، وكـان مدار الخصومة بين الأمم ورسلهم منذ نوح عليه السلام و إلى نزول الوحي على محمد (ﷺ).

فالاعتقاد السليم بوجود إله حق. . خلاف الاعتقاد المبني على مجرد فكرة لاحقيقة. . فهناك كثيرون على وجه البسيطة يعتقـدون بالله ويؤمنون بـه، لكن اعتقادهم و إيمانهم ذلك مبني على أن الله مجرد فكرة لا حقيقة.

فمثلاً في الغرب نجد أنهم يرون أن الإيمان بوجود الله، إيمانـاً بوجود فكرة الألوهية وهي فكرة يقولون عنها أنها جميلة، لأن الإنسان يتخيلها ويعتقد بها ويخضع لسلطانها، ومن ثم يبتعد عن الشر ويقترب من الخير بدافع من هـذه الفكرة. . فهي - كما يقولـون - رادع داخلي يفعل أكثر ممـا يفعله الـدافع الخارجي، ولذا يـرون أنـه يجب الإيمان بالله، ويجب تشجيع الإيمان بـه حتى يظل الناس خيرين مدفوعين بدافع داخلي يسمونه الوازع الديني.

إذا كان الأمر كـذلك، فمجرد اعتبار الله (سبحانـه وتعالى) فكرة لاحقيقة هـي فكرة في حد ذاتها ترتـد لتجعل الخير والشر أيضاً مجرد فكـرة لا حقيقة، وعنـدئذ يقوم الإنسـان بأعمال بقدر مايتخيل فيها من فكرة الخير، ويبتعد عنها بقدر مايتخيل فيها من فكرة الشر.

لكن الأصوب مـانراه نحن في العقيدة الإسلامية بـأن الله (تعالى) حقيقة بالفعل قـائم بذاته وصفاتـه على أمر عبـاده، ووجوده ملمـوس بوجود مخلـوقاتـه وآلائه، والخير خير منه سبحـانه والشر منـا نحن، ونحن لانستطيع أن نتخيـل الخير ونحكم بخيريتـه إلا على ضـوء شريعتـه، ولايتخيل في الأمر شر إلا بنواهيه.

أما قـولهم بأن ديانـة التشبيه والتجسيـم أفضل من ديانـة التوحيـد والتنزيـه على أساس أن الأولى تـرفع الإنسان إلى منـزلـة الإلـه والثانيـة تهبط بـالإنسـان - كما يزعمـون - إلى حضيض الضعف، فذلـك قولٌ مغلوط من أسـاسه، وفهم خـاطىء حتى لمفهوم اعتقـادهـم، لأنهم مع زعمهم ذلك فإن منزلـة الإله عندهـم أوصلـوها هم بأنفسـهم إلى أنه. . إمـا أن يركب حماراً، أو هو مولود يجري عليه ضعف المخلوقين.

وإذا كنا هنا لسنا في مجال المقارنة بين الأديان، لكن مانود التأكيد عليه بأن عقيدة التوحيد الإسلامية هي التي تنزه الإله الحق وتقدسه بالواحدية والصمدية والاعتراف بأسمائه وصفاته كما وصف نفسه، وكما وصفه رسوله (ﷺ) بعيداً عن التشبيه والتجسيم. وكما قال تعالى في سورة الشورى - ١١ : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فبذلك رد على الممثلة المشبهة[١]. وقوله تعالى في نفس السورة ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ فيها رد على النفاة المعطلة[٢]، وقوله تعالى في سورة الأنبياء-٢٢ : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.

ولو أردنا الوقوف على تشويه الذات العلية في العقيدتين المسيحية واليهودية، لرأينا في قراءة العهد القديم وهو القسم الخاص بالعبادة اليهودية التي هي أساس المسيحية الحالية تعطينا صورة لإله بني إسرائيل بأنه إلاه لهم وحدهم، فهو «يشبه الإمبراطور الروماني، يخضع لأهوائه وشهواته، مولع برائحة الطعام والشراب، يلحقه التعب، ويستبد به النوم، ينام ويستيقظ، يأكل ويشرب، ويقف على العقيق الأزرق[٣].

ولم يكتف بنو إسرائيل بتشويه الذات الإلهية في أسفار العهد القديم فقط، بل زادوا صورته تشويهاً في صفحات التلمود ومنها ماورد في سفر التكوين من أن الله فرغ من خلق الكون في ستة أيام «فاستراح في اليوم السابق من جميع عمله الذي عمل، وبارك الله اليوم السابع وقدسه لأنه فيه استراح من جميع عمله»[٤].

وجاء في سفر زكريا :

«اسكتوا يأكل البشر قدام الرب لأنه استيقظ من مسكن قدسه».

وإلاههم يندم ويأسف على أعماله :

«فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف ... ثم عاد فندم على ندمه وعاد إلى الرضا عن البشر حينما قدموا إليه الضحايا المحروقة على المذبح. فتنسم الرب رائحة الرضا وقال الرب في قلبه لا أعود ألعن الأرض أيضاً من أجل الإنسان».

وإله بني إسرائيل إله لايعرف معنى الحلم بل يعرف معنى الحمق :

«إن الإله تستولى عليه نزوة الغضب فيقسم ليأتين بأعمال شريرة، ثم يثوب إلى رشده فيتحلل من يمينه»[٥].

«وحينما يندم يبكي وتسقط من عينيه دمعتان في البحر فيسمع لهما دوي في الآفاق

---

١ - شرح العقيدة الطحاوية ص ٩٩.

٢ - المرجع السابق.

٣ / ٥ - التوراة (العقل - العلم - التاريخ)، للدكتور بدران محمد بدران ص ٨، ٩، ١٥، ولمن أراد الاستزادة والوقوف على ذلك، مراجعة الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، د. علي عبدالواحد وافي ص ٢٤-٣٠.

وتضطرب المياه وترتجف الأرض فتنجم عن ذلك الزلازل ويردد الله أثناء بكائه تباً لي أموت بخراب بيتي وأحرق الهيكل وتشريد أولادي».

ذلك قليل من كثير عن تشويه الإله.

أما تلويث الأنبياء فليس له حصر في تلمودهم، بل ونجد في المسيحية بأنهم أنزلوا الله من كرسي العرش والملكوت ليجلس معهم في كل مكان، وليجعلوه مخلوقاً تجري عليه أحكام المخلوقين وصفاتهم.. فهو أب وإبن وروح قدس عجنوهم جميعاً وجعلوهم إلاهاً واحداً.

لقد ظنوا ظناً آثماً أن الألوهية تجرى عليها المحلية والعالمية، وأن الألوهية المحلية هي التي تعتبر الإله في نظرهم إلاهاً خاصاً بهم وحدهم. وليس إله العالمين جميعاً... ﴿لله المشرق والمغرب﴾!!.

أمام كل ذلك، وأمام تلك الانحرافات، يجيء (تعالى) ليقطع الظن الآثم باليقين الحق، وليزيل أوهام الرجس والشرك والضلال فيقول تعالى موجهاً رسوله الكريم (ﷺ) في سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ، اللهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾.

تجيء تلك السورة الكريمة «لتخليص تصور الإله الحق من الإله الباطل، أو تخليص جوهر الإله الحق من جوهر الآلهة الفاسدة»[1]، ولتبين العقيدة الصحيحة التي لا لبس فيها ولاغموض، والتي تؤكد معنى الألوهية الحقيقية وأثر ذلك في وجود الاعتقاد السليم.

وما نود التأكيد عليه في معرض قيمة الألوهية أن التقديس والتنزيه لله في العقيدة الإسلامية لم ينشأ عن إضفاء صفات القداسة والتنزيه ممن قدسوه ونزهوه، بل لأن القدوس اسمه وأنه تعالى هو الذي عرفهم بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، فله (سبحانه) الجلال والعظمة، ومن ثم أيقنوا بها واطمأن وجدانهم، وتلاقى ذلك الاطمئنان مع شواهد آلائه وآياته، فجمعوا في إيمانهم بين عقل هادىء وإدراك وجداني سليم.

فإلاهنا إله العالمين جميعاً، لم يركب حماراً في الأرض (تعالى) عن ذلك علواً كبيراً - بل هو قائم في السماء.. لم يلد ولم يولد، بل كلنا خلقه وإبداعه ليس على مثال أو احتذاء.

وأن من لم يعرف تلك الحقيقة،.. إنه إله واحد لا إله إلا هو، فهو جاحد منكر، ومن ثم لايجب الالتفات إليهم كما أرشدنا إلى ذلك تعالى بقوله في سورة الأنعام ٩١ : ﴿ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.

وتأكيد منه (سبحانه) أنه ليس إله مجرد من الخصائص والصفات في سورة طه ٨ : ﴿اللهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾، وتوجيهه كذلك في سورة الأعراف ١٨٠، بأن له الأسماء

---

١ - المنتخب من تفسير القرآن الكريم، مرجع سابق، الجزء الثالث، ص ١٣٢.

الفائقة الحسن والدلالة لنسميه بها ونترك الذين يميلون عنها لأنهم سينالون جزاءهم: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ولكن نعمق الإحساس الإيماني، ولنرى قيمة الألوهية وأثرها في وجود الاعتقاد السليم نقول عن (لا إله إلا الله) باعتبارها أساس دعوة الرسل السابقة، وأمر من الله لرسوله (ﷺ) بالعلم بها - قال تعالى في سورة الأنبياء - ٢٥ : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾، وفي سورة محمد ١٩ : ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾.

إذن لا إله إلا الله.. هي جوهر الدعوة التي دعى إليها الأنبياء جميعاً، والتي مرت الدعوة إليها في عهد الرسول محمد (ﷺ) بأربعة مراحل لتثبيتها في الأرض، بدأت سراً واستمرت ثلاث سنوات، ثم بدأت جهراً باللسان فقط دون قتال حتى الهجرة إلى المدينة، ثم أصبحت جهراً مع قتال المعتدين والبادئين بالاعتداء والشر، واستمرت حتى صلح الحديبية، ثم تواصلت بالقتال لكل من وقف في سبيلها أو امتنع عن الدخول في الإسلام وكانت هذه هي آخر المراحل التي استقر عليها أمر الشريعة السمحاء وحكم الجهاد في الإسلام وإعلاء كلمة التوحيد، إلى أن أصبحت هي الصوت الذي دوى ويدوي في الآفاق معبراً عن الإله الذي لا معبود بحق سواه، ولتعمر مساجد الله آذاناً وتكبيراً، وإلى أن تقوم الساعة بإذنه، ومن ثم أصبح العلم بمعناها واجب ومقدم على سائر أركان الإسلام.

وتعالوا معاً نشهد سوياً آثرها على من قالها وأخلص لها العمل، وتلك الملاحم الإيمانية للتدليل على أن الألوهية ليست مجرد فكرة كما يقال، بل هي حقيقة في الإسلام لإله قائم بذاته وصفاته على أمر عباده، بل ولنرى العقيدة الإسلامية قد تأصلت في عقل ووجدان أشرف الخلق أجمعين، ولم يكن ذلك إلا عن اقتناع بوحي يوحى، ويقين بجوهر الدعوة والتمسك بها، وامتزاج القول بالعمل في صور سلوكية رائعة.

قال الرسول (ﷺ) [من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة].

والمخلص هنا هو الذي يفهمها حق فهم، ويدعو إليها قبل غيرها، ويترجم سلوكه على أساسها فهي أساس التوحيد الذي خلق الله العالم لأجله.

وحينما توجه رهط من قريش لأبي طالب عم النبي (ﷺ) ليقولوا له :

(إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ويفعل ويقول، ويقول.. فلو بعثت إليه فنهيته)

يقول أبي طالب (عم الرسول ﷺ) : (أي ابن أخي، ما بال قومك يشكونك ويزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول؟).

سيد المرسلين (ﷺ) : [يا عم إني أريدهم علي كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب

وتؤدي إليهم العجم الجزية).

وهنا يفزع القوم ويتبدى أبو جهل ليقول:

(لله أبوك لنعطيكنها وعشر أمثالها)، ويتساءل أبي طالب: (وأي كلمة هي يا ابن أخي؟).

يقول (ﷺ): [لا إله إلا الله].

سمع رهط قريش ذلك فوقفوا نافضين ثيابهم، نافرين ومستهزئين بقولهم:

﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَـذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾، وفي رواية أخرى: (كيف يسع الخلق كلهم إله واحد).

ذلك هو البلة بعينه، إن تعدد الآلهة عندهم هو محض إيمانهم.. جهل وافتراء!!.

ثم نرى في موقف آخر. إيمان العقيدة يتجلى دواماً في التأكيد على الإله الواحد القهار.

نراه (ﷺ) يقول لعمه أبي طالب عندما حضرته الوفاة:

[يا عم قُل: لا إله إلا الله - كلمة أحاج لك بها عند الله].

واستمر يرددها عليه، إلا أن عمه أبي طالب أبى أن يقولها. ليس إباء حق، بل إباء خشية وإشفاق، خوفاً من أن تعيره قريش بأن ما حمله على ذلك إلا فزع الموت.

فيرد أبي طالب بقوله (لولا أن تعيرني قريش بقولهم ما حمله على ذلك إلا فزع الموت لأقررت بها عينك)[1].

هذا من جهة، ومن جهة أخرى نرى كيف تعرض الرسول (ﷺ) بسببها وعلى مدار سني دعوته لصنوف من الأذى والاستهزاء. إلا أن ذلك لم يثنيه عن عزمه وعن أمر التبليغ في كل مكان، وفي نطاق حركته الشريفة والدائبة فكان يتبع الناس في منازلهم وفي المواسم، في أماكن تجمعاتهم بأسواق عكاظ ومجنة وذي المجاز، ويسأل عن القبائل قبيلة قبيلة ليدعوهم إلى [لا إله إلا الله] ليصبحوا ملوكاً في الجنة وعمداء في الأرض.

وقد عاش حياته الشريفة دائم الفكر، ليست له راحة إلا بذكرها حتى جعل منها دعاءه في دبر كل صلاة يصليها، وبذلك أصبحت سنة مؤكدة: يقول (ﷺ) [لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، ولا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولانعبد إلا إياه، له النعمة، وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون][2].

---

١ - مختصر سيرة الرسول، الإمام محمد بن عبدالوهاب ص ٤٥.

٢ - رواه مسلم.

أما عن الأمر بالقتال بشأنها فقد كان ذلك بعد أن استقر أمر الإيمان في النفوس وبزوغ الفتن ومحاولة نزع الإطمئنان منها، ومحاربة الله ورسوله. ولم يكن قتالاً للقتال، بل قتالاً للحسنى وبالحسنى - قال الرسول (ﷺ) : [أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الذكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله][1].

ولذا نرى أنه حينما بعث أسامة بن زيد (ﷺ) إلى الحرقة - من مواطن جهينة - لدعوتهم للدخول في الإسلام وامتناعهم، ووجد رجلاً شديداً عليهم وحامياً لقومه، فلما ناجزه أسامة وتمكن منه زميله الأنصاري بادر بالقول : (لا إله إلا الله).. فكف عنه زميل أسامة، إلا أن أسامة (رضي الله عنه) لم يدعه وقتله وكان عذره في ذلك أنه ما قالها إلا تعوذاً من القتل. وما أن وصل الخبر للرسول (ﷺ) فيعاتب أسامة ويقول له : (يا أسامة أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟). وفي رواية أخرى : (يا أسامة من لك بلا إله إلا الله؟) أي من يتكفل لك بأن لاتعاقب بسببها.. فيأخذ أسامة على نفسه عهداً بأن لايقتل رجلاً يقول (لا إله إلا الله) سواء في حياة الرسول (ﷺ) أو بعده حتى وإن كان متعوذاً بها من القتل[2].

ونرى في رواية أخرى، يقول (ﷺ) لأسامة (رضي الله عنه) : (أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم من أجل ذلك قالها أم لا).

وجرى مثل تلك الواقعة من المقداد بن الأسود (رضي الله عنه) حينما هوى على رجل وقتله بعدما قال (لا إله إلا الله)، وأبى الرجل ألا يبرح مكانه لما له فيه من كثرة الأنعام والمتاع. ويصل الخبر للرسول (ﷺ) فيغضب ويقول للمقداد : (كان رجلاً يخفي إيمانه مع قوم كفار فأظهر إيمانه فقتلته، وكذلك كنت تخفي إيمانك بمكه من قبل).

وقيل في هذه الواقعة بالذات نزلت الآية الكريمة ٩٤ من سورة النساء : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا، وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً، تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَعِندَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾[3].

عن قيمة الألوهية بالنسبة لأبي بكر الصديق (رضي الله عنه) :

يصور الرسول (ﷺ) العنت الذي قابله والتردد الذي عاناه في دعوته من الذين عرض عليهم الإسلام إلا ذلك الصديق الوفي (أبي بكر - رضي الله عنه) الذي قال عنه (ﷺ)★.

---

١ - رياض الصالحين، النووي ٢/ ١٠٧٦ ص ٣٢٢.
٢ - حياة الصحابة، الكاندهلوي ٥٧، ٥٨.
٣ - أسباب النزول، الواحدي، ص ١٢٠.
★ انظر مختصر سيرة الرسول (ﷺ) للإمام محمد بن عبدالوهاب من ص ٦٦ ومابعدها.

[ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوة ونظر وتردد إلا ما كان من أبي بكر ابن أبي قحافة ماعكم عنه[1] حين ذكرته وما تردد فيه] فنرى الرسول (ﷺ) يطلق عليه بعد إسلامه عبدالله بدلاً من اسمه القديم عبدالكعبة، وينعت بالصديق لصدق إيمانه وقبول دعوته. وبعد أن مات الرسول (ﷺ) أصبحت (لا إله إلا الله) بالنسبة لأبي بكر الصديق (رضي الله عنه) هي المنطلق الأساسي الذي حارب من أجله كل مرتد عنها. فحينما بويع بالخلافة كتب لأمرائه كتاباً أودعه لدى خالد بن الوليد (رضي الله عنه) ليقرأه في كل مجمع، وليكون هو المنهاج اليقيني في الدعوة.

(بسم الله الرحمن الرحيم) «من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ إلى من بلغه كتابي هذا من عامة الناس أو خاصتهم، أقام على الإسلام أو راجع عنه.. سلام على من اتبع الهدى ولم يرجع بعد إلا الضلالة والعمى، فإني أحمد إليكم الله *الذي لا إله إلا هو*، *وأشهد أن لا إله إلا هو*، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الهادي غير المضل. أرسله بالحق من عنده إلى خلقه، بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً. لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين فهدى الله بالحق من أجاب إليه، وضرب بالحق من أدبر عنه، حتى صاروا إلى الإسلام طوعاً وكرهاً».

ويمضي الصديق (رضي الله عنه) بارزاً الترغيب لمن يدخل في دين الله ويعمل صالحاً، والترهيب لمن يأبى فيحق عليه الحرق بالنار وسبي الزراري والنساء.

كان ذلك كله من أجل تثبيت *«لا إله إلا الله»* فلم يحارب المرتدين إلا من أجلها ليعودا إليها.. رحمة بهم.. رحمك الله أبا بكر، فقد كنت بالمعروف آمراً وإليه صائراً، ولاتخشى في الحق لومة لائم.

عن قيمة الألوهية بالنسبة لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه):

فكانت أول عبارة سمعها عمر (رضي الله عنه) من القرآن الكريم وكانت سبباً في شرح صدره للدخول في الإسلام وتعميق إيمانه هي *(الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى)*.

يقول ابن عباس (رضي الله عنهما) أنه قال لعمر (رضي الله عنه) لم سميت الفاروق؟ فقال أسلم حمزة قبلي بثلاثة أيام، ثم شرح الله صدري للإسلام، وأول شيء سمعته من القرآن وقر في صدري ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾[2].

وأصبحت هي القسم العظيم الذي اشتهر به عمر في مواقف حياته، وذلك مشهداً منه:

نراه في عام الرمادة يحلف ويقول: *(والله الذي لا إله إلا هو* ما أحد إلا وله في هذا المال

---

١ - عكم عنه بمعنى «تلبث أو تلكأ».

٢ - مختصر سيرة الرسول، مرجع سابق ص ٦٧ والآية سورة طه / ٨.

حق أعطيه أو أمنعـه، وما أحد أحق بـه من أحد، وما أنا فيـه إلا كأحدكم، ولكنا على منـازلنا من كتاب الله عز وجل وقسمنـا من رسول الله (ﷺ) فالرجل وبلاؤه في الإسـلام، والرجل وغناه في الإسلام، والرجل وحاجته في الإسـلام، والله لأن بقيت ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى مكانه).

صدقت والله ياعمر في قسمك وفي عدلك، فكان بعد العسر يسراً.

عن قيمة الألوهية بالنسبة لعثمان بن عفان (رضي الله عنه):

أما لا إلـه إلا الله بالنسبـة لعثمان بن عفان (رضي الله عنـه) فقد أخرج ابـن سعد عن عثمان نفسه (رضي الله عنه)[1] - (وكان هذا المشهد الرائع في حياة الخليفة أبي بكر (رضي الله عنه):

«انطلق عمر رضي الله عنه حتى دخل على أبي بكر (رضي الله عنه)، فقال: يا خليفة رسول الله.. ألا أعجبك!!.. مررت على عثمان فسلمت عليه فلم يرد علي السلام).

وهنا نرى حكمـة الحكيم في المواجهة فقد قام أبي بكر (رضي الله عنه) فأخـذ بيد عمر (رضي الله عنه) فأقبـلا - والقول هنا لعثمان (رضي الله عنـه) - جميعاً حتى أتيـاني فقال لي أبو بكـر: يا عثمان جـاءني أخوك فـزعم أنه مـر بك فسلم عليك فلم تـرد عليه فما الـذي حملك على ذلك؟ فقلت ياخليفة رسول الله ما فعلـت، فقال عمر (رضي الله عنه) بلى - والله - ولكنها عبيتكم[2] يا بني أمية؟ فقلت والله ما شعرت أنك مـررت بي ولاسلمت علي!!، يصدقه أبو بكر (رضي الله عنه) ويقـول: أراك والله شغلت عن ذلك بأمر حـدثت به نفسك. فقلـت: أجل، قال: فما هو؟.. قلـت: توفي رسول الله (ﷺ) ولم أسـأله عن نجـاة هذه الأمـة ماهو؟، وكنـت أحدث نفسي بذلك وأعجب من تفـريطي في ذلك، وهنا يوضح لـه أبي بكر أنه سبق أن سأل الـرسول (ﷺ) نفس السـؤال فأخبره بأن من قبل منه الكلمـة التي عرضهـا على عمه فـردها عليـه وهي شهادة *لا إله إلا الله، وأن محمد أرسله الله*، وهي دعوة ذي النون المصري، وهو في بطن الحوت فقد كان يقـول لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. فإنه لن يـدعو بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له.

كـذلك أخـرج الإمـام أحمد عن ابن عمـر (رضي الله عنهما) أن عثمان (رضي الله عنـه) حينما أشرف على قتله وهو محصور في داره قال: عـلام تقتلونني؟ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: [لايحل دم امرىء إلا بإحدى ثلاث. رجل زنى بعد إحصـانه فعليه الرجم، أو قتل عمداً فعليه القود، أو ارتد بعد إسلامه فعليه القتل]. فـوالله مازنيت في جاهلية ولا إسلام، ولا قتلت أحداً

---

١ - حياة الصحابة، مرجع سابق.

٢ - عيبتكم: كبركم.

فأقيد نفسي منه، ولا ارتددت منذ أسلمت، إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد عبده ورسوله[1].

---

١ - مختصرة سيرة الرسول، مرجع سابق.

ذلك قليل من كثير مما حوته كتب السيرة، ألمحنا إليه لتأكيد الإيمان والعمل في أهم ركن من أركان الإسلام.

وهكذا رأينا كيف كانت الدعوة بلا إله إلا الله، وإلى أن أصبحت ورداً يتلى وتتردد في كل يوم جهاراً على المآذن العالية خمس مرات، وفي القلوب المؤمنة بعدد الحصى والنعم والآلاء، وليتضح للإنسان أن الإيمان بلا إله إلا الله كان إيماناً بقيمة الألوهية الحقيقية.

والحمد لله رب العالمين.

الرب (وقيمة الربوبية)

بعد أن تكلمنا عن قيمة الألوهية، وأساس الدعوة في الإسلام، يجدر بنا في هذا المقام التحدث عن قيمة الربوبية باعتبارها منهج حياة وأساس قيمي لتربية حقة وقيمة متلازمة لها.

فالربوبية منسوبة للرب الذي يقتضي معان كثيرة هي الملك والحفظ والتدبير، ونرى أن التربية قد اشتقت من «رب».

ولما كان منهج التربية الحقة في الإسلام قد تكفل به الله باعتباره هو الخالق والمالك والرازق والمتصرف، ورب العالمين جميعاً، ومادام الأمر كذلك فيجب أن تفهم بأن تربيته لخلقه هي الأفضل والأشمل والأعم.. ذلك لأن الخالق أعلم بمن خلق، فلايريد إلا أن يرى أثر نعمته على عباده وفضله وتكريمه لهم ليمثل الإنسان في ظل تربية إسلامية صحيحة شخصية الإسلام في ذاته وسلوكه، وفي إيمانه بالمثل العليا ليبلغ غاية الكمال البشري الذي ارتضاه ولايتأتى ذلك إلا بتربية سليمة وأخلاقية حقة ترتبط بعقيدة السماء وتجمع بين حياة روحية مشرقة مملوءة بالطمأنينة لترد للمخلوق فطرته، وبين حياة مادية تحفظ له كيانه وتقيم فيه توازناً لاتفاوت فيه ولا انفصام بين مطلوبات الروح ومطلوبات الجسد.

ولو رجعنا لمنهج الربوبية في التربية لوجدناه قد اعتنى أولاً بطهارة الجسم ثم طهارة الروح كمدخلاً للطاعة، فأعمال العبادة من الغسل والمسح والتنزه والتناهي عن إدخال الجسم كل رجس.. كل ذلك في منهج التربية الحقة لايكفي فقط.. بل تبقى طهارة الروح وتربية النفس، وهذه وتلك أعطاها الإسلام كل رعاية وعناية فاقت توقعات علماء النفس والتربية وعلماء الأخلاق، بل وعلماء الاجتماع في العالم كله وعجزوا طيلة مسيرة البشرية عن أن يقدموا لنا منهاجاً تربوياً متكاملاً، وكلما حاولوا.. اختلفوا.. ولو أنهم رجعوا إلى الإسلام ومبادئه لوجدوا فيه خيراً كثيراً. وهل فيهم من يستطيع أن يقدم مفهوماً واحداً يغني عن كلمة «الإسلام» بما تحمله من معاني ودلالات؟.

لقد أخذت طهارة الروح في الإسلام طابعين، طابع ظاهري وباطني ليتطابق الظاهر مع الباطن، ولتتسم الشخصية بالتوازن المبني على أساس قيمي وليس على أسس رمزية واصطلاحات نفعية.

فإذا كان الندم واللوم يعكر صفو النفس ويؤلمها.. نجد هناك التوبة النصوح لتزيل الألم من النفس وتطهرها من الآثام وترجعها إلى صفو فطرتها.

كذلك تربية النفس على الحب والمسالمة وإيثار الغير والوثوق في الله ورحمته وجزاء الصابرين على ابتلاءه، وشكر الشاكرين على نعمه . . إلى آخر كل تلك المعاني التي تستند لأصول قيمية جعلها الله وصلاً بينه وبينهم ليرتبط السلوك بالإيمان لينمي في الإنسان الشعور الخلقي قبل النزوع إلى الفعل الحركي، وليجعل المسلم يمشي على الأرض وقلبه وهامته مشدودين إلى السماء لا فخر ولاخُيلاء، بل بتواضع وحياء.

حتى الخوف في الإسلام يصبح هو مصدر الطمأنينة والأمان، وكظم الغيظ لايدفع للانتقام.

كذلك تطهير النفس من إرادة الحسد والبغض والكره والقسوة والطمع والغش والرياء، والصلف والغرور والخيانة والاتكال على الطاعة والثقة بالمخلوقين ليستقيم أمر الفطرة على منهج الله بإرادة حرة ووعي سليم.

ولو أردنا الوقوف على أسس التربية الأخلاقية في الإسلام بنظرة علمية دون تعميم لوجدنا الأسس التي يهدف إليها الإسلام من تربيته للجماعة الإيمانية تقوم على الآتي :

١ - تكامل البناء الاعتقادي السليم.

٢ - تكامل البناء العلمي المؤدي لليقين.

٣ - تكامل البناء الإنساني.

٤ - تكامل البناء الجزائي.

تلك هي أسس بنيان التربية الأخلاقية في الإسلام وتسير وفق قيم حددها الوحي لتمثل بذاتها الإطار العام الذي يتحدد على أساسه طابع التوقع السلوكي بين الجماعة الواحدة.

ويكفي أن نرى العقيدة الإسلامية بإضفاءها صفات الخالق على المخلوقين، ورعاية الخالق لهم وقربه منهم وموالاتهم بنعمه وقيامه على أمرهم . . وإعطائهم خصائص التكريم لدليل واضح على أهمية التربية الأخلاقية في الإسلام.

فإذا كان الله تعالى قد علم آدم أبو البشر أسماء مخلوقاته، وأدب نبيه بتعليمه ذكر أسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله، وجعل ذلك لجميع خلقه سنه يستنونها من بعده، وسبيلاً يتبعونه، فيجب أن تكون الأسماء والصفات هي مدخل حقيقي لتربية حقة، خاصة بعد أن بان اتجاه الفلاسفة ورجال التربية المحدثين من ضرورة الأخذ بتلك الأسس وأهميتها في تربية النشىء، ومن ضرورة تأسيس التربية عليها ومحاولة الارتداد إلى الدين باعتباره المقوم الأساسي للسلوك[1].

---

١ - التربية الأخلاقية في الإسلام، مرجع سابق.

ألم يحن بعد لأن نسير على الدرب الممهد، وأن تخشع قلوبنا وتلين لمنهج الله ونتبناه؟ وصدق تعالى حينما عاتبنا بقوله في سورة الحديد / ١٦ :

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ .

ألا نرى في التوجيه الآتي هدياً لأن نضع الحق في نصابه والقيم الإسلامية في ميزانها الحقيقي . . إنها دعوة مفتوحة للعلماء الراسخين في العلم في أن يقودوا مسيرة التربية الإسلامية وفق إطار قيمي يستمدون منه المعرفة ويربون عليه الأجيال القادمة . . فهم أولى بأن يحققوا وصف الله لهم بأنهم القيادة الصالحة والربابنة الواعية وفي ذلك تشريف وتكريم لهم .

﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ .

ولكي يتعمق مفهوم التربية في الإسلام سنحاول الإلماح إليها في عهد الرسول (ﷺ) التي استمد أسس بنيانها المتكامل من ذلك المنهج القيمي .

فالتربية في عهده (ﷺ) قامت أساساً واستمرت طيلة ٢٣ عاماً –مدة نزول الوحي– لتبني الأسس الاعتقادية السليمة في الإنسان مع الأساس العلمي، والأساس الإنساني، والأساس الجزائي، ومن ثم فقد ربى جيلاً من الصحابة الكرام يؤمنون بقيمتي الألوهية والربوبية ووفق إرادة خيرة فملكوا زمام الناس والأجناس وأرسوا مبادىء القيم التي آمنوا بها ووفق أصولها .

ولو عطفنا النفس على دستورنا القيمي لوجدنا أصح بيان، وأقوى برهان في التشبيه التمثيلي للتربية . . ذلك التشبيه الذي أورده الله تعالى في حق سيدنا محمد (ﷺ) وأصحابه – فقال تعالى :

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ سورة الفتح / ٢٩ .

هم الذين عرفوا معنى الرحمة ومعنى العزة، بل والخصائص العامة للتوازن القيمي، فوضعوا القسوة والشدة في موضعها السليم ونبذوا التقاطع والتدابر والصد والهجران بين الأخوة الإيمانية الواحدة، وفي نفس الوقت لا ذلة ولا استكانة أمام جحود ونكران حتى لو اقترنا ذلك بقوة حقيقية وبطش فرعوني . ولو أننا نود أن يكون تركيزنا أقرب إلى الاختصار لطال بنا المقام في معرض التربية الأخلاقية في الإسلام، وضربنا أروع الأمثلة من واقع تربية الصحابة لأولادهم وأزواجهم وبناتهم، وصبيان المسلمين وشبابهم . لكن مع ذلك لاتفوتنا تلك اللفتة العظيمة

من عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - الذي مر يوماً على دار عِلم لتحفيظ القرآن فوجد معلماً للصبيان والبنات فأمر بفصل هؤلاء عن اللوات.

نسوق ذلك لمن يريد أن يتدبر أمر الاختلاط في مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا، وحركة حياتنا ليجعل له معياراً من الحشمة والحياء، بدلاً من التفسخ والانحطاط.

ولطالما الأفكار تتراود والقيم تتأصل نتوهه بأهمية الحجاب الذي يلقى اليوم استجابة فطرية، ونهضة عصرية من اللواتي حباهن الله بفضله فأنار بصائرهن على الهدى والحق وعرفوا معنى الستر والحجاب، وليهتفوا معي أينما كانوا.

نحن أبناء الفناء ★★ نحن أبناء الولاء

نحن أمة قد علت ★★ بالجهاد وبالحياء

ولكي نعي تصحيح مسار التربية الأخلاقية في الإسلام.. يجب أولاً الإيمان بربوبية الله المطلقة، وأنه الوحيد -سبحانه- الذي يجب أن نهتدي بمنهجه في التربية، ذلك لأن الخالق أعلم بمن خلق.

ولتكون الأسماء والصفات هي المدخل الحقيقي لفهم التربية الإسلامية الصحيحة وتعميق مفهومها القيمي ليتحدد بدورها طابع التوقع السلوكي داخل الجماعة الواحدة، أو المجتمع المسلم الواحد، وتكشف عن أصالة الإسلام والمسلمين، ليصبح الإنسان في ظلها قادراً على التكيف النفسي والفكري وقادراً على تحصين نفسه ضد كل فكر دخيل مهما تنوعت أساليبه وغلفت.

والله الهادي لسواء السبيل.

الحي والمحيي
(وقيمتي الحياة والحياء)

الحي والمحيي اسمان من أسماء الله الحسنى، فالحي هو الله الذي لا إله إلا هو، له كمال الحياة سبحانه لأن حياته من لوازم ذاته فهي أزلية أبدية.

وإذا كان كمال حياته سبحانه يستلزم ثبوت جميع صفات الكمال الذاتية له من العزة والقدرة والعلم والحكمة والسمع والبصر والإرادة والمشيئة وغيرها، إذ لايتخلف شيء منها إلا لنقص في الحياة، فالكمال في الحياة يتبعه الكمال في سائر الصفات اللازمة للحي، ثم نرى اسمه القيوم قد اقترن بالحي وما ذلك إلا لتضمنه لجميع صفات الكمال الفعلية، كأسم الحي المتضمن لجميع صفات الكمال الذاتية، فهو الخالق والقائم على أمر عباده، لاتأخذه سنة ولانوم.

ومعنى اتصاف الله بالحياة أن حياته (سبحانه) تختلف عن حياتنا وعن حياة غيرنا من المخلوقات فحياته (تعالى) كاملة لايعلم حقيقتها إلا هو كسائر صفاته، وأن حياة كل الموجودات مستمدة منها وأنها غير مسبوقة بعدم أو مدركة بفناء فهي من الأزل وإلى مالا نهاية.

يقول (تعالى) في كتابه الكريم :

﴿اللهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُـوَ الْحَيُّ الْقَيُّـومُ﴾ سورة البقرة - الآية ٢٥٥، ﴿وَعَنَتِ الْـوُجُـوُه لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ سورة طه - الآية ١١١، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىَ الْحَيِّ الَّـذِي لاَيَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْـدِهِ﴾ سورة الفرقان - الآية ٥٨.

أما اسمه المحيي فيدل على أنه سبحانه هو الذي أحيا الخلق بأن خلق فيهم الحياة، وأحيا الموات بإنزال الحيا (المطر).

جاء ذكر الحياة في القرآن على سبعة أوجه[1].

إحداها : لمعنى الروح - قال تعالى في سورة البقرة : ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾.

ثانيهـا : لمعنى الهدى - قال تعالى : ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ أي هديناه للإيمان.

ثالثها : لمعنى البقاء - قال تعالى في سورة البقرة : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾.

---

١ - كشف السرائر لابن العماد، مرجع سابق ص ٢٩٤-٢٩٦، وانظر نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر لابن الجوزي، صححته وعلقت عليه السيدة مهر النساء،، فقد أورد خمسة أوجه فقط بالجزء الأول ص ١٤٨-١٤٩.

رابعاً : يكون لمعنى حياة الأرض بالنبات، وذلك عن المطر – قال تعالى في سورة فاطر : ﴿. . . . فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾.

خامساً : يكون لمعنى العبرة – قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللهِ﴾.

سادساً : يكون لمعنى الحياة يوم القيامة، فهي حياة لاموت بعدها – قال تعالى في سورة مريم: وسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾.

سابعاً : عن أرواح الشهداء باعتبارهم أحياء عند ربهم يرزقون – قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

هذه هي الأوجه أو المعانى التي حملتها الحياة في القرآن.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد خلق الحياة ووهبها للإنسان، وجعل فيها مقومات حياته من أرض وسماء بها أنهار وماء وبينهما هواء وآلاء فذلك وحيدة إبداع يثير الدهشة والانبهار ويدفع للتفكر والاختيار.

سبحانك ماخلقت هذا باطلاً أبداً. . أرض تقل. وسماء تظل. . أنهار تسقي. . وهواء يحيي. . وصدق الله حينما قال : في سورة الكهف ٨٤، ٨٥ ﴿وآتيناه من كل شيء سبباً، فاتبع سببا﴾.

تلك هي مشيئته ... ، فكل شيء في الحياة وجد فيها لغاية ومردود لسبب، ولايمكن أن يتولد شيء في الحياة فيه روح الحياة بفعل ذاتي وصدفه محضة، بل بتدبير أزلي وحكمة بالغة الدقة، وقدرة متناهية القوة، وإبداع لا مثيل له، وخبرة عن سابق علم وإحاطة.

فسماء تبنى وترفع بلا عمد، ليس لها بداية ولها نهاية، وأرض تسطح وتمهد وتفرش بالنعم والآلاء وتشق فيها الأنهار والعيون والبحار وتلقى فيها الرواسي وكل ذلك لمن. . للإنسان الذي الذي هو في نفسه آية كبرى لتستقبله الأرض بزينتها وبأبهى حللها. . ذلك هو التكريم الحقيقي للإنسان.

أيها الإنسان. . أطلق العنان لخيالك. . تصور كل ما أنتجته الأيدي من أعمال، وماتنشئه العقول من أفكار، وماتهتز به الأفئدة من مشاعر، واجعل هذا الخيال يضم أشتات ذلك الواقع من مشارق الأرض ومغاربها، وحكم عقلك بعد تنقية وجدانك وارجع لفطرتك السليمة، وأعط الحكم الحق.

لانفرضه عليك. . ولكن ستقول معنا إن هناك إله حق قائم بذاته وصفاته على أمر عباده، وإلا كان منك الجحود والنكران، الذي لانستبعده منك بل ونتوقعه من أناس لايقدرون معنى الألوهية الحقة والربوبية الكاملة، وينضون تحت لواء الطبيعة البوهيمية.

فما الحياة بكل ضروبها إلا وتسيرها نواميس معلومة ولغاية مرسومة، وقوة تشمل بسلطانها كل شيء في الوجود، وهي ليست خالقة لما في الكون وكفىء، بل أنها لاتنفك مدبرة له ومنظمة لحركة وجوده.

تسلسل عجيب يثير الدهشة.. تلك الريح التي تبذر الحب.. وتلك الشمس التي تبخر الماء. وتلك الريح التي تدفع البخار إلى الزرع.. المطر يروي النبات، النبات يطعم الإنسان والحيوان، وكل ذلك ضروري لأن يكون للحياة معنى.

وحينما ننظر إلى الحياة ونقيسها بمقاييسها ونوزنها بموازينها تبدو في العين وفي الحس أمراً عظيماً هائلاً، ولكننا حينما نقيسها بمقاييس الوجود ونزنها بميزان الآخرة تبدو شيئاً تافهاً وزهيداً بالقياس إلى ما في الحياة الآخرة، باعتبار أن لها شأن آخر يجب أن يحسب حسابه، فهي لاتنتهي في لمحة بصر، إنها حساب وجزاء ودوام يستحق الاهتمام.

يجب أن يهدينا ما في الكون إلى عظمة الخالق وحكمته.. ويجب أن تهدينا عقولنا إلى أن كل شيء في الحياة مرسوم ومحسوب بقدرة واقتدار، فتلك النعم الكبرى مهما وصل الإنسان من علم.. ومهما بلغت قدرته من حسن تدبير، لايستطيع أن يتحكم فيها بتدابير معينة، فهل هناك من يستطيع أن يقول للشمس لاتطلعي وللماء لاتنزلي.. تخيل لو أن في حياتك تجار هواء.. وماء.. ارجع بفطرتك لخالق الكون وأعبده حق عبادته وسبح بحمده، منحك غريزة حب التملك ولم ينكر عليك حق الانتفاع بما خلق، بل لم ينكر عليك حق التصرف فيما تملك.. إذا كان الأمر كذلك.. وهو ما كان.. فيجب أن تهتدي إلى أن لله حقاً فيما نملك وللبشر حقاً فيما نحوز.

ولو تفكرنا قليلاً، وتدبرنا لوجدنا أنه من الواجب علينا أن نضع كل شيء في الحياة في موضعه الصحيح والسليم، فنحن محاسبون على كل ذرة رمل تحت أقدامنا، وكل نفس يدخل فينا ويخرج منا، إنها حياة العمل والسعي والجهاد وفق قيم حددها الوحي وطلب منا أن نشترك في تطبيقها لنعلم معنى الحياة.

ورغماً من تناسينا أو تغافلنا عن ذلك المنهج القيمي الذي يحكم حركة الإنسان في الحياة، ويعلي من شأنها إكراماً له، ، إلا أن العقل البشري مازال قاصراً عن تفهم تلك العناصر القيمية سواء في الحياء من الله أو تكافله وتعاونه. فلم يظهر سلوك الإنسان بعد بالصورة التي أرادها الله له رغماً من انبثاقها في السلوك الفطري للحيوان الذي لايملك مقدمات فكرية كما يملكها الإنسان.. فنرى الحيوان يعرف معنى الحياء.. ونراه كذلك مازال يخدم ظاهرة التعاون.. وتتلاشى الأنانية بين أفراده، وذلك هو النمل الذي يميل دائماً إلى التجمع.. ليس إلا لهدف واحد هو تخزين الطعام للمستقبل، وليأكل منه كل من اشترك وكان عضواً في الجمع، أو كل من لم يشترك ولم يكن عضواً فيه إلا أنه تصادف وجوده في مكان التخزين.

وتلك الفئران التي استوردتها إسرائيل من النرويج وأطلقتها بالمزارع المصرية لهدم الاقتصاد المصري. . فقد كانت الفئران حينها تكتشف أن عدد الضحايا من الفئران من بني جنسها في ازدياد مستمر، يكون الفداء واجب والتضحية لازمة. . فيتبرع فأر بنفسه ليكتشف أماكن السم، فإن عاد وإلا أحس البقية بأن شباك السم منصوبة، أو أن المكان ملغم فيحذروه. . وذلك الطير الحمام الذي يهجر مسكنه مضطراً تاركاً وراءه فراخاً صغيرة فيتولى رعايتها وتربيتها أب آخر وأم أخرى، وتلك حقائق رأيناها بأم أعيننا، والنحل وخلافه، والأمثلة على ذلك كثيرة من سريان روح التعاون في الحيوان والتضحية. أو استمرار وجود الحياء الفطري فيه.

ولكن لاحياة لمن تنادي. . ولاحياء في كل وادي؟

هل فشل المسعى وخاب الرجاء كلما تقدم الإنسان في العلم. . ليس المسئول هو العلم بل تلك القوى الشيطانية التي تلتبس الفؤاد وتهوي الرذيلة فتحجب عن البصائر بغشاوتها نزعة الإيمان والتدين، وتعطي للإنسان احساساً خادعاً بأنه هو مالك الكون. . وليس مالك الكون فقط. . بل تطرف في سؤال نفسه بأن قال. . هل تلك الحياة تستحق منا أن نحياها؟ وسار على نهج المتشائمين الذين لم تتغير نظرتهم إلى الحياة ولم تختلف عن نظرة الجاهلية الغبراء. . لقد كانت الحياة في نظرهم سواء حركة أو سكون لا علة لها ولا هدف ولا غاية. . أرحام تدفع وقبور تبلع وبين هاتين لهو ولعب وزينة وتفاخر ومتاع قريب من متاع الحيوان. . فيجيء المنهج الإلهي لتصحيح العقائد وإثبات أن تلك الحياة الدنيا هي معبراً إلى حياة أخرى هي الموعد الحق تتواصل بالجهد والسعي والوثوق في الله وبيان الحكمة الحقيقية من خلق ذلك الخلق. . تلك هي العبادة. . وتصديقاً لقوله تعالى في سورة الذاريات ٥٦ : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾، وفي سورة الملك ٢ : ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾.

جاء ليعيد للإنسان معنى الحياة وأهميتها بالمقارنة بما كان سائداً في المجتمعات العربية من استهانة بها ودمرتها الحروب المتصلة بين القبائل، وفي وأد البنات وقتل الأنفس. . يجيء الإسلام ليضع للحياة قيمها ويجعل لها معنى ومغزى لدرجة أنه يذهب في تشريعاته إلى تشديد العقوبة على جريمة قتل النفس ويؤكد حق القصاص، بل يذهب إلى أبعد من ذلك بأن ﴿مِن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾ سورة المائدة ٣٢، ذلك هو تقدير الإسلام للحياة وحفظ الأنفس وذلك في حد ذاته يعتبر قيمة خلقية فقتل النفس أو إيذائها يعد جريمة يعاقب عليها القانون[1].

١ - الفضائل الخلقية في الإسلام، مرجع سابق.

ونراه يحث الإنسان على التفكر والتدبر ويوضح أن الموت والحياة والخير والشر محك الاختبار فيها، بل ويحمل عن ذهن الإنسان إجابات لتساؤلات دارت أو تدور في الخلد وكانت تبعث على التشاؤم والملل لتضع العدل وميزانه في تصوره الحق بأن كل شيء خلق بقدر وتقدير ولغاية وهدف، وليس ذلك بالعبث - يقول تعالى في سورة القمر ٤٩ : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾.

ولايترك الناس سدى بعد أن يمن عليهم بالايجاد فيرسل الرسل لهدايتهم وتزكيتهم ويعلمهم ما في الكتاب والحكمة لاستقبال حركة الكون عن وعي وبصيرة ويهديهم لأشياء لاتهتدي إليها الفطرة مع وجود الشيطان فيصرح بالاستقامة، ويسوق (تعالى) القصص والأخبار التي لم نعيشها بوقتنا فيسردها للعظة والعبرة وللتدليل على أن عنصر الزمن في الحياة قد دخل فيها وارتبط ارتباطاً وثيقاً بالعقائد الصالحة أو العقائد المنحرفة، وزوال هذه وبقاء تلك، وتلك الحضارات التي فنيت، وما سبب فنائها فكأن عنصر الزمن في الحياة مهم جداً في مسيرتها ولذا يجب -بل ينبغي- أن ننظر إليه باهتمام فهو الذي يجعل لحياة الإنسان قيمة ومعنى لأن الإنسان قد يتنفس ويتغذى ويتناسل ومع ذلك كله لايعد حياً. . فشرط الإنسان الحي أن يكون على وعي كامل بمنهج الحياة. . ذلك المنهج القيمي الذي يحدد دوره فيها. . فلا يتغافل الإنسان عما يدور حوله وبما تعتلج به نفسه ثم يقف أمام ذلك كله موقفاً سلبياً. . لأنه إن فعل ذلك لما تغيرت الدنيا على يديه.

وإذا كان عمر الإنسان في الحياة هو الوقت الذي يحياه. . لكن هناك فرق بين من يحياه بفاعلية ونشاط. . ومن يحياه بكسل واعتباط. . فالإنسان محاسب عليه يوم القيامة.

وقد أخرج بن عبدالبر في جامع العلم ج٢ ص٣ عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله (ﷺ) قال :

«لاتزول قدما العبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع! عن جسده فيما أبلاه، وعن عمره فيما أفناه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن علمه كيف عمل فيه».

وبلفظ آخر لاتزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيما أفناه وعن عمله فيما فعل فيه وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه»[1].

فمعرفة عنصر الزمن وتقدير خطورة الوقت معرفة إلزامية بحكم العقيدة وتتعدى تلك المعرفة إلى العمل بفاعلية وحسن الانتفاع به والاتعاظ بالزمن. . ذلك لأن كل مفقود عسى أن يسترجع إلا الوقت إن ضاع منا لم يتعلق بعودته أمل ولارجاء.

وصدق الرسول (ﷺ) حينما قال : [نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس. الصحة والفراغ][2].

---

١ - رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

٢ - حديث حسن صحيح.

ولنعلم جميعاً أن من ينشد لنفسه السعادة ويبحث عنها في الثروة العريضة والطعام الغزير والمسكن المريح ويطلبها في أسباب الراحة والخمول. . يعطل الحياة عن سيرها نحو هدفها المنشود ويهدم بنفسه فاعليته فيها. . فإذا كان اللهو والعبث فاعلية حركة إلا أنه ليس بفاعلية إنتاج، وحينما تصبح الفاعلية فاعلية إنتاج. . يفتح الوقت آفاقاً جديدة للإنسان سواء في التطلع إلى الكمال أو المعرفة وبذا يكون الإنسان قد أحسن استخدام وقته فيما ينفع نفسه وينفع البشرية جمعاء. . ويكون بذلك قد أضفى على وجوده معنى الحياة، ومن ثم فقد جاء الإسلام ليعلي من شأن الحياة دون الاغترار بمباهجها. . فأدرك المسلمون الأوائل تلك الحقيقة وأهمية عنصر الزمن في تثبيت أركان العقيدة فأبدعوا في الحرب والسياسة والفكر والأدب وكانوا على وعي مقرون بالإيمان السليم وبماهية الحياة فوق تلك الأرض الطيبة. . كان المسلم شديد الفاعلية في التأثير عن حق فيما حوله. يحمل بين جنباته قلباً عامراً بالإيمان وفي يده سيفاً مرهباً يقطع به من الزمن آفاق وآفاق. . فكتب له الزمن البقاء.

فيا أخي. . لاتكن في الحياة كمن يقف على جانب الطريق ينظر لركب الحياة ولايسهم في دفعه. . إن كنت كذلك. . فلست حياً. . كذلك الذي يحاول الرجوع بتيار الحياة إلى الوراء ليعود به من حيث بدأ. . ليس حياً. . الحي يقود ولاينقاد. . يكون متبوعاً ولا تابعاً، وأن من يعيش في الحياة لتحقيق مثل أعلى في سبيل عقيدته ووطنه وأمته أو في سبيل خير الإنسانية جمعاء تبدو الحياة في نظره لها معنى وعمقاً. . وحين يكون ذلك. . تصبح الحياة ابتكاراً وخلقاً وإبداعاً وأمناً وأماناً. . فليس كل إنسان يعيش على الأرض إنسان. . إنما الإنسان هو الذي تخلقه آيات من الكفاح فإما أن يرتفع إلى المستوى اللائق به أو يخفق فيهبط إلى أحط درجات الإنسانية. . ليصبح من تلك النفايات الذابلة الذين يجرون أذيال الخزي والعار للإنسانية جمعاء. . ويحاولون العودة بالحياة إلى سيرتها الأولى. . سيرة هابيل وقابيل ذلك هم شر البلية، ومن ثم نرى أن من واجبنا نحوهم أن نقدم لهم النصح لتصحيح مسار حياتهم وفق أصول قيمية هادية لعل وعسى أن يرتد لهم إيمانهم بالحي والمحيي في ذلك العصر الذي تتصارع فيه معان الحياة بين الإيمان والشك. . بين الروح والمادة. . بين الأمل والقنوط. بل يجب أن يكون للجماعة الإسلامية دور توجيهي حاسم نحو عقيدة لاتخطىء الملاذ ليتعمق بتلك الأصول القيمية في النفس البشرية معنى الألوهية ومعنى الربوبية واتصاف الذات بصفات الكمال. . وماتوحي إليه من أصول قيمية لمحاولة الارتداد بالإنسان إلى عالم المثل متشوقاً ومهتدياً.

وقبل أن نختتم مبحثنا عن الحياة سنتكلم عن الحياء باعتباره قيمة، وباعتباره أيضاً عنصر قيمي في الحياة لتعميق معناه في النفس البشرية التي هي في أشد الحاجة إليه.

فمن رحمة الله بخلقه. . وكما أعطانا الحياة بلا مثل أو عوض. . أعطانا الحياء كمقوم

أساسي للحياة لاتقوم بدونه . . فهو ذلك الأمر الوحيد الذي يحفظ علينا ماء وجوهنا . . فحياة بلا حياء تساوي في نظر العقلاء هباء.

فإذا كان كل من الحياء والحيا مأخوذ من الحياة . . فذلك لأن الأول فيه حياة القلب والثاني فيه حياة الأرض . . ولذا سنعمد في هذا المقام إبراز قيمة الحياء.

عن قيمة الحياء في الحياة

الحياء في اللغة هو تغير وانكسار يعتري الإنسان لغير مايعاب عليه أو يعاتب به.

وشرعاً . . هو خلق يبعث على تجنب القباحة ويحض على فعل الخير ومجانبة التقصير في حق ذي الحق، فالحياء من الإيمان . . ومن لا حياء فيه لاخير منه.

والحياء وإن كانت تتعدد ضروبه بتعدد مظاهر الحياة منذ خلق الله آدم وحواء . . فهناك حياء جناية، وحياء تقصير، وحياء إجلال، وحياء إنعام، وحياء حشمة، وحياء كرم، وحتى حياء استحقار، وسنحاول تناولها جميعها بالتوضيح لأهميتها.

عن حياء الجناية :[1]

ذلك هو حياء آدم - عليه السلام - حينما قيل له «أفراراً منا . . فقال : لا»، «بل حياء منك».

عن حياء التقصير :

ذلك هو حياء الملائكة حينما قالوا لله سبحانه وتعالى :

﴿سبحانك ماعبدناك حق عبادتك﴾.

عن حياء الإجلال :

ذلك هو حياء إسرافيل - عليه السلام - حينما تسربل بجناحه حياءاً من الله عز وجل.

عن حياء الأنعام :

فذلك هو حياء الرب سبحانه وتعالى حينما يدفع إلى العبد كتاباً مختوماً بعد عبوره الصراط مكتوب فيه : «فعلت ما فعلت وقد استحييت أن أظهره عليك فاذهب فإني قد غفرت لك».

عن حياء الحشمة :

فهو الذي تمثل في علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) حين سأل المقداد بن الأسود ليسأل رسول الله (ﷺ) عن حكم خروج المذي لمكان فاطمة (رضي الله عنها) من الرسول.

---

١ - انظر الرسالة القشيرية للإمام أبي القاسم عبدالكريم القشيري - الجزء الثاني ص ٤٥٧ ومابعدها، تحقيق الدكتور عبدالحليم محمود، ومحمود الشريف.

وحياء الاستحقار :

كموسى عليه السلام حينما قال : «إني لتعرض لي الحاجة من الدنيا فأستحي أن أسألك يارب». فقال له عز وجل : [سلني عن ملح عجينك وعلف شاتك].

أما حياء الكرم :

فذلك هو الذي تمثل في رسولنا الكريم (ﷺ) فقد كان يستحي من أمة الإسلام الأولى وهم في مجلسه أن يقول لهم «اخرجوا» فقال عز وجل : ﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ . كذلك فإن الله حي كريم يستحي من عبده إذا رفع إليه يده أن يردهما صفراً.

وتعالوا معاً نشهد درساً محمدياً في معنى الحياء، وبغض النظر عن غرابة الحديث.

أخرج الطبراني في الأوسط عن عائشة رضي الله عنها قال : قال رسول الله ﷺ على المنبر والناس حوله :

«أيها الناس استحيوا من الله حق الحياء فقال رجل، يارسول الله انا لنستحي من الله تعالى؟ فقال من كان منكم مستحيياً فلا يبتن ليلة إلا وأجله بين عينيه، وليحفظ البطن وماوعى والرأس وما حوى، وليذكر الموت والبلى وليترك زينة الدنيا»[1].

وجاء بلفظ آخر عن ابن مسعود رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال ذات يوم لأصحابه «استحيوا من الله حق الحياء، قالوا : انا نستحي يانبي الله، والحمد لله. قال: ليس ذلك، ولكن من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وماوعى، وليحفظ البطن وماحوى، وليذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء»[2].

وإذا كان الشعور بالحياء كما يراه فرويد شعور فطري يظهر مبكراً في الإنسان ثم يتحول الحياء إلى خجل والشعور بالإثم.. فليس ذلك إلا لأنه فقد معنى الخشية والاتقاء.. فغياب الحياء يتبعه تسيب الميول والرغبات وانفلاتها ومن ثم يتوقف أو يتعطل كل عمل ملتزم سواء كان عبادة أو معاملة، لكن إذا أحكم بالخشية والاتقاء لفظ العنصر السلبي فيه وأصبح يحفظ ويصون ومن ثم يكون له دور إيجابي في الحياة باعتباره باعثاً قوياً على العمل الصالح سواء الخلقي أو التعبدي.

يقول الرسول (ﷺ) [الحياء لايأتي إلا بخير][3].

---

١ - رواه الترمذي عن ابن مسعود بنحوه وقال حديث غريب، وكذا في الترغيب ج ٥ ص ٢٠٠

٢ - حديث صحيح أخرجه أحمد في مسنده والترمذي في سننه والحاكم في المستدرك والبيهقي في الشعب.

٣ - متفق عليه.

فما أحوجنا إلا أن نتفهم معنى الحياء ودوره في الحياة كمقوم أساسي فيها . . فحياة بدون حياء ليس لها معنى . . اللهم إلا إذا كنا على بوادر عصر جاهلي . . ذلك ماترفضه الأحداث .

ولكي يتعمق مفهوم الحياء وأهميته كقيمة خلقية ، وكزاجر فطري في الإنسان نقول بأنه قيل في قوله تعالى عن قصة يوسف وإمراة العزيز: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ فقد قيل في البرهان «إن إمرأة العزيز ألقت ثوباً على وجه صنم في زاوية من زوايا مكان الاضطجاع حياء من ذلك الصنم . . فقال لها يوسف عليه السلام : [ماذا تفعلين] . . قالت: استحي منه ، قال يوسف عليه السلام . . [أنا أولى منك أن أستحي من الله تعالى] .

وقيل كذلك عن قوله تعالى : ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ إنما استحيت منه لأنها كانت تدعوه إلى الضيافة فاستحيت أن لا يجيب موسى دعوتها . . ذلك لأن صفة المضيف الاستحياء . . ذلك هو استحياء الكرم أيضاً .

ولقد روى في الحديث الشريف عن أبي سعيد الخدري أن الرسول (ﷺ) [كان أشد حياء من العذراء في خدرها فإذا رأى أي شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه][1] .

وتؤكد السيدة عائشة – رضي الله عنها – بقولها عنه ﷺ في الحديث الذي أخرجه الترمذي في الشمائل [مانظرت إلى فرج رسول الله ﷺ أو مارأيت فرج رسول الله ﷺ] .

ويقول (ﷺ) إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى (إذا لم تستح فأصنع ماشئت) .

ولايبقى لنا في مقام قيمة الحياء إلا أن نشير إلى ذلك الرجل الذي كانت تستحي منه الملائكة بشهادة أعظم رسول . . ذلك هو عثمان بن عفان (رضي الله عنه) . .

ففي الحديث الذي رواه الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما والذي قال : (بينما رسول الله ﷺ جالس وعائشة رضي الله عنها وراءه إذ استأذن أبو بكر رضي الله عنه فدخل ثم استأذن عمر رضي الله عنه فدخل ثم استأذن سعد بن مالك رضي الله عنه فدخل ثم استأذن عثمان بن عفان رضي الله عنه فدخل ورسول الله ﷺ يتحدث كاشفاً ركبته فرد ثوبه على ركبته حين استأذن عثمان وقال لإمرأته استأخري! فتحدثوا ساعة ثم خرجوا فقالت عائشة يانبي الله! دخل أبي وأصحابه فلم تصلح ثوبك على ركبتك ولم تؤخرني عنك! فقال النبي ﷺ «ألا استحي من رجل تستحي منه الملائكة! والذي نفسي بيده! إن الملائكة لتستحي من عثمان كما تستحي من الله ورسوله» ورغماً من أن الحديث وسنده ضعيف كما أشير إلى ذلك في حياة الصحابة للكاندهلوي بالجزء الثاني ص ٣٧٨ ، إلا أنه يكشف عن أهمية الحياء في السلوك ، وأنه من أهم دواعي الألفة بين الناس ، فلولاه لأكل الناس بعضهم بعضاً .

أما مفهوم الحياء وارتباطه بالعفة فواضح وظاهر وجلي . . وتلك صورة نادرة من التراث

---

١ – متفق عليه .

الإسلامي الأصيل. . لانقصها بالكامل بل نلمح لمعناها الذي علق بالذاكرة منذ وقت طويل ونخشى أن تخوننا الذاكرة في السرد والإسناد.

تلك قصة إمرأة رفضت أن تلبس ثوبها المرصع بالجواهر والياقوت لأن عين الغرباء قد وقعت عليه فتأمر ببيعه ليستفاد بثمنه في عمل خيري خشية أن يتعدى الاشتهاء فيه إلى اشتهاء لصاحبته. . ذلك قليل من كثير.

عن العناصر القيمية للحياة

١ - الإيمان.

٢ - الحياء.

٣ - الزمن.

٤ - الحب.

٥ - الخير.

٦ - الخلق والإبداع.

معيار الحياة في الإسلام أوسع معيار. يهدف للتكامل وينبذ الفرقة والأنانية، يجعل للإنسان حرية الاختيار وفق إطار قيمي لتسمو الحياة في ظله فيرى فيها الإنسان معنى للوجود.

فحياة بلا إيمان تصدع. . وحياة بلا إرادة موت بطيء. . وحياة بلا حياء بداية لنهاية مفجعة. . وحياة بلا حب قهر وقبر. . أما الخير في الحياة فهو الأصل.

أما عن الحب فبه تسمو النفس وتصان العلائق ويرتقي الإحساس في مدارج القيمة والفضيلة.

أما عن عنصر الزمن. . فذلك هو السيف الذي إما أن يعطيك معنى الخلود، وإما أن يقبرك في خلايا الدود.

أما الخلق والإبداع فبهما حلاوة الوجود.

فإذا تفهمنا تلك العناصر القيمية مع ماسوف يذكر من قيم فأنت حي. . ذلك لأن حياتك تقتضي منك أن يكون لك علم، وأن يكون لك حكمة، وأن يكون لك وسع وطاقة.

عن عناصر التوازن للحياء

١ - الرقابة.

٢ - الحفظ.

٣ - الخوف.

٤ - الخشية.

إذا كان الحياء ضرب من التحفظ، إلا أن الرقابة في أعلى درجاتها تعد صيانة إذا لازمها إشراف وتوجيه.

فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الرقيب والحافظ.. فرقابته ليست رقابة تسلط أو إجبار.. بل رقابة محفوفة بالإشراف والتوجيه.. تلك هي القيومية فذلك هو منهجه فلايغيب عنه شيء في السماوات والأرض، بل كل شيء موكل إلى ملك يحرسه ويحفظه.. بل واستودع كل شيء سبب بقائه إلى أجل مسمى.. فلا شيء يضيع أو يتلف.

وصدق تعالى حينما قال في سورة ق -١٨ : ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾، وفي سورة هود - ٥٧ ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾.

وفي سورة يوسف - ٦٤ ﴿فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِين﴾.

كذلك نرى أن حفظ الإيمان مأمور به، وكذلك المحافظة على الصلوات الخمس - كما في قوله تعالى في سورة البقرة - ٢٣٨ : ﴿حَافِظُوا عَلَىٰ الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الوُسْطَىٰ وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ﴾.

فيجب أن توحي رقابة الله وحفظه لنا بأهمية الحياء الفطري في الإنسان وليظل مصدراً من مصادر الخوف الذي يبعث على الاتقاء، وليس الخوف الذي يبعث على الانتهاء والخجل.

فإذا ما أصبح الاتقاء مصدره خوف وخشية من الله بعد عن الجبن أو الخجل وأوصلنا إلى مرحلة من الورع والتقوى تؤدي بالإنسان إلى غض الطرف عن المحرمات وصون الجوارح عن العبث بأعراض الناس والابتعاد عن الفحش صوناً لحياءنا الذي يهدي إلى الخير، ومن ثم يبين أثره في الحياة كمقوم أساسي لاتجلبه اصطلاحات عقيمة أو تخرجه عن مضمون مهمته الأساسية في الحياة كمقوم ذاتي ورادع نفسي.

ولو حاولنا تتبع أقوال الرسول (ﷺ) بالنسبة للأسمين الشريفين الحفيظ والرقيب نراه (ﷺ) يقول عن الصلاة باعتبار أنها أول مايجب على المسلم المحافظة عليها وباعتبار أنها أول مايحاسب عليه العبد يوم القيامة، ومردودها على الإنسان

(من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نور ولابرهان ولانجاة، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف).

ولأهمية الصلاة والمحافظة عليها.. كانت هي آخر وصية يقولها (ﷺ) وهو يلفظ الأنفاس الشريفة والأخيرة من حياته فيقول (ﷺ) [الصلاة... الصلاة... وما ملكت أيمانكم].

وكان ذلك تأكيداً منه (ﷺ) لما جاءه من الحق في قوله تعالى: [إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً]، فهي الصلة الوثيقة بين العبد وربه، وهي الحافظة والمؤكدة لحياء الإنسان المسلم، فإن صلحت صلح سائر عمله وكثر حياؤه، وإن فسدت فسد سائر عمله وقل حياؤه.

ومن أثرها في السلوك.. نسوق تلك الوصايا الخالدة خلود الدهر والأبد في مقام عنصر التوازن القيمي للحياة.

فلقد ثبت عن الرسول (ﷺ) في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال:

[لايزني الزاني حين يزني وهو مؤمن. ولايسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولايشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولاينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس اليه أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن].

وجاء بلفظ آخر في الحديث المتفق عليه [لايزني الزاني حين يزني وهو مؤمن].

وجاء بلفظ آخر في الحديث المتفق عليه [لايسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن].

وصدق الرسول (ﷺ) حينما قال في الحديث الذي رواه أبي هريره رضي الله عنه: [الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان].

ومن هنا يجب الإيمان بالحي والمحيي باعتبارهما اسمين شريفين من أسمائه الحسنى، وأهمية الحياة والحياء وباعتبارهما قيمتين ترتد للعقيدة وتستقي منها معانيها.

والحمد لله رب العالمين

الرحمن والرحيم [وقيمة الرحمة]

الرحمن والرحيم من أسماء الله الحسنى وصفاته العليا، فالرحمن دال على الصفة القائمة به -سبحانه- أما الرحيم فدال على تعلق الصفة بالمرحوم وهو المخلوق.

سمى الله تعالى نفسه بالرحمن على سبيل الامتنان باعتباره رحمان الدنيا والآخرة، أما اسمه الرحيم، فيدل على الرحمة الخاصة بعباده المؤمنين التي أوجبها تعالى على نفسه في قوله ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، وقوله تعالى ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾. الأولى في سورة الأعراف والثانية في سورة الأنعام.

ورحمة الامتنان هي التي تنال من غير استحقاق، وبها يرحم الله من وفقه للعمل الصالح الذي أوجب له الرحمة، وأيضاً التي ينال بها العاصي وأهل النار إزالة العذاب عنهم، وإن عدت مسكنهم وجهنم دارهم.

أما عن رحمة المؤمنين التي أعطتهم التوفيق والهداية في دار التكليف فهي رحمة عناية.

ولما كان الرحمن (تعالى) قد جعل الرحمة قطعة منه ومن ثم لاتنسب الرحم إلا إليه، ونراه قد وصف نفسه بأنه خير الراحمين من باب المفاضلة، ومن ثم فحين يرحم الإنسان أحداً من خلقه فإنه يرحمه بالرحمة التي أوجدها الرحمن فيه.

يقول تعالى في الحديث القدسي الذي أخرجه الترمذي (رضي الله عنه) عن رسول الله (ﷺ) [أنا الله، وأنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققت لها من اسمي فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته].

وروي بألفاظ أخرى [أنا الرحمن، وهي الرحم، شققت لها اسماً من اسمي من وصلها وصلته، ومن قطعها بتته]. و [الرحم شجنة من الرحمن من وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله].

وجاءت الرحمة في القرآن الكريم على عشرين وجهاً، أو معنى :

١ - الرحمة بمعنى القرآن، قال تعالى في سورة الإسراء : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٢ - بمعنى سيد الرسل، قال تعالى في سورة الأنبياء ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.

وقال (ﷺ) في الحديث الشريف [إنما أنا رحمة مهداة].

٣ - بمعنى توفيق الطاعة والإحسان، قال تعالى في سورة آل عمران ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾.

٤ - بمعنى نبوءة المرسلين، قال تعالى في سورة الزخرف ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾.

٥ - بمعنى الإسلام والإيمان، قال تعالى في سورة البقرة ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

٦ - بمعنى نعمة العرفان، قال تعالى في سورة هود ﴿وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾ أي معرفة من عنده.

٧ - بمعنى العصمة من العصيان، قال تعالى في سورة هود ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾.

٨ - بمعنى أرزاق الإنسان والحيوان، قال تعالى في سورة الإسراء ﴿لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾.

٩ - بمعنى المطر، أو قطرات ماء الغيثان، قال تعالى في سورة الشورى ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾.

١٠ - بمعنى العافية من الابتلاء والامتحان، قال تعالى في سورة الزمر ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾.

١١ - بمعنى النجاة من عذاب النيران، قال تعالى في سورة النور ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾.

١٢ - بمعنى النصر، أو النصرة على أهل العدوان، قال تعالى في سورة الأحزاب ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾.

١٣ - بمعنى المودة، أو الألفة والموافقة بين أهل الإيمان، قال تعالى في سورة الحديد ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾.

١٤ - بمعنى الكتاب المنزل على موسى بن عمران، قال تعالى في سورة هود ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَاماً وَرَحْمَةً﴾.

١٥ - بمعنى الثناء على المرسلين وأهل بيت إبراهيم، قال تعالى في سورة هود ﴿رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾.

١٦ - بمعنى الاستجابة. والإجابة لدعوة زكريا وابتهاله إلى الله قال تعالى في سورة مريم ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾.

١٧ - بمعنى العفو العام عن ذو الخطيئة والعصيان، قال تعالى في سورة الزمر ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ﴾.

١٨- بمعنى فتح أبواب الروح والريحان، قال تعالى في سورة فاطر ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾.

١٩- بمعنى الجنة باعتبارها دار السلام والأمان، قال تعالى في سورة الأعراف ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

٢٠- بمعنى المغفرة، قال تعالى في سورة الأنعام ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾.

هذه هي الأوجه أو المعاني التي وردت عن الرحمة في القرآن[1].

ولم تكن هذه الآيات فقط، بل وردت آيات أخرى وفي سور أخرى تحمل نفس المعاني والأوجه المذكورة.

ولما كانت رحمة الله تعالى هي رحمة عامة تظلل الكافر والجاحد، المستحق وغير المستحق، المحتاج وغير المحتاج، إلا أنها للمؤمنين خاصة يكشف بها الضر عنهم ولايؤاخذهم بالأعمال الصادر ة منهم عن إكراه أو خطأ أو نسيان، فرحمته سبحانه وسعت كل شيء، إذا كان الله (تعالى) يرزق المؤمن والكافر ويمن على الجميع بالصحة والعافية، لكنه تعالى لايمن بنعمة الإسلام والإيمان إلا لمن أطاع أمره وامتثل تركه ونهيه وهي كما قال قريب من المحسنين.

وإذا كان عصر النبوات قد انتهى، إلا أن عصر الهداية باق طالما هناك إسلام وإيمان وعصمة واعتصام، وقلوب ملؤها الرحمة وفاض بها ود المودة.

ولو أمعنا النظر في القرآن الكريم لوجدنا أنه جاء ذكر «رحم» ومشتقاته ثلاثمائة مرة بالقرآن الأمر الذي يدل على اتساع المساحة التي تشغلها الرحمة فيه، وما ذلك إلا تأكيداً وتنويهاً بأهميتها في الحياة الإنسانية.. فهي تعني إما كشف ضر أو تخفيف عذاب، أو تجنبه بداءة، أو الكف عن إلحاق الضرر بإخوان الإنسانية.

ولما كان البلاء مقدراً والاختبار معين والإجارة لازمة والشفاعة واجبة فقد أوجبت الرحمة بأمر العدل الإلهي ومنطق الفطرة الطبيعي ليستقيم أمر الأمن النفسي على مبدأ التمتع بالحماية الإلهية والنصرة الطبيعية.. فإذا جاء الإسلام بقيمة الرحمة باعتبارها حقاً وخلقاً فإنه يكون قد سما بقيمة الإنسانية إلى آفاق رحبة لاتعرف الحواجز ولاتحدها الحدود.. فمنطق الفطرة الطبيعي يحكم علائق الود ويملي على الإنسان أن يؤدي حقوق الله، خاصة إذا كانت هذه الحقوق

---

١ - انظر منتخب قرة العيون النواظر في الوجوه والنظائر في القرآن الكريم لابن الجوزي، مرجع سابق تحقيق ودراسة محمد السيد الصفطاوي والدكتور فؤاد عبدالمنعم أحمد، ص ١٣٥-١٣٨، كذا القيم الإسلامية وأثرها في المجتمع لعبدالحكيم علي المغربي، ص١١٩ وما بعدها، وقد ذكر ابن الجوزي منها ستة عشر وجهاً.

ممايتعكس أثرها على الإنسان لتشجين العلائق ووصل الخلائق وتوجهها نحو عاطفة واحدة انبثقت من الوجدان للعقل، ومن العقل للوجدان بأمرها.

وحينما ننظر للرحمة بمفهوم معياري على اعتبار أنها أصل قيمي ترتد إلى خالق الكون، مع اعتبارها حقاً وخلقاً فإن مفهوم الرحمة يرتقي في الوجدان، دون أن يتلازم معها ذلك المنطق النفعي الذي يجردها من أهم خصائصها، ليجعلها لفظاً بغير معنى.. فها هو أفلاطون الذي نظر بنفس المعيار إلى ضمان قوة مدينته فاستبعد عنصر الرحمة منها، ونراه قد جردها من خصائصها التي تخلق الحماية للمعلولين وسقماء الأبدان، وكذا ذهب أرسطو مذهبه في استحسان النظر بإصدار قانون عام لعدم إعطاء أي عناية لأولئك الذين يولدون بتشويه خلقي، ثم يتابع مكيافيلي خطاهم فينصح أميره بأن لايكون رحيماً بشعبه، بل الأهم أن يقول الشعب عنه بأنه رحيم، فكيف يكون ذلك وفاقد الشيء لايعطيه؟.

فإذا كانت الرحمة في الإسلام مبادرة إلهية لتعميق الوجدان في الإنسان فيجب أن تكون مبادرة إنسانية تبرهن على سلامة الحس الخلقي فيه، دون اعتبار لمنفعة بل أن تؤدي باعتبارها أمر إلزام خلقي. وحتى لاتؤول الرحمة ومعانيها بالاصطلاحات العقيمة جاءت واضحة ومحددة بالقرآن. لو أردنا الوقوف على الجانب الخلقي الذي حملته، لرأيناه محكوماً إما بمعنى العفو العام عن ذو الخطيئة والعصيان مع وجود القدرة والاقتدار، أو العصمة بداءة من العصيان، أو المودة بين أهل الإيمان حتى ولو اختلفت المذاهب والأديان، والنصر على أهل العدوان، أو توفيق الطاعة والإحسان، وأداء حق النعمة بالعرفان.

فما أحوجنا في هذا العصر إلى قيمتها باعتبارها حقاً وخلقاً وتهدف للحفاظ على إنسانية الإنسان رغم الضعف الحكمي وغرور القوة والتسلط، لترفق به وتأخذ بيده، وتعلمه معنى الرفق والرقة.. ليس في معاملته لإخوانه في الإنسانية فقط، بل لما سخر له من الدواب والأنعام، وليتناجى بها كل مؤمن لرفع الضر عن البؤساء وإصلاح شأن الجهلاء.

السلوك التطبيقي لفهم قيمة الرحمة

الأنبياء ورجاء الرحمة :

ذلك هو آدم أبو البشر - عليه السلام - الذي نجده وزوجته حواء بعد اقترافهما الخطيئة يبوءان بذنبهما ويطلبان الغفر والرحمة فيقولان في سورة الأعراف : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

أما نـوح - عليه السلام - فقد قـال في خشوع وتضرع في سورة هـود ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ .

وأيـوب - عليـه السـلام - الـذي كان ينـاجي ربـه عن معـرفـة بقيمـة العـافيـة مع الصبر والاحتساب قال تعـالى في سورة الأنبياء ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّـهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، فَـاسْتَجَبْنَـا لَـهُ فَكَشَفْنَـا مَـا بِـهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَـاهُ أَهْلَـهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْـدِنَـا وَذِكْـرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ .

ونرى في نفس السورة عن ﴿إِسْمَاعِيلَ وإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّـابِرِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ .

فهذا هـو إسماعيل - عليه السلام- الذي عـرف عند الابتلاء المبين قيمة الصبر من قـوله في سورة الصافات ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ .

أما إدريس - عليه السلام - فقد أثنى عليه الله ثناء رحمة ، وأعطاه الأمان بالجنة .

وهـود -عليـه السـلام- ، حينما طلب الاستغفـار والتـوبـة من قـومـه ليرحمهم بـالغيثـان ، ويـزيدهم قـوة بالنصر والاعتصـام ، وخبر ذلك في سورتي هـود والمؤمنون ، وحينما كـذبوه قـال ﴿رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ . والنصر هنا بمعنى الرحمة .

وصالح - عليـه السلام - نبي ثمود الـذي أدى حق نعمة العرفـان فطلب من قومه تـوحيد الإله بالاستغفار والتـوبة في سورة هود فقال ﴿يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُـمْ إِنْ كُنْتَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ .

وهذا هو إبراهيم الخليل - عليه السلام - الـذي أخلصه الله بخالصة ذكرى الدار فكان من المصطفين الأخيار. فقد طلب من قومه اتقـاء الله والاعتبار ببداية الخلق والنشأة الأولى على قدرة الله ، وإرجاع مشيئـة العذاب ومشيئـة الرحمة لـه وحده وتفهم قيمتي الإسـلام والإيمان فأسدى النصح والارشاد لتحقيق حق الصلة الرحمية والنعمـة الإلهية بين البنوة الصالحة والأبوة العصية ، ليحمله الوجـدان الطاهر عن حمل الاستغفار عن أبيـه رحمة به ، لكنه سرعان مـاتبرأ منه بعد أن عرف أنه عدو الله ، فما قيمة الاستغفار للمشركين وأعداء الله ولو كانو أولي قربى . ؟

أمـا عن رحمة محمـد - صلوت الله وسـلامـه عليـه - فلم تكن رحمته لأمتـه إلا رحمة مهـداة للعالمين جميعاً من الرحمن الرحيم الذي قـال عنه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ ، والذي قال عن نفسـه اعترافاً بالجميل [إنما أنا رحمة مهداة] .

وهو الـذي قال ، معلماً أمتـه ومبشراً بحجته [مثل المؤمنين في تـوادهـم وتراحمهم وتعـاطفهم

كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى].

ونرى أمراً منه (ﷺ) [ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء][1].

أما عن جوانب من التجربة التطبيقية لتفهم (الرسول ﷺ) لمعنى الرحمة.

تبرز لنا جوانب من التجربة التطبيقية الحقة لضرب المثل الأعلى والأسوة الحسنة في تفهم الرسول (ﷺ) لمعنى الرحمة وليضعها في بؤرة الشعور الوجداني، الفردي والجماعي للصحابة الأجلاء لتمثلها علماً وعملاً :

يقول لأصحابه [لن تؤمنوا حتى ترحموا] فيقول أصحابه، (كلنا رحيم يارسول الله) فيقول [(ﷺ) إنها ليس برحمة أحدكم صاحبه ولكنها رحمة العامة].

فهذا توجيه تجلت صورته الإنسانية لتوسيع إطار الرحمة في الوجدان لتشمل العالم كله، ذلك لأن طبيعة الإنسان يجب ألا تعرف الحدود أو تحدها الحواجز، أو تمنعها التفرقة العقائدية، ثم نرى في سلوكه الشريف لايستثني منها إنساناً أو دابة أو طيراً، بل كانت رحمته تسع الكل فيرحم الكبير والصغير، يشفق على اليتيم والمسكين، وبالمؤمنين رؤوف رحيم.

كانت الرحمة في عرفه رفق في لين، وإعطاء السائلين، وضراعة الموقنين، وصدق المجيرين، ودعوة الضالين، وإحسان المكرومين.. وهو الذي أشار إلى أن مفتاح الجنة حب الفقراء والمساكين، وأخبرنا عنه عز من قائل بقوله ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالمؤمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

ونبرز هنا أيضاً صوراً وتوجيهات لرحمته (ﷺ).

لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت زينب بنت رسول الله (ﷺ) في فداء زوجها أبي العاص بن الربيع وأرسلت بمال ومعه قلادة سبق أهدائها لها من السيدة خديجة (رضي الله عنها) فلما رآها الرسول (ﷺ) رق لها قلبه وأشفق عليها وقال لأصحابه [إن رأيتم أن تطلقوا أسيرها الذي لها فافعلوا].. فما كان منهم إلا أن ردوا عليها الذي لها.. وهو الذي نهى عن انتهاك حرمات أهل الكتاب، فلايحل دخول بيوتهم إلا بإذن منهم، ولا ضرب نسائهم، ولا أكل ثمارهم، إذا أعطوا الذي عليهم.

ونراه (ﷺ) يعطي توجيهاً للحض على التواصل ومنع الهجر الذي يعد باباً من أبواب القطيعة ويقول [إذا فتحت مصر فاستوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحماً][2]، ذلك على

---

١ - حديث حسن صحيح.

٢ - حديث حسن صحيح، وجاء في الحديث الشريف الذي أورده مسلم باعتباره وصية من النبي (ﷺ) بأهل مصر [أنكم ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم ذمة ورحما]، وفي رواية أخرى [ستفتحون مصر وهي أرض يسمى فيها القيراط وفيها فإن لهم ذمة ورحما أو قال ذمة وصهرا].

اعتبار منه أن القبط أخوال إسماعيل بن إبراهيم الخليل - عليهما السلام - فأمه هاجر المصرية، ومنهم أخوال إبراهيم بن الرسول (ﷺ) فأمه مارية القبطية.

ويكفي يوم أن حاول المشركون في غزوة أحد اغتياله، ورأى أن خده الشريف قد شق، وسنه قد سقطت فقال له أصحابه (ادعوا يا رسول الله على المشركين) فيغلبه رفقه بهم فيدعوا لهم بالهداية ويقول [اللهم اهدي قومي فإنهم لايعلمون] وفي رواية أخرى [إنني بعثت رحمة ولم أبعث لعاناً].

ويكفي التدليل على أن الأشقياء هم الذين تنزع من قلوبهم الرحمة قوله (ﷺ) [لاتنزع الرحمة إلا من شقي]. . فالشقي إنسان تلاشى من قلبه الإيمان ولم يعرف معنى اللين والخشوع والرقة، وفهم معنى التواصل الحقيقي.

وحينما يورد لنا القرآن الكريم وصف القلوب بالقسوة والغلظة ويشبه قلوب العصاة بالحجارة لأنها غاية في المثل لخروجها عن الاعتبار، وأن المواعظ لاتؤثر فيها، يورد أيضاً ويؤكد بالمثال أن هناك من الحجارة مايتفجر منها الأنهار، ومنها مايشق عن نفسه فتخرج منه الماء، ومنها مايهبط من خشية الله، وبذلك يكون قد أعطانا صوراً حسية، إما عن موت الإحساس في الإنسان الذي لم يتدارك رحمة نفسه بالإيمان، أو صوراً حسية عن حياة الوجدان في الإنسان. . فما أحوجنا ونحن في عصر القطيعة والبوار إلى قيمة الرحمة لتملأ وجداننا بالإحسان. ولنعلم بأنه متى أجزنا الرحمة لغيرنا فقد أجزناها لأنفسنا. . فنحن أمة تلقت وحي رسول الله -ﷺ- وعرفت الله في أسمائه الحسنى وصفاته العليا، فيجب أن نتابع سيرته ونسير على دربه ونتأسى بفعله ونتمثل دائماً بدعائه الكريم في كل وقت وحين [اللهم ارحمنا برحمة تغنينا عن رحمة من سواك].

أما عن الرحمة بالنسبة لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه) :

ذلك خطاب مشهود نسمع صداه منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام ليصبح معلماً من معالم رحمة عمر بأهل رعيته. . فقد أخرج بن المنذر والحاكم والبيهقي عن بريدة قوله : (كنت جالساً عند عمر (رضي الله عنه) إذ سمع صائحاً فقال : يايرفأ انظر ما هذا الصوت، فنظر ثم جاء فقال : جارية من قريش يبتاع أمها. . فقال عمر: ادع لي المهاجرين والأنصار، فلم يمكث ساعة حتى امتلأ الدار والحجرة، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد: تعلمونه كان فيما جاء به محمد (ﷺ) القطيعة؟ . . قالوا لا. . قال: فإنها أصبحت فاشية فيكم، ثم قرأ [فهل عسيتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم]، ثم قال: وأي قطيعة أقطع من أن

تبـاع أم إمرىء فيكم وقـد أوسع الله لكم؟ ثم كتب في الأفـاق الإسلامية ألا تباع أم حـر فإنها قطيعة رحم وإنه لايحل).

وذلك اليهـودي الضرير الـذي رأه عمـر يتعثر في الـدروب ويستعطف القلـوب فقال: مـا ألجأك إلى ما أرى؟ فقـال: أسأل الجزية والحاجـة والسن، فيرق قلبه لـه ويشفق عليه ويـأخذه من يده ليـذهب به إلى منزلـه ليعطيه مـا يكفيه في يومـه.. ثم يقول: والله ما أنصفنـاه إن أكلنا شبيبته ثم نخـزله عند الهرم، إنما الصدقـات للفقراء والمساكين، والفقراء هم المسلمـون، وهذا مسكين من أهل الكتاب، ولم ينتهي الأمـر عند هـذا الحد، بل يعطي تعليماته لخازن بيت المال برفع الجزية عنه وعن ضربائه.

أما عن لقطـاء الجاهلية فيصرف لكل لقيط مـائة درهم من بيت المال، حتى لايكـون هناك داع للتشرد.

لم يتعفف يوماً وهـو أمير للمؤمنين من أن يدخل يده في عقرة البعير الأدبر ليـداويه من علته وهو يقـول: (إني لخائف أن أسأل عما به).. ونراه قـد ضرب رجالاً ولاحقهم بالـزجر والتأنيب لظلمهم رواحلهم.

ولايخفى علينا قصة المرأة التي فطمت ابنها دون سن الفطام لأن عمر كان لايفرض النفقة إلا للفطيم فـاسترسل الابن في البكـاء حتى لسـاعات متأخـرة من الليل، فعلم بـذلك عمـر وأن سبب بكاءه هو الفطـام فأمر منادياً ينـادي بألا تتعجل الأمهات في فطام أبنائهن عن الـرضاعة فإن عمراً يفرض لكل مولود في الإسلام.

هـذا هو عمـر بن الخطاب ذو البأس والعـدل، ذو الرحمة والغيرة، فلم تكن رحمتـه وعدلـه ينقصان البأس والغيرة، بل كان بأسه معواناً لرحمته وكانت غيرته معواناً لعدله.

فلماذا لاتكون الرحمة قيمـة أبدية نتبناهـا جميعاً ونؤمن بها ونتفهم معانيهـا على ضوء الكتاب والسنة، ومن ثم لانترك فقيراً نعلم بوجـوده إلا ونتعهد حاله، ودفع فقـره وعوزه بالمال أو الجاه، أو السعي له بـالشفاعة، وتخفيف وطأة من يتعذبـون في الحياة على أيدي أناس لايعـرفون معنى الرحمة.. ولنسير على درب الهدايـة لنرى مكان الـرحمة في الوجدان قـد اتسع في الإنسان المسلم ليعيش لنفسـه ولغيره، ويشعـر بشعـور من تـربطـه بهم أواصر قـربى فيمـد لهم يـد العـون والمساعدة، ويتفقد أحوالهم، ويدفع عنهم الضر ما استطاع حتى ولو كانوا في آخر الدنيا.

وبعد هـذا العرض لايسعنـا إلا التحدث عن العناصر القيميـة التي تجعل للرحمة الإنسانية مغزى ومعنى، وحتى لاتؤول مضـامينها إلى ضعـف أو خور أو ألفاظ بغير معنى.

العناصر القيمية للرحمة

لكي نفهم قيمة الرحمة يجب معرفة العناصر التالية التي وضحت من دلالة الإقران في القرآن.

فالقرآن الكريم حينما تكلم عن الرحمة تكلم عنها باعتبارها حقاً وخلقاً، وقرنها بالرأفة والتوبة، والغفر، والعزة، والبر، وذلك واضح من السياق القرآني من قوله تعالى:

[.. الرؤوف الرحيم]، [.. التواب الرحيم]، [.. الغفور الرحيم]، [.. العزيز الرحيم]، [.. البر الرحيم].

وهو إقران له دلالات خاصة في السلوك كما نرى:

معروف أن الرأفة هي شدة الرحمة، ومعروف أن الضعف البشري كائن لا محالة. فمهما أوتي الإنسان من قوة وجبروت، فهو ضعف حكمي وجبروت غروري يحتاج في النهاية إلى مرحمة.

أما عن التوبة فهي باب للرحمة يجب ألا نغلقه في وجه الذين اعترفوا بذنوبهم، لأن كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون، فتعهد هؤلاء واجب لنقوي فيهم العزائم الجادة للإقلاع عن المعاصي واستقبال باب الإنابة والتوبة، وألا نعين الشيطان عليهم نصحاً منا بالمعروف ورحمة لهم، وأن نعمل بالتوجيه الإلهي: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أما بالنسبة لعنصر الغفر، ففيه معنى الستر الذي يجب أن نستر به خطايا الذين عرفوا الطريق الصحيح للتوبة فبان سلوكهم متطابق مع شرعهم.

أما عن عنصر العزة، فيجب أن نستشرف معناها في مواقف الرحمة لتكون رحمة بعزة، تَدلل على وجود الشدة والصلابة في الحق، والضرب بيد من حديد على أيدي هؤلاء الذين لايعرفون للقيم الأخلاقية معنى ولاينقادون للنصح والإرشاد، لأن ضبط السلوك عند الجبناء ومنزوعي الرحمة وضعاف النفوس لايأتي إلا قسراً، فمعاملتهم بالشدة والصلابة رحمة بهم من معاملتهم باللين والشفقة.

أما عن عنصر البر، فمعروف أن أفضل بر هو بر الرحمة، الذي يسوي في المودة، ويمحو التقاطع والتدابر، أو الإعراض والصد، أو النأي والتباعد، أو الجفاء والغلظة.

هذه هي العناصر القيمية للرحمة التي يتحدد السلوك البشري على أساسها إذا فهمنا معناها فبدونها لايكون للرحمة الإنسانية قيمة في ميزان القيم الحقيقية، بل تصبح ألفاظاً بغير معنى وتتجرد من معاني الإنسانية.

وما أحلى تتويج الختـام من قول رب العزة والجلال إلى المطالبـة بعدم اليأس والقنوط، حتى في أحلك اللحظات وأوهن الحالات لمكان الإنـابة والتوبة والغفر والرحمة، قـال عز من قائل في سورة الـزمر ﴿يَاعِبَـادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُـوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الـذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾.

والحمد لله رب العالمين.

العلـــيم (وقيمة العلم)

العليم هو الله الـذي لا إله إلا هو عـالم الغيب والشهادة، والعليم من صيغ المبالغـة ومعناه الواسع والذي أحاط علمه بجميع الأشياء ظاهرها وباطنها، باديها وخافيها.

والعلم في اللغة، هو مطلق الإدراك سواء كان على وجه القبول والتسليم أم لا.

واصطلاحاً: هو صفـة وجودية أزلية قائمة بذات الله تعالى تتعلق بـالواجبات والمستحيلات والجائزات تعلق إحاطـة وانكشاف دون سـابق خفاء أو جهل، ومعنى ذلك أن علـم الله تعالى محيط بالأمس واليـوم والغد، بـالظاهر والبـاطن، بالخفي والمعلن في الـدنيا والآخـرة، وأن هذا العلم لم يسبق بجهل ولايعود عليـه نسيان ولايمكن أن يخالف الـواقع، فهو علم أشرق ويشرق على كل شيء. قال تعـالى في سورة فصلت: ﴿إِلَيهِ يُـرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَـا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَاتَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَاتَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِه﴾

فعلمه تعالى يتعلق بجميع الأشيـاء تعلقاً تنجيزياً قديماً، فيعلم سبحانـه وتعالى الأشياء من الأزل على ماهي عليـه، ووجودها بـالأمس أو اليوم أو غداً لايـؤدي إلى التغير في صفة العلم أو حـدوثهـا: فالمتغير والحادث هـو المعلوم لاصفـة العلم نفسهـا، قال تعـالى في سـورتي الملك والأنعـام ﴿وَأَسِرُّوا قَـوْلَكُمْ أَوْ اجْهَـرُوا بِهِ إِنَّـهُ عَلِيمٌ بِـذَاتِ الصُّـدُور، أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُـوَ اللَّطِيفُ الْخَبِير﴾، ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَافِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْـدُوه يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَافِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِير﴾.

كذلك دلل سبحانه على كمال علمه بقولـه تعالى في سورة سبأ: ﴿لاَيَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ﴾.

و قـد وصف الله تعالى نفسـه بـ عـالم وعليم وعلام، وورد ذكـر العلم في القرآن على إحـدى عشر معنى أو وجهاً[1] وهي:

١ – (العلم نفسه) باعتباره خاصية من خواصه (سبحانه) ومنه قوله تعالى في سورة هود:

﴿يَعْلَمُ مَايُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور﴾.

ذلك هو علم السـرائر والظـواهر، فلا تخفـى عليه خافيـة من الأحوال والأعمال، لأن الخالق أعلم بمن خلق.

---

١ – منتخب قرة العيون والنواظر، مرجع سابق ص ١٨٠ ومابعدها.

٢ – (الرؤية) : ومنه قوله تعالى في سورة آل عمران :

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ .

تلك هي رؤية الله تعالى للصابرين على الشدائد والمجاهدين في سبيله فلاتنال الجنة دون إبتلاء وتمحيص .

٣ – (الإذن) ومنه قوله تعالى في سورة هود : ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ . . ذلك في شأن الإعجاز القرآني الذي أنزل بوحي من الله وإظهاره كحجة قاطعة .

٤ – (القرآن) ومنه قوله تعالى في سورة البقرة – ١٢٠ : ﴿... وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ .

ذلك توجيه من الله لرسوله (ﷺ) بأنه عند مسايرة المشركين في آرائهم الزائفة، وأهوائهم الفاسدة، بعدما جاءك يا محمد القرآن وما حمله من براهين ساطعة وحجج دامغة ما لك نصر من الله ولاحفظ من عقابه . . وهنا نلمح أثر الموازنة متروك للنفس مع تحبيذ الاختيار الأصح بنوع من التلهيب والحماس، فأيهما أصح في عرف البشر، إتباع ما يثبت عليه الإنسان من العلم والحق بعدما جاءه، أو اتباع أهواء المشركين .

٥ – (الكتاب) ومنه قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿... قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾، وقد ورد ذلك في مقام التهكم وتوجيه من الله لرسوله بأن يسأل الذين أشركوا هل عندهم كتاب يمثل الحجة أو البرهان على صدق مايدعون من قول فيظهروه؟، وبأنهم مايتبعون في اعتقادهم إلا الظنون والأوهام وما هم في الحقيقة إلا كاذبون، ونستشف من ذلك أهمية طلب الحجة والبرهان في كل مايساق ويقال، وليس ذلك فقط بل أن يكون هذا البرهان وتلك الحجة بشواهد يقينية ولايكون مصدرها الظنون والأوهام، والآية في حد ذاتها تضع معياراً حقيقياً للمنهج الذي يجب أن يسير عليه كل إنسان يبتغي وجه الحقيقة .

٦ – (الرسول) (ﷺ) ومنه قوله تعالى في سورة آل عمران – ١٩ : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ...﴾ .

والآية توضح أن الدين عند الله هو الإسلام ولادين غيره وأن اختلاف اليهود والنصارى في أمر الإسلام ونبوة محمد (ﷺ) ما جاء إلا بعد علمهم بحقيقة الرسالة وبرسولها وهدفها، ولم يكن كفرهم عن شبهة فيه أو فيها، وإنما كان استكباراً وعناداً وحسداً .

٧ – (الفقه) ومنه قوله تعالى في سورة الأنبياء – ٧٤ : ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ .

والآية تحمل إخباراً عن لوط – عليه السلام – حينما أعطى العلم والفهم السديد، فقد سبق

له أن صاحب إبراهيم - عليه السلام - وآمن برسالته وهاجر معه فأتاه الله حكماً وعلماً وأوحى إليه وجعله نبياً وخصه إلى أهل «سدوم» لسوء خلقهم وسلوكهم المشين بفعل اللواط وقطع السبيل. أيضاً نستشف من الآية كيف كان جزاء الاتباع في النهج، وكيف تبرأ الذين اتبعوا الرسل من الذين اتبعوا أهواءهم وارتكبوا المنكر.

٨ - (العقل) ومنه قوله تعالى في سورة القصص - ٨٠ : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ... ﴾.

وذلك في شأن قارون وقصة الطغيان الذي أورثه له المال والذي قال عنه بأنه استحقه عن معرفة بوجوه المكاسب المتعددة وإرجاع الفضل لنفسه دون اعتبار للمنعم الحقيقي، ودون المحافظة على الشعور الإنساني بإظهار الفخفخة والأبهة المدعومة بالغطرسة لأنه صاحب مال وجاه، وتمنى ضعفاء الإيمان ومن تخدعهم المظاهر لطلب الحظ الأوفر من ماله وجاهه، وزجر العقلاء لهم من أهل العلم وإخبارهم بأن جزاء الله خير من المال والجاه لمن يؤمن بأن العطاء الحقيقي من الكريم والحليم والرزاق والغني والمغني وهو صاحب الفضل الأكبر، وأن مرتبة الحظ الأوفر في الدنيا لاتنال اعتباطاً بل بالعقل والإيمان بجانب العمل والصبر.

٩ - (التمييز) ومنه قوله تعالى في سورة آل عمران - ١٦٦، ١٦٧ :

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا... ﴾.

وهنا نرى بأن قضاء الله نافذ وإرادة النصر والغلبة معلقة بمشيئته لحكمته، وذلك لتمييز المؤمنين من المنافقين. فيوم أن التقى الجمعان في معركة أحد وجرى ماجرى وضعت حداً فاصلاً للتمييز بين من آمن بحق واتبع الرسول، ومن نافق وانخزل ففي الشدائد والملمات يظهر العدو من الصديق والمؤمن من المنافق ومن ثم تتضح صورة التمييز عن علم.

١٠ - (الفضل) ومنه قوله تعالى في سورة القصص - ٧٦، ٧٨ :

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لاَيُحِبُّ الْفَرِحِينَ، [... ...] ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي... ﴾، ذلك هو الغرور الخادع، والنجاح الذي سرعان مايعقبه الفشل ويصحب بأوخم العواقب للركون إلى العلم الزائف وإيثار الفضل للنفس وتجاهل المنعم الحقيقي وصاحب الفضل الأعظم.

١١ - مايعد علماً في نظر أصحابه وهو ليس كذلك لخلوه من الحكمة ونور الهداية والعلم الحقيقي. قال تعالى في سورة غافر ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾.

هذه هي الأوجه أو المعاني الواردة في القرآن بشأن العلم.

وعلاقة العلم بالمجال الأخلاقي علاقة تتمثل فيما يشتمل عليه العلم من أمثلة وحكم بالإضافة للعبر والعظات وتقديم الخبرات السلوكية التي تساعد على ترقية الخُلق الاجتماعي، ولتبعد الإنسان عن التقليد الأعمى ومغبة الجهل، وتضعه في بداية الطريق السليم للمعرفة الحقيقية لتأكيد الولاء للأصول القيمية.. فإن لم يكن العلم وسيلة إلى كل قيمة وفضيلة فكيف يكون؟.

ولما كان الله تعالى قد شبه (العلم) بالحياة والنور و(الجهل) بالموت والظلمة فأوضح بالمثال وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَاهُ لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾.

أما عن طور الإنسان في الحياة وتكوينه في الوعاء الجنيني الذي يمر بمراحل شتى فمن دور النطفة إلى العلقة إلى أجنة غير مفكرة ثم أطفالاً نحس ولانكاد ندرك ولانكاد نتخيل ثم نتخيل ولانكاد نتصور المفاهيم المجردة، ومن ثم لانعلم شيئاً من أمور الدنيا التي تفتحت أعيننا عليها إلا بالتعليم والهداية وتلك حقيقة حددها القرآن بقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاتَعْلَمُون شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، ومن ثم يصبح الدور الأساسي للعلم هو تأكيد الولاء للقيم الحقيقية.

أو تأكيد الإيمان المتشكك وتعزيز وجوده في النفس لا أن يوهمها بغير ذلك.. فإذا كان الإيمان العقلي القائم على المشاهدة والنظر والتجربة هو إيمان فقط بقيمة العلم فإن ذلك وحده لايغني، بل لايكفي عن الإيمان القلبي والتسليم. فإن قصر العلم على النظر والمشاهدة والتجربة وبعد عن التآزر الوجداني أصبح إيماناً مشوباً بالشك، كذلك الإيمان القلبي القائم على الحدس وحده لايعد إيماناً بمعناه الصحيح والملزم، ويوم أن يستقيم أمر العقل على الفطرة ويوجد الوجدان الطاهر فإن التلاحم والتآزر بين العقل والوجدان سيكون سمة الاتزان، بل يكونا دليل هداية وخير مرشد لمعرفة الحقيقة الكبرى أو الحقائق المعرفيةالأخرى.. فذلك هو إبراهيم - أبو الأنبياء - عليه السلام الذي استعمل عقله ووجدانه للوصول إلى الحقيقة الكبرى ووازن بين مارآه بعقله واطمأن له وجدانه، ومن ثم انتهى إلى أن هناك إله قائم بذاته وصفاته على أمر عباده.

فلو رجعنا إلى السياق القرآني في الآيات من ٧٤-٨٣ من سورة الأنعام لوجدنا:

﴿وإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وليَكُونَ مِنَ المُوْقِنِينَ، فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الآفِلِينَ، فَلَمَّا رَأَىٰ القَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لإِنْ

لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ، فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ، إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وفي هذه الآيات الكريمات نرى أن العمليات الفكرية قد أخذت من إبراهيم -عليه السلام- مأخذها من إبصار ثم مقارنة وتمييز ثم يحود وينتظر ثم يتدارك إلى أن ينتهي أمره بالتسليم. كهذا يكون العلم. فإذا كانت مظاهر الكون قد أمدت عقله بها يعقله إلا أن بداية الكون قد أمدته بها يؤمن به. فاعتهاده الكلي في المعرفة لم يكن قاصراً فقط على إدراك الملموس والمشاهد بل كان له من الوجدان دليل بالرؤية والتمييز.

العقل والوجدان في القرآن

حينها نزل القرآن لدعوة الناس إلى الإسلام وتكليفهم قبول تعليمه وهدايته كان يقيم العقل حكماً بينه وبينهم فأورد الآيات وفصلها، ونوه بالقصص للاعتبار والتذكر وقال:

﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾، ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَلْبَابِ﴾.

وتكرر القول بعبارة ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ في أكثر من سورة حتى بلغت أكثر من عشر مرات في صور من التوبيخ والتعجب.

ولما كان العقل هو مادة الفهم وينبوع الحكمة والعلم فقد حظي بمنزلة كريمة ومناشدة مستهدفة وجاء ذكره باعتباره خصوصية للعلم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي أوتوا «العقل» بل وأصبح مدار التمييز بين التكليف وسقوطه، وجاءت مخاطبته مخاطبة مكثفة بعد أن بان الانفصام بين الكيانات الإدراكية بين العقل والوجدان في شريحة ممثلة في أهل القرى الذين ألفوا رحلة الشتاء والصيف وحسبوا المال بالجمال ووأدوا البنات وانتزعت الرحمة من وجداناتهم وحسبوا حساب الدنيا بالعقل المحض، فما هو ذلك العقل؟.

تعريفه:

قيل بأن العقل هو العلم بالمدركات الضرورية وذلك نوعان[1].

أحدهما يقع عن درك الحواس، والآخر ما كان مبتدأ في النفوس.

فأما ما كان واقعاً عن درك الحواس فمثل المرئيات المدركة بالنظر، والأصوات المدركة

---

١ - الخلق الكامل، محمد أحمد جاد المولى، الجزء الرابع ص ٣٨ ومابعدها.

بالسمع والطعوم المدركة بالذوق، والروائح المدركة بالشم، والأجسام المدركة باللمس، فإذا كان الإنسان ممن لو أدرك بحواسه هذه الأشياء لعلم ثبت له هذا النوع من العلم؛ لأن خروجه في حال تغميض عينيه من أن يدرك بهما ويعلم لايخرجه من أن يكون كامل العقل من حيث علم من حاله أنه لو أدرك العلم[1].

وأما ما كان مبتدأ في النفوس فكالعلم بأن الشيء لايخلو من وجود أو عدم وأن الموجود لايخلو من حدوث أو قدم وأن من المحال اجتماع الضدين وأن الواحد أقل من الاثنين، وهذا النوع من العلم لايجوز أن ينتفي عن العاقل مع سلامة حاله وكمال عقله، فإذا صار عالماً بالمدركات الضرورية من هذين النوعين فهو كامل العقل.

وسمي العقل بذلك تشبيهاً بعقل الناقة، لأن العقل يمنع الإنسان من الإقدام على شهواته إذا قبحت، كما يمنع العقل الناقة من الشرود إذا نفرت، ولذلك قال عامر بن عبدالقيس (إذا عقلت عقلك عما لاينبغي فأنت عاقل).

وقد جاء في القرآن الكريم مايؤيد هذا القول في العقل قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾.

فدلت هذه الآية على أن العقل علم، وهذا غير مخالف في معناه لما ارتآه العلم الحديث وأهله من أن العقل مجموع ما في المرء من إحساس وإرادة وتفكير، أو أنه ملكة كسبيه تتولى ضبط الأفعال في الإنسان ضبطاً إرادياً بتدبير خاص لغرض مقصود.

أما بماذا يعرف عقل الرجل فقد قال بعض الحكماء؟ :

(بقلة سقطه في كلامه وكثرة إصابته)، ذلك إن كان حاضراً، وإن كان غائباً فبأحد، ثلاثة أسباب:

إما برسوله: وإما بكتابه، وإما بهديته.

لأن رسوله قائم مقام نفسه، أما كتابه فيصف نطق لسانه، وهديته تدل على قدره.

أما بماذا يتم عقل الرجل؟ فقد قيل:

إذا صنع المعروف مبتدأ به، وجاد بما هو محتاج إليه، وتجاوز عن الزلة، وجازى على المكرمة، وتجنب مواطن الاعتذار.

---

١ - المرجع السابق ص ٣٩

أما لـو أردنا معرفة مـن هم أولوا الألباب فنجد الـدلالة عليهم في سورة الـزمر – ١٨ بأنهم ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ .

أمـا عن مظـاهـر العقل السليم . . فـلاشك أن العقـل السليم في الجسم السليم الخال من العيوب والآفـات وفي معرفة القيـاس والاستقراء والتمثيل ، ولاحاجـة بنا إلى شرحها لكن مـانود التأكيد عليـه أن ارتباط العقل بالـوجدان في العقيـدة الإسلامية ارتبـاط ظاهر وبَيِّنْ بـاعتبارهما كياناً واحداً فالدين الإسـلامي يحض على العلم بجانب العمل ، والرحمة بجانب العزة ، والحلم بجانب العلم ، والرأفـة والبر بجانب الرحمة ، والود لايتأتى من فـراغ بل يكون ثمرة إيمان وعمل وصفح وتسامح ولفظ الأغـراض والمنافع ، وعزة لاتقوم لها قائمـة في وجدان أي شعب إلا بفهم معنى الولايـة الحقيقية والنصرة الطبيعيـة بجانب اعتبـار القوى الماديـة والمعنويـة ، فليس هناك انفصـام بين العقل والوجـدان في الإسلام لأن مـاأسعـد الإنسان الـذي يهنأ بمقدار من عقلـه وقلبه ، فلايصدر العقل أمـراً إلا والآخر شاهداً عليه وراضياً بحكمـه ومن ثم يرى الإنسان آثار عقله طهارة القلب وإيمانه ، ومن آثار قلبه إيجاده العقل وإحسانه .

العقل بمنطق العلم الحديث :

تلتقي تعريفات العقل عند نقطـة واحدة هي أنه [العقل] اسم يطلق على فعل من نمط ذي خصائص يمكن تحديـدها وتمييـزها . . «هـو الحركة التي ينتقل بها من شـاهد إلى مشهـود عليه ومن دليل إلى مدلـول عليه ومن مقدمة إلى نتيجـة تترتب عليها ومن وسيلة إلى غايـة تؤدي إليها تلك الوسيلة وأهم كلمـة في تحديد معنى العقل هي [الحركة] فهو انتقالـه دائماً من عبارة لفظية إلى عبارة تلزم عنهـا إذا ما كنا في مجال استنباط حكم من حكم ، أو انتقاله من شـاهد محسوس إلى واقعة تترتب عليه وتتبعه إذا ما كنا في مجال نستقرىء فيـه حكم من مشاهداته ، وبالاختصار هـو أن ينتقل الإنسـان من معلوم إلى مجهـول ، ومن شـاهـد إلى غائب ، ومن ظـاهـر إلى خفي خبيء ، ومن حاضر إلى مستقبل لم يحضر بعد أمام البصر ، أو إلى ماض ذهب وانقضى ولم يعد مـرئيـاً مشهـوداً ، أي أن دوره الحقيقي هو تعقـب الحدث في الحياة إلى أسبـابـه الحقيقيـة أو إلى نتائجه . ففي حـالة تعقب الحدث إلى أسبابه يكـر راجعاً من الحدث الظاهر إلى علـة حدوثه ، أما في حالـة تعقب نتيجة الحدث ففيها يتشوف الإنسان المستقبل قبل حدوثـه . مرتكزاً في ذلك على الحدث الماثل في لحظته الـراهنة ، أمـا إذا رأينا الشيء قـد انكشف وتجلى للبصر فلا عقل في ذلك بل لا فـرق إذاً بين عاقل ومخبـول . بمعنى أن نرد الظـواهر إلى أسبـابها الحقيقية فـلا نفسر المرض بأنه خبط الشياطين وأقلام السحرة والمشعـوزين ، بل إلى الجراثيم التي أحدثته . وكذلك لانعلل سقوط المطـر إلا بظروف المناخ . وهكـذا يترتب على الربط السببي الصحيح أن نلتمس

للأشياء أسبابها ومسبباتها . . فإذا أردنا غلالاً زرعنا لنحصدها، وإذا أردنا قتالاً حملنا له السلاح بمران واقتدار[1].

أي أنه يتضمن رسم الخطوات اللازمة لبلوغ هدف ما أو رسم الطريقة المؤدية إلى هدف أردنا بلوغه مع دقة التصوير لما ينبغي أن يتخذ من وسائل لتحقيق هذا الهدف. وبمقدار ما يكون تصور الوسيلة من دقة تمكن الإنسان من السير على هداها يكون لدينا من قدرة عقلية تحقق الأهداف المرجوة والمنشودة. تلك هي النظرة العقلية التي تنظر إلى الواقع كما هو واقع ثم تبدأ في تحويره إلى واقع جديد بإرادة صلبة وعزم لايلين، ذلك لأن التغيير مرهون بالتفكير والتفكير مرهون بإرادة ملجمة بتخطيط العقل. أما إذا بدأنا التغيير بإرادة تفعل دون تخطيط فمن الذي يضمن لنا ألا يجيء الفعل تخبطاً أهوج.

ومن جماع ما تقدم نرى أن العقل بمنزلته كيان غير منفصل عن الوجدان فلو علم الناس كيف يختارون أهدافهم عن طريق العاطفة ثم يخططون بالعقل لتحقيق تلك الأهداف فيكونوا بالعاطفة قد أرادوا وبالعقل قد نفذوا كان ذلك أجدر في أن يفهموا قيمة العقل الذي أوصلهم إلى هذه الدرجة من الفهم.

ولو أردنا التدليل على أن العقل والوجدان كيان واحد غير منفصل لرأينا ذلك في قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ ومن ثم قد كانا هما «المقومان الأساسيان في بنية الثقافة العربية»[2].

كذلك القرآن عندما صور لنا العقل والوجدان صورها في صورة أفئدة فارغة في قصة موسى -عليه السلام - حيث أكد أنه لا انفصام بين عمليات كل منهما. . فقد أورد لنا صورة محسوسة عن شعور الأم وخوفها على وليدها الذي هو - موسى عليه السلام- وأهمية الوجدان المملوء بالإيمان وبالأخص بقيمة الصبر. فكيف يفرغ الفؤاد أو الوجدان؟ . . إنه يفرغ من الصبر، ويفرغ من الضراعة. . ويفرغ من الرحمة، ويفرغ من المحبة والإيثار، بل ويفرغ كذلك من العلم. . لكن كان في حالة أم موسى - عليه السلام- كان فؤادها فارغاً من الصبر وحده لولا أن ربط الله على قلبها.

قال تعالى في سورة القصص - ١٠ :

---

١ - ثقافتنا في مواجهة العصر، للدكتور زكي نجيب محمود ص ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩ بتصرف.

٢ - قصة عقل - د. زكي نجيب محمود، وانظر أيضاً مؤلفاته :
(أ) تجديد الفكر العربي ص ٣٠٩-٣١١. (ب) ثقافتنا في مواجهة العصر ص ٢٢٥ بتصرف، ولمن أراد الاستزادة الرجوع إليها.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلاَ أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقد سبقت آيات بالقرآن أرست علوم الدنيا كلها وربطها بالخشية والتواضع مع النظر بإكبار وإجلال إلى صانع الكون ومبدعه.

قال تعالى في سورة فاطر ٢٧، ٢٨ :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا، وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ، وَمِنَ النَّاسِ والدَّوَابِ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَىٰ الله مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، وقال تعالى في سورة الطارق ﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّا خُلِقَ، خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾.

ولما كان الله تعالى قد ساوى شهادة العلماء بشهادته وشهادة الملائكة تكريماً وتشريفاً للعلماء وتمييزهم عمن سواهم. وحصر التركيز بأولي الألباب وهم أصحاب العقول النيرة والأفئدة الخالية من دغل الشرك والذنوب ومن ثم فمسؤليتهم كبيرة في الدعوة إلى الله الذي كرمهم فقال تعالى في سورة آل عمران - ١٨ ﴿شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ ...﴾.

وفي معرض التذكر والمفاضلة بين من يعلمون ومن لايعلمون قال تعالى في سورة الزمر - ٩ :

﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ والَّذِينَ لاَيَعْلَمُونَ﴾.

أما عن فضل العلم ورفع مكانة حامله يقول تعالى في سورة المجادلة - ١١ :

﴿... يَرْفَعِ الله الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُم وَالَّذِينَ أُوتُو الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ...﴾.

ثم نراه يضع ضابطاً حقيقياً لمن يتنابه الغرور بمنزلته العلمية أو مهما وصل بعلمه إلى آفاق وآفاق وملأت الدنيا بالعلوم والمخترعات، يقول تعالى في الإسراء - ٨٥ :

﴿وَمَا أُوتِيتُم مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.

أما في معرض الامتنان على الإنسان يقول تعالى في سورة الرحمن - ٣، ٤ ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ، عَلَّمَهُ الْبَيَان﴾.

ذلك عن قيمة العلم والعلماء، أما أربابه من الأنبياء فذلك سليمان عليه السلام الذي خير بين العلم والمال فاختار العلم لسمو مكانته وعظم شأنه فأعطاه الله المال والملك معه، وهذا محمد بن عبدالله - صلوات الله وسلامه عليه- الذي خير بين الجاه والرئاسة والملك وترك القرآن

والبيـان فأبى وقال : [والله لـو وضعوا الشمـس في يميني والقمر في يسـاري على أن أترك هـذا الأمـر أو أهلك دونـه]. . وبهذا الاختيـار الصحيح أصبح أعلـم خلق الله، وأرحم خلق الله وأصبح قولـه علماً وفعله علماً وتقـريره علماً وسنتـه علماً، ومعيناً لاينضب ولايـزول بزوال السني والدهور، لأن الحق من ربـه وما ينفع الناس يمكث في الأرض أما غيره فيـذهب جفاء. . وهو (ﷺ) الـذي قال في معـرض تشريف العلماء واعتبارهـم ورثة الأنبيـاء [العلماء ورثة الأنبيـاء]، كذلك قال (ﷺ) [لايـزال الرجل عالماً ماطلب العلم فإذا ظن أنـه قد علم فقد جهل]. . ذلك هو الضابط التقويمي للنفس حتى لاينتابها الغرور بما وصلت إليه من علم.

ونجد أمـر منه (ﷺ) [تعلموا العلم فإن تعلمـه لله حسنه، ودراستـه تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلبه عبادة، وتعليمه صدقة، وبذله لأهله قربة].

كذلك بيَّن أن العلم فريضـة إنسانية واجبة على المسلم قبل غيره فقـال [طلب العلم فريضة على كل مسلم].

ولقـد رأينـا أنـه حينما سار على الـدرب رجـال من المسلمين الأوائل، وعـرفـوا قيمـة العلم وعناصره القيميـة ومقدار ماحض عليـه وتتاج العقل والوجـدان. ترجموا لنا حقيقـة النفس وما كـانت تعتلج به من إيمان لايتـزعـزع وعلم لايضاهي وكـان مـرجعهم الوحيـد كتاب الله وسنـة رسولـه، ومن ثم فقد برعوا في الطب والكيميـاء والطبيعيات والرياضيـات والفلسفة والاجتماع والجغرافيا والفلك والتاريخ وكان كلا منهم كأنـه موسوعة تمشي على الأرض وبين صفحاتها عزة العزيز بعقيدته، وصبر الصابر بحكمها، وحكمـة الخبير بعلمها، وبر الرحيم وعفوها، وعدل الكبير. وحلم الصغير وكل تلك المعاني القيمية.

وكما ألمحنا إلى تـوجيهات الرسـول بشأن العلم والعلماء نلمح أيضاً إلى توجيهـات الإمام علي (رضي الله عنه) في معـرض المفاضلـة بين المال والعلم، لنرى أثـر الموازنة العظيمـة الذي تـركها حينما قال لكميل بن زياد :

[يـا كميـل العلم خير من المال، العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والعلم حـاكم والمال محكوم عليه، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكوا بالإنفاق].

وفي معـرض آخر يقـول : [... ولايستحي من لايعلم أن يتعلـم ولايستحي إذا سئل عما لايعلم أن يقول الله أعلم].

وإذا كان لنـا كلمة أخيرة نقولها في معرض العلم هي : أنه إذا كـان البعض يعزي إلى العلم أسباب التـدهور الخلقي والقلق النفسي. . فليس المسئول عـن ذلك «العلم» فهو غايـة شريفة

وأصل قيمي، وقيمة متلازمة مع وقع الحياة. ، إنما الذي يعزي إليه ذلك هو وجود الخواء الديني والبعد عن الفطرة التي لوثتها المادية الغلواء، وانفصام الكيانات الإدراكية في الإنسان ومن ثم فقد أوشك أن يؤدي ذلك إلى انفصام العلاقات الترابطية، بل إلى انفصال الإنسان عن روحه وعن عقيدته التي ينتمي إليها، والتي أعطته خصائص تكريمه على أرضه.

آه من الأعماق.. لو فكر كل واحد منا بعقل واع وقلب سليم، واهتدى بفضل من الله وعلمه إلى نظرية علمية واحدة، أو وجهة نظر علمية سليمة، ونحن بالملايين فسيصبح إنتاجنا بالملايين ومن ثم نوضح على رأس الأمم والناس، ذلك لأن العلم لاينبثق من باطن الأرض كما تندفع حمم البركان من جوف الأرض، بل يكون بإعمال الفكر وقدح الذهن والمعاناة والتطلع واليقظة لتجارب الحياة والسعي الدائب في ظل عقيدة لاتخطىء الملاذ.. تحض على العلم بأوسع معانيه وترفع منزلة العقل والوجدان فيها.

كذلك لايفوتنا في هذا المقام إلا المناشدة بأهمية الاجتهاد وفتح أبوابه على مصراعيه وتعضيده، فإذا كانت المبادىء العامة والقواعد الأساسية التي أتت بها الشريعة أصبحت قضايا ثابتة ومستقرة لايؤثر فيها اختلاف الأزمنة والأمكنة، إلا أن وجود الاجتهاد لازم وضروري لتذليل كل مايعترض المسلم من مشكلات ليقدم له الحلول الصادقة وفق بدائل واختيارات تدور في فلك القيمة والفضيلة.

وإذا كان العلم بمفهوم الغرب يعني أداة للتغيير. فليصبح في المفهوم الإسلامي حكمة تلدها الألسن وخبرة يجود بها الذهن وقدرة محكومة بالتواضع والحلم، وتمييز بين الغث والثمين ودعوة إلى الأحسن والأفضل دائماً.

العناصر القيمية لفهم قيمة العلم :

١ - الإحاطة من [السميع] كما في قوله تعالى [السميع العليم].

٢ - الحكمة كما في قوله تعالى [حكيم عليم].

٣ - الخبرة كما في قوله تعالى [خبير عليم].

٤ - العزة كما في قوله تعالى [العزيز العليم].

٥ - الحلم كما في قوله تعالى [عليم حليم].

هذه هي العناصر القيمية للعلم كما ورد ذكرها في السياق القرآني (انظر عناصر التوازن القيمي في المبحث النظري)، ونضيف بأنه لكي نؤمن بقيمة العلم يجب معرفة العناصر القيمية المذكورة، لأن العلم وحده لايصبح له قيمة إلا إذا صحبته خبرة، والعلم والخبرة ليس لكل

منهما قيمة حقيقية إلا إذا جاء لنا في صورة حكمة، والعلم والخبرة والحكمة ليس لكل منهم قيمة حقيقة إذا لم يتلازما بالحس الواعي المدرك والمستجيب للإيضاح والتبيين، وبأهمية الخلق والإبداع ويتوج ذلك بالحلم والعزة.

لكن نتساءل كغيرنا ما ضرورة وجود عنصري الحلم والعزة، وهي العناصر التي قرنت بالعلم في السياق القرآني؟.. نقول إن إقران العلم بها لابد وأن يكون له حكمة فكل حرف في القرآن وضع لغاية وهدف.. فالإقران في القرآن يجب أن يهدينا إلى أكثر من دلالة ومعنى، فنحن اليوم أو غيرنا سواء بمقياس اليوم أو الأمس وحتى غداً ننظر إلى علومنا ومخترعاتنا ومعارفنا، وما وصل إليه العقل في التحصيل والإبداع سواء من إبداع فكري لإسعاد البشرية أو إبداع جهنمي لإفنائها بوسائل تدميرية.. لاشك أن كل ذلك ناتج عن قدرة العقل البشري.. وكل ذلك يدعو للاغترار.. فإذا ما وصل الاغترار ذروته دون النظر إلى ضابط قويم تمثل في الحلم الذي يتناول قضية التناول للإبداعات ذاتها أو الاختراعات أصبح العلم وبالاً على الإنسانية لأنه يقودها نحو الدمار والهلاك، ولو أخذنا اليوم مثالاً بسيطاً لرأينا أن العالم اليوم قد أوصله العلم إلى أن يتحكم في مقدرات الشعوب فبرز واحد تنطلق آلاف الصواريخ التي تحمل رؤوساً نووية لفناء البشرية وقد يكون ذلك على أثر انفعال أو تهور.. فلو قرن العلم بالحلم لأصبح له مغرى في استمرار تواصل العلم وتواصل الإنسانية وتلك قمة الحكمة في الإقران.. وقل في مثل ذلك كل ماهو ضروري للإنسان فإن لم يعامل بنظر واعتبار انتهى به إلى زوال، أو أصيب الإنسان بها لايحمد عقباه ونحن في تعاملنا حتى مع الأحجار أو في تناولنا لكل الأشياء المحيطة بنا نتعامل معها من منطلق الحلم، لكن لاندري. فحينها تطلب كوباً من الشاي أو تطلب إحضار شيء تعتبره ضرورياً يكون توجيهك لمن يؤديه لك بعبارة (بالراحة، حاسب، على مهلك، خلي بالك) فتلك العبارات تؤكد معنى الحلم المطلوب في التعامل مع الأشياء.. وإلا لو عاملنا كل الأشياء الموجودة حولنا بمنطق انفعالي وتهور لأنعكست علينا نتائج وخيمة رغماً من علمنا المسبق بحساسيتها أو بخطورتها علينا. فإذا كان القرآن يقرن العلم بالحلم فليس ذلك بعيد على منطق الألوهية وتوجيهات الربوبية.. ذلك هو المنطق الفطري الذي أكده القرآن.. ذلك عن عنصر الحلم.

أما عن الحكمة والخبرة والعزة والشكر باعتبارهم من ضمن العناصر القيمية للعلم. فذلك هو العلم الذي ينبغي أن يقال عنه علم بخبرة، علم بحكمة، وعلم بعزة، ويجب أن يوحى لمفكرينا أن الإقران في القرآن له دلالات ومعنى في السلوك، بجانب ماله من دلالات ومعنى في العبادة ونحيل القارىء إلى المباحث الخاصة بها ضمن البحث.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

العـزيـز (وقيمة العزة)

العزيـز من أسماء الله تعالى ومن صفـاته الحسنى، فهـو العزيـز المطلق الذي ذل لعـزته كل عزيز، وأخضعت له الرقاب طمعاً وخوفاً.

ويقال في اللغـة عز يعـز إذا صار عزيـزاً، وعز يعز عـزاً إذا قهر بـاقتدار على المنع والمثل من عـزيز، والعـزاز هي الأرض الصلبـة لامتنـاعها على الحافـر بصـلابتها كـالامتنـاع من الضيـم، والصفة بعزيـز لاتتضمن معنى القهر، لكن الصفة بقاهر تتضمن معنى العز، يقـال قهر فلان فلاناً إذا غلبه وصار مقتدراً على إنفاذ أمره فيه.

والفرق بين قـولك العزيز وبين قـولك عزيزي، أن قـولك عزيزي بمعنى حبيبي الـذي يعز عليك فقده لميل طبعك إليه، ولايوصف العظماء به.

تكرر وصـف الله بالعـزيز في القرآن الكـريم مايقـرب من تـسعين مـرة، وورد في القرآن على ثلاثة أوجه[1] أو معان هي:

١ - القوي الممتنع: ومنه قوله تعالى في سورتي الفتـح - ٧ والمنافقون - ٨ ﴿... وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾، ﴿... لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾.

٢ - العظيم: ومنه قوله تعالى في سورة هود - ٩١ ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾.

٣ - الشديـد: ومنه قـوله تعـالى في سورتي إبـراهيم - ٢٠ والتوبـة - ١٢٨ ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾، ﴿... عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ...﴾.

والعز في كلام العرب على ثلاثة أوجه هي:

١ - الغلبة: ومنه قولهم من عز بز، أي من غلب سلب.

ومنه قوله تعالى في سورة ص ٢٣ ﴿... وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾، أي غلبني فيه.

٢ - يكون بمعنى الشدة والقوة كما في قوله تعالى في سورة يس - ١٤ ﴿... فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ...﴾، أي قوينا أمره وشددناه.

٣ - يكون بمعنى نفاسة القدر: ومنه عز الشيء إذا صعب أو قل وجوده، كما يقـال أحياناً عز على نفسي غيابك، أو عز الوفاء بين الناس.

---

١ - نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه النواظر، مرجع سابق الجزء الثاني ص ٤٩.

وفي معنى نفاسة القدر أيضاً جاء وصفاً لكتـابة العزيز كما قال تعالى في سورة فصلت - ٤١ ﴿... وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَـزِيزٌ﴾ . أما إذا قيل في حق إنسان (عز فـلان) فمعناه إذا بريء وسلم من الذل والهوان .

أما عن العـزة باعتبـارها خـاصية لله تعـالى فقد جعل للمـؤمنين قدراً منهـا تكريماً لهم ، وأن عـزتهم تكمن في إعـزازهم أمـره وبأنـه تعـالى العزيـز المطلق الـذي لايـوجـد مثيل لـه أو نظير (سبحانـه) إلا أنه لايصعب الـوصول إليـه أو المثول بين يديـه . قال تعـالى في سورة المنـافقون ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

وكما ذكر العزيز في القرآن على الوجوه السالفـة الذكر، فقد ورد ذكر العزة أيضاً في القرآن على ثلاثة أوجه أو معاني هي :

١ - العظمة : ومنه قوله تعالى في سورة الشعراء - ٤٤ ﴿... وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ .

٢ - المنعة : ومنه قـوله تعالى في سورة النسـاء - ١٣٩ ﴿... أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِـزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ .

٣ - الحمية : ومنـه قولـه تعـالى في سورة البقـرة - ٢٠٦ ﴿أَخَذَتْـهُ الْعِـزَّةُ بِالإِثْمِ﴾ . وفي سـورة ص-٢ ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ .

وعلى ضوء مـاسبق نجد أن قيمة العـزة ومردودها الإيجابي على الأخلاق والسلـوك لايستهان بها . . فهي خصوصيـة لله تعالى ، وخصوصيـة للرسـول الكريـم ، وخصوصيـة للمؤمنين ، ومن خصائص التكريم الحقيقي للبشر ، لتربى الأجيال المسلمة عليها لكي لايعرفوا القهر ولايساموا بالمذلة ، وتضفي روح العقيدة على المسلم ليمشي على الأرض بقدم ثـابتة ورأسه وقلبه مشـدودين إلى السماء . . هي معيـار لخوف المشرك والجبـان . . فهم يخشـون أهلهـا ويضعـون لهم ألف حساب وحسـاب . . وليس ذلك فقط . . بل يحصل لهم من حـالات الرعب البـدني إذا تنامى لأسماعهم صـوت الأعـزة . . قال تعـالى في سـورة آل عمـران ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَـرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً﴾ .

والإسلام حينما جاء ، جاء ليجدع أنوف العصبيات والعصـابات ، وليزيل الأعراف الفاسدة وفرط الاستبـداد ويحل محل ذلك كله عزة النفس ، وعـزة العقيدة . . فما أحوجنـا في هذا العصر وكل عصر أن نتفهم معناهـا لتوضع ضمن إطارنـا القيمي نستمد منها القوة والصـلابة في الحق والنأي عن الذل والهوان ، وإبعاد شبح الضعف والاستكانة .

وعلاقتهـا بالمجال الأخلاقي لايفـرضها الضمير الإنساني فحسب ، بل التكـوين الفطري لما

جبل عليه الإنسان من يوم أن نفخ فيه، ولذا كان مأموراً بتأدية حقها في نفسه لإعلاء كلمة الحق فيه، والزود عن حياض الشرف والكرامة، ومناهضة الباطل، ومكافحة الظلم والبهتان مما فيه اختبار النفس وامتحان لعزيمتها وقوة جلدها ومبلغ ثباتها. . فما أجل الواجب إذا صحبه بذل عظيم مما يؤمن بقيمة نفسه فيأبى تحمل الهوان والمذلة، ويؤمن بأن عزة النفس في طهارة اليد والبدن، وأن صلابة البدن وقوة العود في إنسان غيور ذات بأس لايرد عن كل مجرم، وأن العزة ليست في حق المسلمين تكبراً أو تفاخراً، أو هي حمية جاهلية تهضم الحقوق وتظلم الإنسان، وإنما تعنى الحفاظ على الكرامة الإنسانية، وصيانة مايجب أن يصان، وأن العزة لاتتعارض مع الرحمة، ولاتبعد عن منطق العدل، بل تجعل من التواضع مرتكزاً أساسياً لفهمها. . لأن من تواضع لله رفعه وأعزه. . والعز يبني المجد ويؤثر الهلكة على الذل والانقياد لأهواء الباطل.

وتعالو معاً نرى تلك القدوة الحسنة المتمثلة في رسول الله (ﷺ) حينما سؤل عن الوهن والضعف فأرجع ذلك إلى *(حب الدنيا وكراهة الموت)* فيوم أن نحب الدنيا ونكره الموت تهون علينا نفوسنا ويركبنا أعدائنا ويستذل الإنسان فينا. . ويوم أن نعز أمر الله ونصون عقائدنا عن التحريف والتبديل، ونسد الزرائع وينعكس سلوك العزة علينا. . نكون قد عرفنا معناها ومن ثم ننبذ المقابل السلبي لها المتمثل في الذُل والذِلة والمهانة والصغار.

ولو أردنا الوقوف على معنى الذلة في القرآن باعتبارها نقيض العزة لوجدناها قد جاءت في القرآن على ثلاثة أوجه[1] أو معان هي :

١ - القلة : ومنه قوله تعالى في سورة آل عمران - ١٢٣ ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾، وفي سورة المائدة ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. والذلة هنا في حق المؤمنين هي تواضع بعضهم لبعض.

٢ - بمعنى التواضع : قال تعالى في سورة الإسراء - ٢٤ ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ...﴾ ذلك في شأن الوالدين بالتواضع وإلانة الجانب لهما.

٣ - بمعنى اليسر والسهولة والليونة : ومنه قوله تعالى في سورة الإنسان - ١٤ ﴿... وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾.

ولم يكتف القرآن الكريم بإيراد الأوجه والمعاني للعزة والعزيز والذلة، بل ضرب لنا الأمثال لتعميق المعنى الحقيقي للعزة في النفس البشرية فذكر الأنبياء ومعهم أربابهم الذين قاتلوا عن

---

١ - نزهة الأعين للنواظر، مرجع سابق الجز الأول ص ١٨٩.

شريعة الله تحقيقاً لعزتهم ونصرهم فلم يهنوا أو يضعفوا أو يستكينوا أو حتى يحزنوا لما أصابهم من أذى أو تعرضهم لصنوفه . . فقال عز من قائل في سورة آل عمران - ١٤٦ ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ...﴾ .

من جميع ماتقدم يتبين لمن يريد أن تنسب له عزة النفس وعزة العقيدة أن يفهم معناها جيداً ومردودها على العقيدة والأخلاق ، مع العلم بأن هناك عزة كاذبة تقوم على البغي والإفساد . وقد أخبرنا تعالى عن ذلك فقال في سورة (ص) ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ فعزتهم هنا تعزز كاذب . . ذلك لأن كل عز ليس بالله فهو ذل . . كذلك هناك عزة آثمة ومستعارة كانت موجودة في الجاهلية للحمية وأشار إليها القرآن أيضاً في قوله تعالى في سورة (البقرة) ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ .

كذلك هناك أقوام اتخذوا من دون الله آلهة لتكون لهم عزاً تمنع عنهم العذاب ، وهو أمر نقول فيه هيهات . . قال تعالى في سورة مريم - ٨١ ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ ، وقال تعالى في سورة (ص) عن الذين كفروا بأنهم ﴿فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ .

وإذا كان إبليس نفسه قد عرف عزة الله تعالى وأقسم بها في معرض الغواية فقال في سورة ص-٨٢-٨٣ ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ فهل آن لنا أن نتفهم معناها ونضعها ضمن إطارنا القيمي ، ونعمل على تحقيقها ، ونترك شأن الرجال الذين يلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب وظهرت فيهم سكرة العيش وسكرة الجهل ونشأ آباؤهم في عز لامثيل له ، ولكننا نراهم الآن قد خرجوا من عز الطاعة إلى وحشة المعصية ولبسوا المطارف العتاق وتغنوا بالمندام وأوسعوا دورهم وضيقوا قبورهم . . أحبوا الدنيا فغرتهم ، وركنوا إليها فغشيتهم ، ولاذوا منها بالطيب والخبيث معاً فليس من هؤلاء أمل . . إن الأمل باق في هؤلاء الشباب الذي نتمنى لهم بكل إخلاص أن يتذكروا أخلاق الرجولة ولايألفوا أخلاق الدايات والاظهار . شباب يستحيل عليه أن يمشي في مواكب الأنس الكروي يصفقون ويهللون وينسون مايجرى في فلسطين وأفغانستان ، ومجاعات أفريقيا .

وإن من يرتضون بالذلة والحقارة ، والخساسة والنذالة ، والوضاعة والرذالة ، وكل ذلك بديلاً بالعزة والطهارة . . هم قوم هانت عليهم نفوسهم وضاعت منهم عقائدهم التي تسعى دائماً لوضع الإنسان في موضع التكريم . . فالعزة للمؤمن هي بحق شرفٌ لانتهاءه لربه ولمثله العليا ولإنسانيته ، أما الذلة وكل تلك المعاني القبيحة . . فهي عنوان للحقارة التي تهدم هذا الانتهاء .

﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ سورة الرعد - ١١ .

العناصر القيمية لفهم قيمة العزة

تتلخص العناصر القيمية لفهم قيمة العزة، وكما وضح من السياق القرآني، في معرفة كل من الآتي :

١ - العلم.

٢ - الحكمة.

٣ - الرحمة.

٤ - الهبة.

٥ - الغفر.

٦ - الحمد.

وقد وضح ذلك من قوله تعالى في سورة الأنعام - ٩٦ ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ﴾، وفي سورة البقرة -١٢٩ ﴿رَبَّنَا وابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾، وفي سورة الشعراء - ٩ قال تعالى ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، وفي سورة ص-٩ ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ العَزِيزِ الوَهَّابِ﴾، وفي سورة فاطر - ٢٨ ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾، وفي سورة إبراهيم -١ ﴿الَر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ﴾.

فالبنسبة للعنصر الأول (العلم) يسوق تعالى دلائل عزته وسلطانه وقهره وكمال علمه وحكمته ليرجع إليه وحده فعل كل أمر جلل. فإذا كان تعالى هو فالق الحب والنوى ليخرج منها النبات والأشجار، فهو تعالى أيضاً يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن باستعارة دقيقة في الأداء، وهو كذلك الذي يظهر النهار على الليل بشق عمود الصبح عن ظلمة الليل وسواده، والجاعل الليل سكناً رحمة بعباده ليستريحون فيه من الغدو والآصال، والشمس تجري لمستقر لها بحساب دقيق كل الدقة لتعلقها بمصالح عباده في الأرض من معرفة الأزمان والأحوال.

فإذا كانت كل تلك الآيات الظاهرة مسخرة ومذللة بأمره وميسرة بحساب وتقدير فذلك دليل على علمه وسلطانه وعزته.

أما عن الآية الثانية من عناصر التوازن القيمي وهي سورة البقرة - الآية ١٢٩ - والتي حملت عنصر الحكمة فقد حملت لنـا دعوة بإخلاص من ضمن تلك الدعـوات التي دعى بها كلاً من إبـراهيم - عليه السـلام - وولده إسماعيل في أن يجعل من ذريتهم أمـة مسلمة وأن يبعث فيهـا رسولاً منهم يتلو عليهم آياتـه ويعلمهم قرآنه العظيم وسنن الأنبياء لتطهيرهم من رجس الشرك والوثنيـة . . ويستجيب تعالى للدعاء ويبعث من ذريتهم أشرف خلق الله ، ذلك هـو محمد بن عبدالله (صلـوات الله وسلامـه عليه) الـذي وصفه القـرآن بأنه عـزيز عليـه العنت والتضليل ، ورؤوف رحيم بأمته . يجيء ليحق الحق ويزهق البـاطل بأمر من ربه الذي قهر بمنهجـه جبابرة الأرض وقهر بجبروته من أراد أن ينال العز والشرف بعبادة الأصنـام من دونه . . فسبحانه الذي لايفعل إلا ماتقتضيه حكمته ومصلحة عباده .

أما الآية الثالثـة وهي التاسعة من سورة الشعراء والتي بان فيهـا عنصر الرحمة . . فقد جاءت للتدليل على أن الله تعـالى إذا كان القاهر والغـالب على أمره ، إلا أنه الرحيم بخلقـه . فرحمة من عزيز أرحم للضعف الإنساني من شدة الذليل ، ومغبة الفاجر .

أما بـالنسبة للعنصر الرابع وهي الآيـة التاسعة من سـورة (ص) والتي حملت عنصر الهبة . . فنرى في أول السـورة يبدأ تعالى ببيان الإعجـاز القرآني وقسمه العظيم بأن القـرآن هو ذو الشرف الرفيع والمكانـة العالية ، وأن الكافرين الذيـن لم يؤمنوا به . . لم يؤمنوا بـه لخلل فيه . . بل لحمية الجاهلية ، وتكبر على الإيمان ، وحسـداً على ما أوتي الرسول من شرف النبـوة . ثم ينقلنا الحدث القـرآني في معـرض الـرد على المشركين الـذين أنكروا اختصـاص محمـد (ﷺ) بـالنبـوة إلى أنهم لايملكون من خزائن رحمة الله شيئاً حتى يعطوا النبوة لمن شـاءوا بل هي هبة من عند الله خالصة يتفضل بها على من يشاء من عباده . . فهـو وحده تعالى الذي يهب مايشـاء لمن يشاء ، ونرى في الآية الكريمة أن العزة قد قرنت بـالهبة تدليلاً وتأكيداً على أن من يملك العزة الحقيقية كفيل بأن يهب ويُمَلِكُ من شاء بلا مثل أو عوض .

أمـا عن الآية الخامسـة من العنـاصر القيمية والتي حملـت عنصر الغفر وهي ٢٨ من سـورة فاطر . ففيهـا يسوق تعالى دلائل قدرتـه . . فبعد أن أخرج الثمرات المختلفة مـن أكمامها بإنزال الماء من السماء وجعل من الجبال طرائق وخلـق من الناس والدواب والأنعام خلقاً مختلفاً ألوانه وكلها معـروضة للأنظـار سواء فيما نراه مـن عالم الإنسان أو عـالم الطير والحيوان . . وكل ذلك يثير الدهشة ويـدفع للخشوع والإيمان ، وبأن الخشية وإن كانـت قد قصرت على العلماء فلأنهم هم العالمون حقاً بقدرتـه المقرونة بعـزته وحكمته . . فمن تـوفرت فيـه صفات الجلال والكمال والغلب والقهر ولاينسى الترحُم والترأف والغفران والتـوبة ، وإقران العزة بالغفـر ما هو إلا دليل إحكـام لقدرة القهـر والغلبة ، وأنـه رغماً من ذلك فلايعـاجل بـالعقوبـة ، بل يتلطف بمثوبـة الاستغفار .

أما عن الآية السادسة - من سورة إبراهيم الآية ١ - والتي حملت عنصر الحمد. . فتلك أول آية من سورة إبراهيم سميت باسمه تخليداً لمآثره فهو أبو الأنبياء وإمام الحنفاء الذي حطم الأصنام حاملة لواء العزة الكاذبة، وحمل راية التوحيد وجاء بالحنفية السمحاء. . فتبدأ السورة ببيان الإعجاز القرآني وتتصدر بـ (الَر) التي تمثل بعضاً من الحروف الهجائية المقطعة لتجذب أنظار المعرضين عن القرآن وتنبيههم إلى أن تلك الحروف ليست بعيدة عن لغتهم فهي وإن كانت من عين ماينظمون منه كلامهم، إلا أن إتيانها على هذا النحو يخالف ما ألفوه في حياتهم. . تدليلاً وتأكيداً على الإعجاز والتحدي، وبأن ذلك الكتاب الذي أنزل على محمد (ﷺ) لم تنتشه العقول وإنما أوحي به إليه ليخرج البشرية من ظلمات الجهل والشرك إلى نور العلم والإيمان بأمر من الله لهدايتهم إلى طريق العزيز الغالب والمحمود بكل لسان وعلى كل حال، فالحمد لله الذي أنزل الكتاب ولم يجعل له عوجاً.

فاستشراف تلك العناصر القيمية فيمن يريد أن يكون عزيز النفس وعزيز الجانب أن يعز أولاً عقيدته التي أعطته خصائص التكريم، ثم يقوم بتأدية حقها في نفسه، ومعرفة قيمة العلم والحكمة بجانب الرحمة ومقدار الهبة والستر ومكانة الحمد.

السلوك التطبيقي لفهم قيمة العزة

فكما أعز الله دعوة إبراهيم الخليل - عليه السلام - وولده إسماعيل وتحققت النبوة، فقد أعز الله الإسلام بعمر تحقيقاً للدعوة التي كان يرددها النبي (ﷺ) وتلك هي [اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام].

فبإسلام عمر تحولت سيرة الدعوة من مرحلة السر والكتمان إلى مرحلة الجهر والإعلان. . قال عبدالله بن مسعود - رضي الله عنهما - (ما كنا نقدر على أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر بن الخطاب فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة وصليت معه). وقال أيضاً. . (كان إسلام عمر فتحاً وهجرته نصراً وإمارته رحمة للمسلمين). . فليكن كلنا عمر؟؟

والحمد لله رب العالمين.

الحميد (وقيمة الحمد)

قبل أن نتكلم عن قيمة الحمد. . نتكلم عن اسم عظيم وصفة شريفة. . هما الحميد والحمد.

فالحميد من أسماء الله الحسنىٰ واشتقاقه من الحمد، والحمد صفته تعالىٰ.

سمى الله نفسه حميداً في سبعة عشر آية من آيات القرآن الكريم، ووصف نفسه بالحمد في آيات كثيرة منه، ونبه على شمول حمده لخلقه، وحمده لنفسه في أول الخلق وآخره، بل وحمد نفسه على ربوبيته للعالمين، وحمد نفسه على تفرده بالألوهية وعلى حياته، وحمد نفسه على اتصافه بما يليق بكماله من أنه لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولا ولي من الذل، وحمد نفسه على علوه وكبريائه.

قال تعالى في سورة الفاتحة من ٢-٤ ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

وقال تعالى في سورة الأنعام - ١ ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

وقال تعالى في سورة الكهف ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقال تعالى في سورة سبأ - ١ ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

وقال تعالى في سورة الإسراء - ١١٠ ﴿... الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ ...﴾.

والحمد هو ثناء على المحمود ويشاركه الشكر، إلا أن بينهما فرقاً وهو أن الحمد قد يقع على سبيل الابتداء وقد يقع على سبيل الجزاء. أما الشكر لايكون إلا في مقابل النعمة فكل شكر حمد وليس كل حمد شكر، كذلك فيه إخبار عن المحمود بالصفات التي يستحق أن يكون عليها، ولذا قيل بأن الحمد هو حمدين حمد الصفات والأسماء وحمد النعم والآلاء. ، فالله تعالى هو المستحق الحمد حمداً كثيراً والمحمود على أفعاله وأقواله، والمحمود على قضائه وقدره وشرعه وحكمه، والحمد لله الذي حمد نفسه قبل أن يحمده أحداً من خلقه.

كذلك الحمد لله تعالى الذي هدانا إلى حمد أهل الجنة حينما قال في سورة يونس - ١٠ ﴿ . . وآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

وأمر به رسوله بقوله تعالى في سورة النمل - ٩٣ ﴿ . . وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ... ﴾ وقالها كل من داوود وسليمان -عليهما السلام- عندما آتاهما الله علماً فقالا ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي فضلنا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ النمل - ١٥ .

جاء الحمد في القرآن على خمسة أوجه (١) أو معان :

أولها : الثناء والمدح - قال تعالى في سورة آل عمران - ١٨٨ ﴿لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

والآية وإن كانت قد نزلت في أهل الكتاب حينما سألهم النبي (ﷺ) عن أمر فكتموه عنه وأخبروه بغيره وفرحوا بما كتموا من الحق، إلا أنها توجيه عام بأن هناك طوائف من البشر وإن توفر في حقهم العلم فهم لايؤدونه كما يجب بل يخفون حقائق علمهم ومع ذلك يحبون أن يثنى الناس عليهم .

وقال تعالى في سورة الإسراء - ٧٩ ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ .

وفيها إشارة إلى أهمية التهجد بالقرآن تطوعاً بالليل ووعد من الله يفيد القطع بوجوب إحراز المقام المحمود لرسوله . . ذلك هو مقام الشفاعة العظمى الذي يحمده عليه الأولون والآخرون يوم القيامة .

ثانيها : الأمر . . ومنه قوله تعالى في سورة الإسراء - ٥٢ ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ . ذلك عن يوم الحشر الأكبر . . يوم الدعوة الكبرى والاستجابة العظمى لأمر الله، يوم تظنون لهول ماترون أنكم ما أقمتم في الدنيا إلا زمناً قليلاً .

وقال تعالى في سورة الطور - ٤٨ ﴿وَاصبر لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ .

ففيها أمر من الله تعالى لرسوله الكريم بالصبر على قضائه وحكمه فمسئولية التبليغ . وحمل الأمانة وإن كانت تلقى العنت والاضطهاد، إلا أنك يامحمد في حفظنا وكلاءتنا . . مع التوجيه باستمرار العمل بشواهد الحمد بالقيام والتهجد والتسبيح والتحميد . . وفيها دلالة على أنه مهما واجه الإنسان من مصاعب ومهما عظمت الأمور . يجب عليه أن يلوذ دائماً بالصبر والقيام والتهجد لا أن تفتر همته أو أن تخور قواه .

ثالثاً : المنة : قال ن في سورة الـزمر - ٧٤ ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي صَـدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ .

ففيها تصوير حقيقي عن هؤلاء الأتقياء الـذين تصوروا نعم الله عليهم وعلى العباد وقدروها حق قدرهـا وحفظوها وآمنوا بـالحشر والنشر وقابلوا كل ذلك بالحمـد وهتفوا من الأعماق بتلك الاستجابة الفطـرية عنـد دخولهم الجنـة وليسمح لهم بالاستقـرار في دار الكرامـة والرضـوان ، لينعموا فيها بالبقاء الأزلي دون كدح وعناء .

رابعـاً : الشكـر - قـال تعـالى في سـورة الأنعـام - ١ ﴿الْحَمْـدُ للهِ الَّـذِي خَلَقَ السَّمٰـوَاتِ وَالْأَرْضَ ... ﴾ .

وفيها نرى الله تعـالى يثني على نفسه بداءة وإعلامـاً منه لعباده بأنه المستحق للمحـامد كلها وتأكيداً لقيمتي -الحمد والشكر- على الإنشاء والإبداع للنعم والآلاء .

خامسـاً : الصلاة - قال تعـالى في سورة الـروم - ١٨ ﴿وَلَهُ الْحَمْـدُ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِياً وَحِينَ تُظْهِـرُونَ﴾ . فقد أريد بها الصلـوات الخمس التي تثبت دعائم الإيمان بـالقول والأعمال فهي التعبير الحقيقي لإظهار مشاعر الإيمان والامتنان .

ذلك عن الوجوه التي أوردها الحمد في القرآن .

أما عن الحمد كقيمة خلقية فبه يدرك الإنسان المسلـم عظمة المنعم ، ومكانة النعمة وعرفانه لها وتقديره إياها ، وذلك لايتأتى إلا لمن حَمُدت أخلاقه وصحت عقائده .

بداية النشأة الأولى وحمد الأنبياء

أخبرنا تعـالى عن تسبيح الملائكة وحمدهم فنجد آدم - عليـه السلام - في بداية خلقـه ، وما أن ظهر للـوجود بأمـر من الله يقول (الحمـد لله) تدليـلاً وتأكيداً على معـرفته لله بصفـات كماله ونعوت جلاله .

ثم نرى في القـرآن أمراً منـه (تعالى) لأنبيـائه بالحمـد جريـاً على سنة آدم ، وتأكيـداً لتواصل الحمد فقـال تعالى موجهـاً نوح - عليه السلام - في سورة المؤمنـون - ٨ ... ذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي نَ... ا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

ونرى أيضاً أن الحمد كان من شأن أبو الأنبيـاء إبراهيم - عليه سلام - الذي قال في سورة إبـراهيم - ٣٩ ﴿الْحَمْـدُ للهِ الَّـذِي وَهَبَ لِي عَلَى ا... إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ .

وكان أيضاً هو دعاء موسى - عليه السلام - حينما قال [اللهم لك الحمد و إليك المشتكى وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك].

ونجد رسولنا الكريم (ﷺ) قد تسمى بأسماء منها (محمد، أحمد، محمود، حامد) وكلها تدل على معنى الحمد، ومن ثم نرى انعكاس مسماها بداءة على سلوكه الشريف حتى أصبح خلقه القرآن، ونراه (ﷺ) يوجه أمة الإسلام الأولى بقوله [من لم يحمد الناس لم يحمد الله]، كذلك قوله : [كل ذي أمر لايبدأ فيه بحمد الله فهو أبتر].

فلله الحمد على منة الإسلام والسنة حمداً يكافىء نعمه الظاهرة والباطنة وكما ينبغي لجلال وجهه وعز سلطانه.

العناصر القيمية للحمد

تتحقق العناصر القيمية لفهم قيمة الحمد في معرفة :

١ - قيمة الغنى.

٢ - قيمة العزة.

٣ - قيمة الحكمة.

٤ - قيمة الولاية.

وذلك واضح من خلال ماسقناه من شواهد ضمن عناصر التوازن القيمي في المبحث النظري.. فإذا فهمنا قيمتي الألوهية والربوبية، وأثرهما في وجود الاعتقاد السليم، مع هذه العناصر الأربعة، والأصول القيمية التي تكمن وراءها فقد عرفنا الله بذاته وصفاته في إطار ليس كمثله شيء، وعلمنا أن التسبيح والتحميد يتضمن تعظيمه وإثبات مايحمد عليه من الثناء والمحبة والعمل بطاعته، ورضينا بقضائه وقدره، وإذا ما تصورنا نعمة الإسلام والهداية، وتأكد منا الأمر والنهي وانعكس ذلك على سلوكنا، ونطقت الألسن بالإفصاح عن مكنونها بالحمد، اعتبر ذلك من أقيم الاستجابات الفطرية لتلك الرحمة الندية.

ولايبقى بعد ذلك إلا أن نوضح أيضاً قيمة ملازمة للحمد وهي قيمة الشكر إذ تستند هي الأخرى لأصل قيمي محدد هو «الشكور» ذلك هو الله الذي لا إله إلا هو.

الشكور (وقيمة الشكر)

الشكور من أسماء الله الحسنى، ومعناه أنه (تعالى) الذي يجازي بيسير الطاعات كثير الدرجات ويعطي بالعمل في أيام الدنيا المعدودة نعيماً في الآخرة غير محدود، ومن جازي الحسنة بأضعافها يقال أنه شكر تلك الحسنة، ومن أثنى على المحسن يقال إنه شكره . . والشكر من الله تعالى هو اثابته الشاكر على شكره بجعل ثوابه للشكر وقبوله للطاعة شكراً منه.

والشكر في اللغة هو البيان والإظهار، وشرعاً هو المدح بالصفات الذاتية كالعلم والحكمة، وقيل هو المدح بالصفات الفعلية كالعطاء والطاعة، وقيل هو الاعتراف بنعمة المنعم والثناء على من أسداها بالقلب وبالجوارح.

ولو أردنا الوقوف على الفروق اللغوية بين الشكر والحمد لوجدنا أن الشكر يتضمن اعتراف بالنعمة على جهة التعظيم للمنعم، أما الحمد فهو الذكر بالجميل على جهة التعظيم، وقد يصح على النعمة وغير النعمة. أما الشكر فلايصح إلا على النعمة بذاتها.

ومن الجائز أن يحمد الإنسان نفسه في أمور جميلة يأتيها ولايجوز أن يشكرها، ذلك لأن الشكر هنا يجري مجرى قضاء الدين ولايجوز للإنسان أن يكون على نفسه دين. ومن ثم فالاعتماد في الشكر على ما توجبه النعمة، أما في الحمد فعلى ما توجبه الحكمة.

والشاكر هو الذاكر بحق المنعم بالنعمة، وقد يجوز في صفة الله شاكراً مجازاً والمراد بذلك أنه يجازي على الطاعة جزاء الشاكرين على النعمة.

ولما كانت معرفة الله واجبة فشكره واجب، لأنه لايجوز أن نشكر من لانعرف ولانحمد من لايعرف.

وورد الشكر في القرآن على وجهين[1].

أولهما : يكون لمعنى التوحيد - قال تعالى في سورة آل عمران ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾.

ثانيهما : يكون لمعنى شكر النعمة - قال تعالى في سورة البقرة ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾.

---

١ - كشف السرائر لابن العماد - مرجع سابق ص ١٧٧ - ١٨٢.

ففيها أدب مقابلة النعمة بالشكر والبعد عن الجحود والنكران.

كذلك أمر تعالى بالشكر وجعل شكر الوالدين مقروناً بشكره تكريماً لهما، لفضلهما في التربية.. قال تعالى في سورة لقمان ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾.

كذلك ورد ذكر الشكر في السياق القرآني في أكثر من سورة بآيات مسبوقة أغلبها بذكر نعم الله وآلائه وفضله.

ولما كان الشكر يقابله الكفر فمن لم يشكر الله فقد جحد بنعمه، والجحود بالله ونعمه هو الكفر بذاته.. لكن من رحمة الله بخلقه أنه لايرضى لهم الكفر والجحود، بل يرضى بشكرهم على تصور نعمه وتذكرها، وتوجيه منه تعالى بأن الشكر يصون صاحبه من العذاب وبأنه مثار الرضا الإلهي والرضى النفسي، وإن كان الله تعالى غنياً ومستغنياً عن عباده، لكنه تعالى يربيهم على مقابلة الفضل والإحسان بالعرفان والبعد عن الجحود والنكران.

قال تعالى في سورة الزمر - ٧ ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنكُم وَلَايَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ...﴾.

وقال تعالى في سورة النساء - ١٤٧ ﴿مَايَفْعَلِ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ...﴾.

كذلك نوه تعالى إلى ظاهرة الجحود والنكران في البشر - فقال تعالى في سورة سبأ - ١٣ ﴿... وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾.

ولما كان الشكر صفة من صفات الأنبياء، فهو أيضاً يعد قيمة من قيم الأتقياء لما فيه من استجابة فطرية بالثناء الحقيقي على المنعم وإظهار مشاعر الامتنان والعرفان بالجميل.

ولكي تعطي لنا القدوة من سلوك الأنبياء وأخلاقهم.. يقول (تعالى) في حق كل من نوح وإبراهيم وداود - عليهم السلام - في سورة الإسراء - ٣ ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾، وفي سورة النحل - ١٢٠ - ١٢١ ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً للهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، شَاكِراً لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وفي سورة النمل - ١٩ ﴿.. فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾.

ونجد الرسول الكريم (ﷺ) يوجهنا إلى أهمية الشكر وارتباطه ببقاء النعم أو زوالها فيقول (ﷺ) [أشكر لمن أنعم عليك وأنعم على من شكرك فإنه لاتزول نعمة إذا شكرت ولا دوام لها إذا كفرت][1].

---

١ - حديث حسن صحيح

كذلك قال (ﷺ) [من صنع إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا ماتكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه][1]. وورد كذلك في الإخبار عنه أنه (ﷺ) أخذ يصلي حتى انتفخت قدماه، فقيل له أتتكلف هذا وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر قال ([أفلا أكون عبداً شكوراً]. . أي أن أترك المبالغة في الصلاة والعبادة اعتماداً على المغفرة، بل ألزمها وإن غُفِرَ لي لأكون عبداً شكوراً.

العناصر القيمية لفهم قيمة الشكر

تتحقق قيمة الشكر في تفهم العناصر القيمية التالية والتي وضحت من السياق القرآني :

١ – قيمة الغفر، وذلك من قوله تعالى في سورة فاطر ﴿ . . إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ .

٢ – قيمة الصبر، وذلك من قوله تعالى في سورة سبأ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ .

فالآية الأولى تمثل دعاء أهل الجنة الذين قالوا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾، ومن ثم فقد تحققت منزلتهم بمعرفة قيمة الحمد في الدنيا بالإضافة إلى قيمتي الغفر والشكر.

أما عن العنصر الثاني وهو الصبر، فلأنه متعلق بالجهد المبذول في الصبر على الطاعة التي توجب الشكر.

وعلى ضوء ما سبق يتضح أن إسلامنا يعلمنا بأن الشكر لايأتي إلا عن علم وليس من فراغ. فإنكار كل جميل يؤدي للإنسان بالجحود والنكران أمر يأباه الإسلام ولايقره العقل أو الوجدان.

والله الهادي إلى سواء السبيل

---

١ – حديث حسن صحيح، وجاء بلفظ آخر برواية الديلمي [من صنع إليكم معروفاً فكافئوه].

الصبور (وقيمة الصبر)

الصبور هو الله تعالى الذي لا إله إلا هو، وهي صفة شريفة فيه (سبحانه).

فالله سبحانه وتعالى هو الذي لاتحمله المسارعة إلى الفعل قبل أوانه، بل ينزل الأمور بقدر معلوم، ويجريها على سنن محدده فلا يؤخرها عن آجالها تأخير متكاسل ولايقدمها على أوقاتها تقديم مستعجل، بل يودع في كل شيء أوانه على الوجه الذي يجب أن يكون وكما ينبغي من غير مقاساة على مضادة الإرادة.

سمى الله نفسه الصبور في الحديث المروي عن الرسول (ﷺ) [إني أنا الصبور] لأنه لاتجوز الصفة على الله تعالى بالصبر لأن المضار لاتلحقه سبحانه.

ومعنى الصبر والصبور قريب من معنى الحلم.. إلا أن هناك فرق بين الصبور والحليم.. ذلك هو أن المذنب لايأمن العقوبة في صفة الصبور، كما يأمنها في صفة الحليم.

والصبر وإن كان يفيد حبس النفس عن الجزع أو التشكي أو التسخط، إلا أن فيه معنى الاحتمال والتجلد.

وأصل الصبر في الكلام: الحبس.. أي حبس النفس عن الجزع.

ويقال: صبرته على كذا صبراً، إذا حبسته.

أو صبر على الأمر يصبر صبراً: احتمله دون جزع، أو حبس نفسه عنه.

وتصبر واصطبر وأصبر: تجلد ولم يجزع.

وصبر نفسه: حبسها وضبطها.

وصبره: أمره بالصبر ودعاه إليه وحببه فيه.

وأصبره: جعل له صبراً.

وجاء الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه[1] أو معان:

الصبر نفسه، والصوم، والجرأة.

فعن المعنى الأول (الصبر نفسه) قال تعالى في سورة آل عمران -١٧ ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾.

---

١ - منتخب قرة العيون النواظر، مرجع سابق ص ١٥٨.

ذلك في شأن الصابرين على البأساء والضراء، والصادقين في إيمانهم والمطيعين لله في الشدة والرخاء والذين يبذلون أموالهم في وجوه الخير والصلاح والمستغفرين في وقت السحر.

كذلك قال تعالى في سورة إبراهيم - ٢١ ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾.

ففيها تصوير للمناظرة بين رؤساء الكفر ومن شايعهم فيه.

كذلك قال تعالى في سورة ص - ٤٤ ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

ذلك في شأن أيوب - عليه السلام - وفي مقام الابتلاء والصبر على الضراء فقد أصيب أيوب - عليه السلام - في ماله وأهله وبدنه واستحلف لإمرأته على أن يضربها مائة سوط إذا برىء من مرضه عقاباً لضجرها وغضباً عليها.. وبعد أن منّ الله عليه بالشفاء بعد صبر وإنابة، هداه الله للوفاء بيمينه بدلاً من أن يحنث فيه بأن يضربها بحزمة من الأخضر واليابس بدلاً من السوط الموجع إبراء ليمينه ورحمة بإمرأته.

عن المعنى الثاني (الصوم) قال تعالى في سورة البقرة - ١٥٣ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

ففي الآية استنهاض همم المؤمنين بالاستعانة على أمور الدين والدنيا بالصبر والصلاة وتأكيد على أن الله في معيتهم يؤيدهم بنصره ويعينهم على أمره ويحفظ مكانتهم ويثبت خطاهم ويعصمهم من الذلل.

عن الوجه الثالث (الجرأة) قال تعالى في سورة البقرة - ١٧٥ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾.

ذلك في شأن رؤساء اليهود الذين كتموا ما أنزل الله من الكتب واستبدلوا الكفر بالإيمان والجحيم بالجنة وجرأتهم على اقتراف المعاصي والكذب فما أصبرهم على نار جهنم.. تعجباً من أمرهم!!، لأن الذي يصبر.. يصبر على الشدائد والمحن ولكنه لايصبر على نار العذاب.

ذلك عن الأوجه أو المعاني التي حملها الصبر في القرآن.

أما عن الصبر في المجال الأخلاقي فيعد قيمة عليا تضفي على صاحبها روح التأني والتجلد والثبات.. فالحياة بما تحمله من مشاق وما يفرضه التعامل من نكد وغم، وعناصر الوجود في الأسرة والمجتمع يكلف الإنسان الكثير من المال والوقت والجهد، كذلك الابتلاء والحرمان ومايعقب ذلك من قلق وخوف فكل ذلك يجب أن يواجه من الإنسان بعزم صادق وعمل دائب وإيمان بقيمة الصبر لتعين الإنسان ضد الجزع، ومن ثم يكون الاعتصام به واجب والاستعانة به مطلوبة.. فإذا تغافل عنه خرج الإنسان عن تكوينه الفطري.

والإسلام حينما جاء فقد أعطانا قيمة الصبر للاستعانة بها في كل أمر يخرج عن نطاق قدرتنا أو لندفع به الجزع ونبعد به الألم وليربي المسلم على الاحتمال والتحمل تحقيقاً لبلوغ هدف أسمى فإنه بذلك يكون قد حصن الإنسان من فتور همته وشيطان غوايته ليبقى وجوده في الحياة كعنصر فعال وليكون له وقاية من أثر ما حاق أو يحيق به أو يعكر صفو النفس ونقاؤها ويخرجها عن صفاء فطرتها التي فطرت عليها وليوقظ فيها مكامن الخشوع والتضرع.

جزاء الصابرين

أولى بنا أن نتفهم قيمة الصبر وجزاء الصابرين والشاكرين ومواقف المبتلين والمكروبين من الأنبياء والرسل. . ومن أولئك الذين عرفوا الصبر فقدروه ولم تجزع نفوسهم، ولم تلين عزائمهم، واعتصموا بالصبر والتصبر فكان هو ملاذهم وملجأهم في ساعة الكروب والعسرة. ولقد كان أشد الناس بلاء هم الأنبياء، كل يبتلي، ويشتد البلاء عند قوة الإيمان لتمحيص القلوب ثم رفع الدرجات والتمكين في الأرض، وقد أورد لنا القرآن الكريم جزاء الصابرين فقال تعالى في سورة الزمر - ١٠ ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، وفي سورة النحل -٩٦ ﴿. . وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وفي سورة الإنسان -١٢، ١٣ ﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً، مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيرًا﴾.

ثم نرى أن الصبر كان في سير الأوائل معلماً من معالم العظمة وشارة من شارات الكمال. . لكن أي الصبرين أعلى وأقيم؟ الصبر لله أو الصبر بالله؟.

قيل أن الصبر لله أكمل من الصبر بالله، ذلك لأن الصبر لله متعلق بألوهيته ومحبته والصبر بالله متعلق بربوبيته ومشيئته، وماهو له أكمل مما هو به، لأن ما هو له هو الغاية، وماهو به هو الوسيلة، فالصبر به وسيلة والصبر له غاية وبينهما من التفاوت مابين الغايات والوسائل.

واعلم أن الصبر لله مصدره المحبة. . أما الصبر به مصدره الاستعانة. . والمحبة أكمل من الاستعانة.

أما الصبر على الله فهو الصبر على أحكامه الدينية والكونية فهو يرجع إلى الصبر على أوامره والصبر على ابتلائه.

وتتعدد ضروب الصبر بتعدد مظاهر الحياة. . فهناك الصبر عن المعصية فلايرتكبها المسلم، والصبر على الطاعة حتى يؤديها المسلم. . والصبر على البلاء فلاشكوى ولاجزع.

ويكفي أن معية الله دائماً تكون مع الصابرين. . وتلك معية حفظ ورعاية، قال تعالى في سورة البقرة - ١٥٣ ﴿... إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

عناصر التوازن القيمي لفهم قيمة الصبر

تتحقق عناصر التوازن القيمي لفهم قيمة الصبر في معرفة :

١ - التصبر.

٢ - الحمد.

٣ - الشكر.

هـذه هي عنـاصر التـوازن القيمي لفهم قيمـة الصبر حتى يخرج الإنسـان من نطـاق الجزع والهلع إلى واحة الإيمان والثبات.

ولتعلق الصبر بـالجهد نقول : إذ كـانت الإرادة القويـة تخلق عـزماً، والجهد المبـذول يخلق فعلاً، ومن ثم نجد التصبر ينشأ صبراً، أما الحمد والشكر فبهما رضاء بالقضاء.

وإذا لم يكن الجهد المبـذول لدفع بـلاء يستطيع الإنسان دفعـه وحصره مسـاويـاً لأهمية ذلك البلاء لايعد جهداً، فليس كل جهد مبذول مصدوق بالوسيلة المؤدية إلى النتيجة المرغوبة، وكم من جهد ضاع سدى لأن الإنسان استعجل فيه النتيجة.

كذلك هناك من الجهود التي تبذل ولكن تأتي النتيجة ليس كما يشتهي الإنسان، وهناك من الكروب والمكاره مـالايستطيع الإنسان دفعه لا بالجهد ولا بالإرادة هنـا تكون لقيمة التصبر دور هـام في تجرع الكروب والمكـاره عن رضـاً واسترجاع وإقـرار بقـدرة الله الـذي فاق كل قـدر. . وينتهي المشهد بالالتجـاء والتسليم. . لحظتها يكون الإنسـان قـد اجتاز محك الاختبار الإلهي، ويكون الإنسان قد عالج البواعث النفسية بحكمة وروية، ويصبح عطاء الله أجراً ورحمة.

أما إذا فقـد الإنسان عنصراً قيمياً من عناصر التـوازن القيمي وهو التصبر فلن يتـوفر لـديه الجهد ولايتحقق لـه الجلد فتكـون الاستكانـة والتسخط ويجد الجزع مكاناً لـه في النفس ومن ثم ينتفي عنصري الحمد والشكـر اللذان يثيبان على الطاعـة بالجزاء الأوفى، ولو علمنـا بأن قضاء الله نافذ وأن كل شيء بقضـاء وقدر، وأن الجزع لايرد عنا القضاء ولايدفع عنـا البلاء، وأيضاً أن مـا وقع أهـون وأخف ممـا لم يقع، ومابقي لنـا من النعم أدعـى لعزاء مصيبتنـا، وأن لكل قـدر حكمة لو علمنـاها لرأينا المصيبة هي عين النعمة، إذ لاتخلـو من ثواب أو مغفرة أو تمحيص أو رفعة شأن وتمكين، أو دفع بلاء أشد.

كذلك لو علمنا أن مـاعند الله خير وأبقى لأيقنا بقيمة الصبر. لأن النصر دائماً مع الصبر، مثل الفرج مع الكرب، واليسر مع العسر.

عن السلوك التطبيقي لقيمة الصبر

لقد ضرب الرسول (ﷺ) أروع الأمثلة في التحلي بالصبر والثبات عليه. . فقد صبر على أذى المشركين له ووضع النفايات الذابلة في طريقه، وصبر على إتهامه بالسحر والشعر والجنون، وصبر على أعدائه، وصبر زمناً طويلاً في دعوته التي استغرقت ثلاثة وعشرون عاماً ولم يكن (ﷺ) عاجلاً ولا متعجلاً في أي أمر من أمور المسلمين، ونرى مواقف عايشها بتحمل وعالجها بحكمة وبصبر وبعزم وثبات.

دخل -ﷺ- يوماً على إمرأة مريضة فوجدها تلعن الداء وتستعجل الدواء وتسب الحمى، فيكره منها ذلك ويقول لها ناهياً عن التبرم بها [إنها تذهب خطايا ابن آدم كما يذهب الكير خبث الحديد].

ومن أحاديثه الشريفة (ﷺ) :

[ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه][١]، [من يرد الله به خيراً يصب منه][٢]، وقد قيل للرسول (ﷺ) يوماً في مرضه : (إنك لتوعك وعكاً شديداً) فيقول (ﷺ) [أجل إن لي أجر رجلين منكم][٣]، وكان يقول في غمرات الموت [اللهم أعني على سكرات الموت].

وذلك الدعاء الذي كان يدعو به (ﷺ) دائماً يسأل فيه الله تعالى : (الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد).

عن صبر الخليفة أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) :

كيف أتكلم عن رجل كان أمير الشاكرين الذين ثبتوا على دينهم، وأمير الصابرين الذين صبروا على جهاد عدوهم من أهل الردة.

كيف أعبر عن خلجات نفس. . لاتقبل الجزع بعد أن عبرت هي بكلمات موجزة بليغة ولتنعي الأمة كلها في مشهد الوداع الأخير. فحين بلغ أبي بكر (رضي الله عنه) خبر موت الرسول (ﷺ) فيدخل عليه فيكشف عن وجهه الكريم ثم يقول راضياً بحكم الله وقضائه :

(بأبي أنت وأمي، أما الموتة التي كتبها الله عليك فقد ذقتها، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً).

---

١ - متفق عليه.

٢ - رواه البخاري.

٣ - متفق عليه، والحديث بتمامه ورد عن ابن مسعود قال : دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك فقلت : يارسول الله إنك تتوعك وعكاً شديداًقال : أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم قلت : ذلك إن لك أجرين قال: أجل ذلك كذلك فما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته وحطت عنه ذنوبه كما تحط الشجرة ورقها.

ويخرج ثابتاً مطمئناً لقضاء الله وحكمه صابراً محتسباً ليواجه أخطر مسئولياته الحقيقية بعزم وثبات ويخطب في الناس :

(إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لايموت . . ثم يقرأ الآية الآتية :

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ الله شَيْئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾ .

لا تعليق مني؟ . . هاتوا علماء النفس ليحللوا تلك الآثار التي عالجتها الآية الكريمة في نفوس غلبها الحزن ، وأهلعها المصير لموت أعظم خلق الله وفقدان أصحابه له والمسلمين جميعاً .

وأبي بكر أيضاً هو الذي رأيناه في حربه للردة يعزم على الخروج بنفسه في مائة من المهاجرين والأنصار ، ومعهم خالد بن الوليد -سيف الله المسلول - ويوصيه بأن لايقبل من أحد شيئاً إلا الإسلام ، والدخول فيه ، والصبر عليه . . ويأمره بالرفق بالمسلمين في مسيرهم ومنازلهم وتفقدهم ولايعجل بعض الناس عن بعض في المسير ولا في الترحال .

صبر عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) :

نرى معاً موقف من مواقف الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لنأخذ منه العظة والعبرة في مواقف تتكرر كل يوم أمامنا ونقف حيالها مسلوبي الإرادة ، فديننا الحنيف وإن كان يجيز البكاء على الميت متى كان ذلك بدمع العين ، لكنه لايجيز النياحة والندب والصراخ والعويل .

فيوم أن سمع عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) مرة ندباً ونياحة على ميت فدخل بسوطه المكان فوجد به نائحة تتولى قيادة الندب والنياحة بين النساء . . فيضرب الجميع بسوطه ، إلا أنه يشبع النائحة ضرباً حتى يسقط خمارها . . ثم قال لمن معه أضرب معي فإنها نائحة ولا حرمة لها . . إنها لاتبكي لحزنكم وإنما تريق دموعها لأخذ دراهمكم ، إنها تؤذي موتاكم في قبورهم ، وأحياءكم في دورهم ، إنها تنهي عن الصبر وقد أمر الله به ، وتأمر بالجزع وقد نهى الله عنه .

فما أحوجنا اليوم إلى قيمة الصبر لتغرس في نفس المسلم معنى التأني والتجلد والثبات ، ولتوضع ضمن إطارنا القيمي .

والله الهادي إلى سواء السبيل

الحليـــم (وقيمة الحلـم)

الحليم اسم من أسمائه الحسنى واشتقاقه من الحلم وهـو من ضمن أصولنا القيمية ، والحلم في اللغـة هـو الأناة والعقـل ، أو هو اللين ، فإذا قلنـا حلم فـلان حلماً فمعنى ذلك أنـه صـار حليماً ، كـذلك من صفح وستر سمي حليم ، ومن تحلم فقـد تكلف الحلم. أما إذا قلنـا رجل لين في معـاملته بـالجزاء عن السيئـة بـالأناة فمعنى ذلك أنـه يتمهل في تـدبير الأمـور ومفارقـة التعجل.

ومن صفات فعل الله قولنا الله حليم ، ومن صفات ذاته قولنا هو أهل لأن يحلم إذا عصي.

والحليم المطلق هـو الله الـذي يشهـد معصيــة العصـاة ويـرى مخالفتهم لأوامـره ونـواهيـه فلايستفذ ، ولايعتريـه غيظ ، ولايحمل على المسارعة بالانتقـام رغماً من قوة الاقتدار، بل يتلطف بمثوبة الاستغفار.

والقيمة الأخلاقية المستفادة من ذلك الأصل القيمي هي قيمـة الحلم باعتباره قيمة أخلاقية رفيعة تبعد بنـا عن السفه والطيش اللذان في حقيقتهما نقيضان للحلم والتروي ، ولتتكـامل فيه المعاني لخلق قوة إيمانية متكـاملة بالدعاء والرجاء وتنصهـر فيه أخلاق المسلم لتشكل في داخله نبع إرادي للحد من النزوع الانفعالي.

فإذا كـان من خصـائص الـرجل الحليم تأخير العقـوبـة أو الصفح عن المسيء فإنـه لايترك تقديرها أو يصفح دون علم بحال لمستحقها.

يظهـر من الإنسان في مـواقف الإسـاءة والغضب ويصبح تـرفعاً عن الاستجـابـة الفوريـة للنزعات الشيطانية فلايكون التأثـر بالوساوس والظنون ، مع ترك الحمق والغيظ والبعد عن كل تلك المظاهر الانفعالية المؤثرة على السلوك والشخصية.

سمى الله نفسه بالحليم في القرآن الكريم في إحدى عشرة آية ، وذكر الحلم كصفة فعل له في نحـو عشرين موضعـاً. واقترن الحلم بـالغفـر ، والغنى والحلم والشكر في أكثـر من مـوضع في القرآن.

- ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ البقرة - ٢٦٣.
- ﴿لايُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِـاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُـوبُكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ البقرة ٢٢٥.

ففي هـذه الآيـة إخبـار وإعلام بأن الله لايـؤاخـذ النـاس بما يجري على ألسنتهم من سـاقط

الكلام الذي لايعتد به أو من ذكر اسم الله من غير قصد الحلف، لكن المؤاخذة تتم عن قصد عقد القلب عليه وتأكيد بأن الله يسع بمغفرته من يشاء ولايطارد عباده أو يعاجلهم بعقوبته.

- أما في الآية الأخرى التي تحمل عنصراً من عناصر التوازن القيمي وهو الغنى، فالآية قد انصبت على قول الأحسن في رد السائل والصفح عند الحاجة باعتبار أن ذلك أفضل من إعطائه وإيذائه، وتنويه بأن الله مستغنٍ عن الخلق فلاينال من صدقتهم شيئاً ولايعجل بالعقوبة لمن خالف أمره.

وإقران الغنى بالحلم هنا يجب أن يكون له معنى ومغزى فمهما كانت نفسية المسئول من السائل أو مهما كانت نفسية المسئول عند سؤاله فلاتنعكس بها الانفعالية لتوحي بالغضب أو إشاحة الوجه عن السائل أو نهره، أو إعطائه واتباع ذلك بإيذائه أو تعييره بذل السؤال، بل أن ترتسم في نفسك صورة الغنى عن كل ذلك، وبأن الأقدار إذا كانت قد كفتك ذل السؤال ووقوفك مكانه فإنها كفيلة بأن تغنيه من فضله وتسلبك جاهك ومالك، إلا أن الله سبحانه وتعالى له حكمة في ذلك فيمهلك بعقوبته تحقيقاً لحلمه وليفسح المجال لمراجعة النفس والوقوف على حقيقة الغني والمغني الحقيقي. وقال تعالى في الأحزاب ٥١ ﴿... وكان الله عليماً حليماً﴾.

أما عن الآية الثالثة من عناصر التوازن القيمي المتمثلة في العلم، فإن كانت تؤكد علم الله وحلمه فذلك هو علم ماخفي وأعلن، وحلم من يمهل ولايهمل، بل يضع الأمور في نصابها ويدبر أمرها. والآية قد حملت نهي أزواج النبي (ﷺ) عن الشعور بالغضب الذي يسوده الحزن والألم لبادرة الرسول (ﷺ) من زواج زينب بنت جحش وإعطاء الخيار له في استبقاء أو طلاق من يشاء منهن، لأنها تحمل حكماً توجيهياً لأمهات المؤمنين بالرضا من تصرف الرسول (ﷺ) لأنه أمر الله ولامعقب لأمره، وأن مثار الرضا في إكرامهن وتحريم الزواج من بعد ذلك بغيرهن، حتى ولو أعجبه جمالهن وحسنهن.

أما عن الآية الأخرى التي حملت عنصراً من عناصر التوازن القيمي متمثلاً في الشكر المقرون بالحلم وهي:

﴿إنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ التغابن ١٧.

فالآية وإن كانت قد حملت صورة من صور الاستعارة التمثيلية من تشبيه الانفاق والتصدق على الفقراء بمن يقرض الله قرضاً واجب الأداء بضعفين من الأجر والثواب وذلك ترغيباً في الإنفاق وتحبيباً له ليسلم الإنسان من البخل والطمع.

وتأكيد بأن الله يمحو السيئات ويثيب الشاكر على إحسانه ولايعاجل بعقوبة الإنسان رغماً من كثرة ذنوبه، بل يفسح المجال أمامه للتوقي والترقي.

ولما كانت أسباب الغضب كثيرة وتعبيراته مختلفة ونتائجه وخيمة، ولو لاحظنا أن كل حيوان يرضى ويغضب فرضاً الحيوان في الوداعة والحنو، وغضبه في تكشيره والكشف عن أنيابه وزمجرته والانقضاض على عدوه أو قد يجبن عن ملاقاته فيلوذ بالفرار، إلا أن الإنسان عند غضبه وإن كان يكشف عن خلجات نفسه لكن شتان بين انفعالهما، فمن تكريم الله للإنسان أعطاه الحلم كقيمة فارقة بين سلوك هذا وسلوك ذاك. فيه تصان العلائق بين الأهل والجيران والزملاء والشركاء.. يحكم كل مواقف التعامل في الحياة. من ستر وصفح، وليس معنى ذلك أن الغضب مكروه.. بل المكروه أن لايكون له ضابط إرادي.. ذلك لأن من لايغضب يصبح بليد النفس وعاجزاً عن التأثر بما يجري حوله من أحداث.

فإذا كانت قيمة الحلم تكمن في معرفة الغضب.. فذلك هو الغضب المتواضع الذي يعقبه صفح وتسامح عن قدرة واقتدار. أي شرط القدرة على أداء الحلم في مواقف الإساءة والغضب يصبح شرطاً لوجود الحلم والسمو بقيمة الحلم ذاتها.. ذلك لأن العاجز يكف عن غضبه لأنه يخاف من مقابلة الإساءة له لافتقاده إلى القدرة أو أن الجبن يسيطر عليه أو للسببين معاً.

ولكي يتعمق مفهوم الحلم كقيمة عالية في النفس، نرى حلم الأنبياء باعتباره صفة ملازمة لهم.. ذلك هو حلم أبو الأنبياء - إبراهيم- (عليه السلام) الذي قال تعالى في شأنه في سورة التوبة. ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾، وقال تعالى عنه كذلك في سورة الصافات ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾.

أما في مقام الحكماء.. فقد جاء في الأثر بأن قيل لحكيم: (لاتصفح عن عبدك وهو يقصر في خدمتك فيفسد باحتمالك).. فيرد الحكيم برد حكيم: (لأن يفسد عبدي في إصلاح نفسي، خير من أن تفسد نفسي في إصلاح عبدي). ذلك هو الاحتمال الذي فيه إصلاح للنفس.

أما في مقام الاهتداء إلى حيلة لدفع الغضب فقد روي أن أحد السلاطين سأل حكيم عن حيلة ليدفع غضبه فقال له: (ينبغي أن تذكر أنه يجب أن تطيع لا أن تطاع، وأن تخدم لا أن تُخدم فقط، وأن تَحتمِل لا أن تُحمَلْ فقط، وأن تعلم أن الله يراك دائماً. فإذا فعلت ذلك لم تغضب).

وتعالوا معاً أيضاً لنرى مواقف متعددة من خلق النبوة.. ذلك هو محمد بن عبدالله - عليه الصلام والسلام - الذي عرف العلم والحلم والحكمة وشهد له الله (تعالى) بأن قال له في سورة القلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

يقول الرسول (ﷺ) موجهاً أمته: [من أحسن بشيء من الغضب فليلصق بالأرض)، ويوم

أن جاءه رجل ليقول له يارسول الله . . (أوصني ولاتكثر . لعلي لاأنسى). فيقول له [لاتغضب] . . ويكرورها له ثلاث مرات .

ونرى تلك الريح التي نازعت الرجل رداءه فيلعنها . . فيقول له : ﴿لاتلعنها فإنها مأمورة مسخرة، وأنه من لعن شيئاً ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه] .

ولقد كان (ﷺ) لايغضب لنفسه أبداً ولاينتصر لها ولاحتى تغضبه الدنيا ولا ماكان فيها، إلا إذا تعدى الحق . . فيبين في وجهه ثم ينتصر له . . وكيف لايكون ذلك وقد أمره الله تعالى في سورة الحجر : ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ .

ولقد روي أن أعرابي ممن كانوا بحنين كان يلبس نعلين غليظين فداس سهواً في هرج المعركة على قدم الرسول (ﷺ) فضربه بسوطه من الألم فبات الأعرابي ليلته مهموماً لما بدر منه من إيذاءه النبي (ﷺ). إلا أننا نرى الرسول (ﷺ) في صباح اليوم التالي يرسل له رسولاً يستدعيه فيأتيه الرجل خائفاً مذعوراً . . فيطمئنه النبي ويعطي له عدداً من النعاج فدية لغضبه ولضربه له بالسوط وجاء عن أنس (رضي الله عنه) قال :

(كنت أمشي مع رسول الله (ﷺ) وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجبذه جبذة شديدة حتى رأيت صفح - أو صفحة (عنق) رسول الله (ﷺ) قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته . . وقال : (يامحمد، أعطني من مال الله الذي عندك) فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء .

ولما كان معروفاً في الأعراب من غلظة في الطبع وجفاء في المعاملة وتصور الاستحقاق عن نعرة . . جاءه أعرابي يطلب منه شيئاً فأعطاه ثم قال له : [أأحسنت إليك؟] قال الأعرابي : (لا ولا أجملت). فغضب أصحاب الرسول (ﷺ) وقاموا إليه ليفتكوا به فأشار إليهم أن يكفوا ثم قام ودخل منزله فأرسل إليه وزاده شيئاً . ثم قال له . . [أأحسنت إليك؟؟] قال الأعرابي : (نعم . . فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً). فقال له النبي (ﷺ) : [إنك قلت ماقلت، وفي نفس أصحابي من ذلك شيء، فإن أحببت فقل بين أيديهم ماقلت بين يدي حتى يذهب مافي صدورهم عليك!!]، فقال الأعرابي عليّ ذلك . . ولما جاء الغد حضر، فقال النبي (ﷺ) لأصحابه [إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضي، أكذلك؟] . . قال : ﴿نعم . . فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً] . فقال (ﷺ) : [مثلي ومثل هذا كمثل رجل له ناقة شردت عليه فأتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفوراً فناداهم صاحبها فقال لهم خلوا بيني وبين ناقتي فإني أرفق بها منكم وأعلم، فتوجه بين يديها فأخذ من قمام الأرض فردها حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها، وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دُخل النار].

ذلك حديث فيه درس للأناة والتريث وضبط النفس في مواقف الإساءة، وتفهم معاني الحلم والعلم وتربية خلقية ومعالجة موضوعية في مواقف نرى مثلها كل يوم ولانتأثر بها ولانأخذ منها معاني الحلم من اللين والترفق والأناة والتريث... وذلك قليل من كثير مما حوته كتب السيرة والشمائل عن حلم الأنبياء. . أما في مقام الأشخاص فقد انطبعت في ذهننا صور لأشخاص ضرب بهم المثل في الحلم فهذا قيس بن عاصم المنقري الذي دخل عليه أناس يحملون جثة ابنه ويقولون له : (هذا ابنك قد قتله ابن أخيك). . فلم يضطرب أو يجزع، أو يغضب أو يسخط، أو يفك مجلسه. . بل التفت إلى أحد أبنائه وقال له في ترفق : (قم فاطلق سراح ابن عمك ووار أخاك واحمل لأمه مائة من الإبل فإنها غريبة عنا. . فأي حلم ذلك الذي يقترن بالعفو والصفح والتسامح وأداء الدية من والد المفجوع؟ .

وهذا هو الأحنف بن قيس الذي ضربوا به المثل فقالوا (أحلم من الأحنف). فقد روي أن أحد سفهاء البصرة شتمه يوماً شتماً قبيحاً فحلم عنه، ولم يقتص منه، فعوتب على ذلك فقال: (دعوه فإني قد قتلته بالحلم عنه، وسيقتل نفسه بجرأته)، ومضت الأيام وجاء بعد ذلك السفيه ليشتم زياداً وهو أميراً للبصرة، وظن أنه كالأحنف تاركه دون عقاب فما كان من زياد إلا أن أمر بقطع لسانه ويده وبذا قد تحققت نبوءة الأحنف وقتل السفيه نفسه بجرأته وتطاوله.

وذلك هو الأشج بن عبدالقيس الذي قال له رسول الله (ﷺ) [إن فيك لخصلتين يحبهما الله ورسوله. . الحلم والأناة].

ولما كان الحلم راجع إلى وجود العقل في الإنسان إلا أنه أرفع وأشرف منه لأن الله تبارك وتعالى تسمى به، ومن ثم فلا ينبغي لأحد أن يسيء ظنه بأحد إلا بعد الخبرة والعيان والشهادة والبيان. . اللهم إلا إذا رأينا الأعراض تنهش والأموال تسلب والحياة تهدد فإن غضبنا سيكون دليل عظمتنا، ونكون قد اهتدينا بقول الرسول (ﷺ) : [خذوا على أيدي سفهاءكم]. . ذلك لأن السفيه والظالم هما مصدر شقاء الإنسانية.

واعلم يا أخي بأن الغضب لله حمية ترفع الأقدار، ولايكون إلا بثلاث :

١ - ألا تفرق فيه بين قريب وبعيد.

٢ - أن لايغيره منك ترهيب وتهديد.

٣ - أن لايكون لنفسك فيه دافع للشهرة أو الانتقام.

ولايبقى بعد ذلك إلا الإلماح عن الغضب ومظاهره للإلمام به وتوقيه، في مواقف الإساءة حتى لانكدر صفو النفس ونقاءها فما هو الغضب؟.

الغضب:

الغضب مشتق من غضبة الرأس وهي جلدته، وغضب فلان من فلان، أي سخط عليه وأراد منه الانتقام.

ولما كان هناك غضب توجبه الحكمة وهو جنس من العقوبة ينبيء عن عدم الرضا، وغضب توجبه الحمية تعقبه المظاهر الانفعالية المصاحبة لتغير الوجه فتصبح من نتيجته إما خرطمة، وإما برطمة.. في الأولى يكون السكوت على الغضب مع التعبير عنه بتحريك الخرطوم.

وأما البرطمة: وهي تعبير عن الغضب مصحوب بالعبوس والانتفاخ أو اربداد الوجه واحمراره حمرة ممزوجة بالسواد، أو زمهرة العين واشتداد حمرتها، أو الجز جزاً على الأسنان.

وهناك ماينعكس على النفس في الصور الآتية:

إما غيظ وحنق، أو نغر، أو بخع النفس، أو امتاق، أو كبت وكظم.

فالغيظ: ماهو إلا غضب كامن في النفس عجزاً عن التشفي لسبب ما.

أما الحنق. فيه شدة الاغتياظ مع وجود الحقد الذي لايزول إلا بفعل شيء ما تجاه من أغضبك وأغاظك.

والنغر: هو غليان الجوف من الغيظ، وهو مأخوذ من نغران القدر وهو غليها.

وبخع النفس: قتلها من الغم والغيظ.

أما الامتاق: هو البكاء من الغيظ من سرعة الغضب وهو تعبير قد يخفف من وقع الغضب على النفس، وذلك لايستحقه إلا الأطفال والنساء.

أما عن الكبت والكظم: هو أن يمسك الإنسان نفسه ويحبسها على ما فيها منه.

العناصر القيمية لفهم قيمة الحلم

لقد هدانا الله (سبحانه وتعالى) إلى تعدد العناصر القيمية للحلم: التي تتجلى بوضوح في إبراز قيمته، وقد وضح ذلك من السياق القرآني:

من ذلك قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

وفي سورة البقرة أيضاً: ﴿... وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾.

وفي سورة النساء: ﴿... واللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.

وفي سورة التغابن: ﴿... واللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾.

أي أن العناصر القيمية هي: الغفر، والغنى، والعلم، والشكر.

فإقران الله (تعالى) الغفر والغنى والعلم والشكر بالحلم وبصورة التكرار في أكثر من موضع بالقرآن يجب أن يكون له مغزى في نفوسنا.. ولذا يجب أن تكون تلك العناصر هي الهادية لنا في استشراف معناه في مواقف الإساءة والغضب، فإن لم نفهم معنى هذه العناصر لم نفهم معنى الحلم كما يأمرنا به (تعالى)، ويجب أن يتعمق ذلك في إحساسنا لأهميتها.. ذلك لأن الله سبحانه وتعالى إذا كان يمحو ذنب من أناب إليه ولايعاجل بالعقوبة لمن عصاه بل يتكرم بمثوبة الاستغفار، فكيف يكون موقفك أنت أيها العبد في مواقف الإساءة والغضب ومطلوبك الأساسي المعجل والمؤجل أن يغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. فهل تستكثر الصفح والتسامح عمن أساء إليك وأنت تسيء إلى خالقك؟

وإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الغني ذو الرحمة.. يمهل ولايهمل.. يقبل التوبة من عباده ويعفو عن سيئاتهم ويعلم سرائرهم وخفاياهم، وهو المستغني عن الخلق كلهم وعن كل تلك المظاهر الانفعالية.. أفلا يكون ذلك هدياً للرجوع بنا إلى صفاء الفطرة ونقائها، من عدم التأثر بالوساوس والظنون، وترك الحمق والغيظ وغليان الجوف وخلافه خاصة إذا كنت من القادرين على الردع والانتقام ولاتهدف للتشفي وإظهار البطولة.

وإذا كان الله (تعالى) هو الذي لايستبد به غضب ولايعتريه انفعال، بل يقابل الإساءة بالإحسان، ويعظم كل موقف يسير ويزكو عنده القليل من أعمال عباده ويجعل ثوابه للشكر منك وقبولك لطاعته شكراً منه.

ويوم أن تصفو نفسك وتعالج من أدران ما علق بفطرتها فلا يشوب صفائها كدر ولايعتريها هم وحزن وتعلم معنى الصفح والتسامح والأناة والتعقل والرزانة والوقار، ويكون في كلمة الشكر التي تؤديها في مواقف الإساءة والغضب قيمة ومدعاة لوخذ ضمائر المعتدين والمسيئين لإعطائهم درساً في الحلم.

والله الهادي إلى سواء السبيل

الحكم والحكيم (وقيمة الحكمة)

قبل أن نتكلم عن الحكمة كقيمة من القيم. . ستتكلم عن اسمين شريفين تكمن وراءهما الحكمة الإلهية، ومنهما تستمد الحكمة البشرية خصائصها، ذلك هما الحكم والحكيم.

فالحكم والحكيم المطلق هو الله الذي لا إله إلا هو الحكم بين الخلق في الدنيا والآخرة ولا حكم غيره سبحانه، والمحكم للأشياء والمتقن لها.

وإذا كان من حُكمه تعالى ﴿أَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾، فإن من قضائه ألا نعبد إلا إياه، كما قال تعالى في سورة الإسراء - ٢٣ ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ...﴾ فمن حكمته ألا يعذب أحداً من خلقه حتى يبعث الرسل وينزل الكتب.

وتدور تصاريف الحكم والحكيم في اللغة إلى أصل الحكم وهو المنع، أو القضاء والحكم، أو الفصل بين الخصومات.

والقيمة المستفادة من هذين الإسمين الشريفين هي الحكمة، فالحكمة البشرية لايمكن أن تفهم بعيداً عنها، خاصة بعد أن وصف الله تعالى نفسه في القرآن العظيم بصفة الحكيم في عشرات الآيات، ووردت على ستة أوجه[1] أو معان هي : القرآن، والسنة، وعلوم القرآن، والموعظة، والعلم، والفهم.

١ - **الوجه الأول** : (القرآن) باعتباره دين الله وشريعته، وأمر منه لرسوله بالدعوة إليه بأسلوب اللطف واللين - قال تعالى في سورة النحل - ١٢٥ : ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ...﴾.

٢ - **الوجه الثاني** : (النبوة)، وذلك في شأن داود - عليه السلام - الذي أعطاه الله الملك بجانب النبوة قال تعالى في سورة البقرة - ٢٥١ : ﴿... وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ ...﴾.

٣ - **الوجه الثالث** : (السنة) ذلك في معرض إبرازه دعوة إبراهيم الخليل - عليه السلام- قال تعالى في سورة البقرة أيضاً - ١٢٩ : ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ...﴾، واستجابة الله له ببعث أشرف خلق الله- وهو محمد ابن عبدالله (ﷺ) ليعلم الناس القرآن العظيم والسنة وتوضيح ما فيهما من حكمة.

---

١ - منتخب قرة العيون النواظر، مرجع سابق ص ٩٩، وما بعدها.

٤ - **الوجه الرابع** : (علوم القرآن)، وباعتبارها خيراً كثيراً دلت عليه الحكمة - قال تعالى في سورة البقرة - ٢٦٩ : ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ...﴾.

٥ - **الوجه الخامس** : (الموعظة) وباعتبارها حكمة بالغة الغاية في الهداية والبيان للاتعاظ بما شوهد من معجزة انشقاق القمر - وهي من آيات الرسول (ﷺ) الظاهرة ومعجزاته الباهرة - قال تعالى في سورة القمر - ٥ : ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾.

٦ - **الوجه السادس** : (العلم والفهم) وفي حق كلا من داود وسليمان - عليهما السلام - حينما أعطاهما الله الحكمة والعلم الواسع مع النبوة :

قال تعالى في سورة الأنبياء - ٧٩ : ﴿... وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ...﴾.

ولم تكن هذه الآيات هي التي وردت فقط عن هذه الأوجه أو المعاني، بل وردت آيات أخرى وفي مواضع أخرى بالقرآن.

ولما كان مفهوم الحكمة قد تباين في التفكير الإسلامي وأخذ تعريفها الكثير من المفاهيم إلى أن اعتبرت هي العلم والعمل، أو العلم العملي، أو هي العلم الصحيح الذي يمنع صاحبه من ركوب الباطل.. لكن نقول ما هو هذا العلم العملي أو الصحيح؟.

نجد الإجابة على سؤالنا هذا عند الإمام محمد بن أبي حامد الغزالي في كتابه ميزان العمل بأن العلم المستهدف هو العلم بالله وصفاته، ومن ثم فقد أمدنا بإجابة تشفي الغليل وتروي الظمآن.. ذلك لأن العلم بالله وصفاته، هو العلم بتلك الأسماء الحسنى والصفات العليا، التي لها من الخصائص والصفات ما إن وعاها الإنسان المسلم وأدركها على وجهها الصحيح، واتصف بأفعالها، أصبح الإنسان حكيم زمانه ومالك أيامه، فمن عرف جميع العلوم وخبر بتجاربه الحياة بأكملها ولم يعرف الله (تعالى) بأسماءِ وصفاته لم يستحق أن يسمى حكيماً، لأنه لم يعرف أجل الأشياء وأفضلها على الإطلاق.

ولكي نعمق قيمة الحكمة في النفوس سنتناول الإشارة إلى حكمة الله في إرسال الرسل وبعث الأنبياء ومهمتهم واختصاصهم بالحكمة.. وكيف كانت في شأنهم، وكذلك العناصر القيمية لها والتي لاتفهم إلا بها وكما وردت في السياق القرآني.

فعن حكمة الله في إرسال الرسل - قال تعالى في سورة الإسراء - ١٥ ﴿... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، وتلك هي حكمة الله في أن لايعاقب أمة قبل أن يبعث رسولاً إليها يدعوهم إلى البر والخير، وينهاهم عن السوء والشر، وحتى لايدع لأحد منهم عذراً، أو اتخاذهم لأي ذريعة أو أن يسوقوا أحجيتهم في عدم استحقاقهم للعذاب لجهلهم شرائعه :

كذلك قال تعالى في سورة طه – ١٣٤ : ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾.

أما عن مهمة الرسل، فقد كانت محصورة في تبشير من أطاع الله ورسوله، وإنذار من عصى الله ورسوله لكي تقوم الحجة وتتضح المحجة – يقول تعالى في سورة النساء – ١٦٥ : ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ...﴾.

أما عن فضل الله واختصاص أنبيائه بالحكمة وفصل الخطاب، فذلك هو داود – عليه السلام – الذي اختصه الله بها ممثلة في النبوة والفهم وفصاحة البيان، ومايتعلق بالقضاء والفصل بين الحق والباطل – قال تعالى – في سورة ص – ٢٠ ﴿... وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾.

وفي شأن يوسف – عليه السلام – وحينما بلغ منتهى الشدة والقوة ويفاعة الصبا والشباب أعطاه الله الحكم وفقهه في الدين وعلمه التأويل – قال تعالى – عنه في سورة يوسف –٢٢ : وهي سورة خصصت باسمه تكريماً لشأنه ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً ...﴾.

أما في شأن يحي – عليه السلام – فنجد أمراً من الله له بأخذ التوراة بجد واجتهاد بعد أن أعطاه النبوة ورجاحة العقل منذ الصغر، قال تعالى في سورة مريم – ١٢ : ﴿... وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾.

وفي شأن موسى – عليه السلام – حينما بلغ كمال الرشد ونهاية القوة وتمام العقل والاعتدال اختصه الله بالنبوة، وأعطاه الفهم والعلم والتفقه في الدين. . قال تعالى عنه في سورة القصص – ١٤ : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً ...﴾.

وفي شأن عيسى – عليه السلام – ومن أن الله علمه شئون الكتابة وسنن الأنبياء، قال تعالى عنه في سورة آل عمران – ٤٨ : ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ...﴾.

وحتى لايظن الناس أن الحكمة بأوجهها السابقة مرهونة فقط بالأنبياء والرسل، نرى القرآن الكريم قد حمل إلينا الخبر اليقين بأنها من الممكن أن تتعدى إلى البشر العاديين فيمنحها الله لمن يشاء من عباده، فذلك هو لقمان العبد الصالح الذي كان كثير التفكر في ربه، حسن اليقين في هدايته، أحب الله تعالى فأحبه الله ومن عليه بالحكمة تلك المتمثلة في إصابة القول والسداد في الرأي والنطق بها يوافق الحق قال تعالى عنه في سورة لقمان – ١٢ : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ...﴾، وحتى لاتضيع من نسله لما لها من مردود ايجابي على السلوك يوصي ابنه بضرورة مجالسة العلماء وسماع كلام الحكماء لأن الله يحي القلب الميت بنورها، كما يحي الأرض الميتة بوابل المطر.

أما في شأن رسولنا الكريم محمد - صلوات الله وسلامه عليه - فقد أنزل إليه كل الذكر الحكيم لبيانه للناس - قال تعالى في سورة النحل - ٤٤ : ﴿... وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ...﴾.

تلك هي المسؤولية المسنونة التي حملها رسولنا الكريم (ﷺ) فلم تكن مسئولية تبليغ وكفى بل مسئولية بيان أحكام وهداية، وتربية جيل يحمل في عقله ووجدانه أسمى المعاني وأشرفها، وبذا أصبحت سنته توضيحاً للقرآن وبياناً للمراد منه بتفصيل مجمله وتقييد مطلقه وتخصيص عمومه، وأصبح حكمها هو حكم القرآن في ثبوت العلم واليقين والاعتقاد والعمل، فمن لم يعترف بها فكأنه لم يعترف بالقرآن ذاته، فمعرفة القرآن وفهمه مرهون باستيعاب توجيهاتها.

يقول الرسول (ﷺ) [ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه]، ومن ثم أصبح فعله حكم وقوله حكم وتقريره حكم، من خلال توجيهات إلهية له.

العناصر القيمية للحكمة

لو حاولنا معرفة العناصر القيمية التي لاتفهم الحكمة إلا بها لوجدناها متمثلة في :

١ - العلم والإحاطة.

٢ - العزة.

٣ - التوبة.

٤ - التواضع.

وعن العنصر الأول (العلم والإحاطة) - قال تعالى في سورة البقرة - ٣٢ : ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾، وقال تعالى في سورة النساء - ١٣٠ : ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللهُ وَاسِعاً حَكِيماً﴾.

وعن العنصر الثاني (العزة) - قال تعالى في سورة البقرة - ١٢٩ : ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وعن العنصر الثالث (التوبة) - قال تعالى في سورة النور - ١٠ : ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾.

أما الرابع (التواضع)، فذلك من الأصل القيمي المتمثل في (العلي) الذي يوحي بالعلو في حق الله وبالتواضع في حق البشر. قال تعالى في سورة الشورى : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَايَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾.

تلك هي العناصر القيمية لفهم قيمة الحكمة، ومن ثم لاتفهم الحكمة بدونها، فالعلم والإحاطة وحدهما لايجعلك حكيماً إلا بفهم معنى العزة والتوبة والتواضع.

ولما كان الحكيم من البشر والرجل الحصيف هو الذي استحكم عقله وخلصت فطرته فتراه يحكم الأمر إحكاماً ليس فيه خلل، بل ويجعل من عقله رقيباً على وجدانه، ووجدانه مشاركاً لعقله ويهدف دائماً إلى اختيار الوسائل المشروعة لبلوغ أهدافه، لايبخل بالمشورة ولايضن بالخبرة، يستطيع أن يكون صائب الرأي عند اشتباه الآراء والتنازع عليها بما لديه من علم وإحاطة وسعة أفق، ولايخرجه ذلك عن تواضع العلماء وحكمة البلغاء.

أما بالنسبة لعنصر العزة فذلك هو الذي يستهدف منه الحق والنصرة وليضرب بيد من حديد على كل من تسول له نفسه أكل الباطل ونهش الأعراض، ليعيد العدل إلى نصابه بما يحمله من إنصاف ونصرة وفداء، ويصبح ودوداً ومحباً لمن يرى فيهم التقى والصلاح، ويرحم نفسه وغيره من ظلم الظالمين وعبث الطائشين وغدر الخائنين، وأن يكون غنياً بالرضا ومحكوماً بالتواضع. . يعلم دائماً أن رأس الحكمة مخافة الله، ويصبر في البأساء والضراء، ويكون أميناً على علمه وعمله، مجيباً لسائله مسارعاً لنجدته مؤثراً غيره على نفسه، خبيراً بدقات قلبه، حساساً بطبعه وأن يتمثل دائماً بقول رسوله في الأزمات والملمات [اللهم إني لا أسألك رد القضاء بل أسألك اللطف فيه]، ومن ثم نرى أن علاقة الحكمة بالأخلاق علاقة لاينكر مردودها الإيجابي باعتبارها قيمة تحتم بذاتها معرفة الواجب الخلقي تجاه الله والإنسان.

والله الهادي إلى سواء السبيل

الشهيد (وقيمة الصدق)

الشهيد هو الله الذي لا إلـه إلا هو الذي شهد بوحدانيـة نفسـه، وأشهد الخلق على أنفسـهم جميعاً.

والشهيد يذكر ويـراد به الشـاهد، ويقال شاهد وشهيـد من أصل المشاهدة، والشهادة هي الإخبار بما شـوهد، والمشهـد المحضر من الناس، والشهيد القتيـل في سبيل الله وسمي شهيداً لأن ملائكة الرحمة تشهده، وقيل لسقوطه إلى الأرض والأرض هي الشاهدة له.

والشهيد في القرآن على سبعة أوجه أو معان [1]:

أولها: النبي المبلغ - قال تعالى في سورة النسـاء - ٤١ : ﴿. . مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ... ﴾.

كذلك في سورة هود - ١٨ : ﴿. وَيَقُولُ الأَشْهَادُ﴾.

ثانيها: الملك الحافظ - قال تعالى في سورة الزمر - ٦٩ : ﴿. . وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ... ﴾.

كذلك في سور ق - ٢١ : ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾.

ثالثها: أمة محمد - صلوات الله وسلامه عليه - قال تعالى في سورة آل عمران - ٥٣ : ﴿. . فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، كذلـك في سورة المائدة - ٨٣ : ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

رابعها: الشاهـد بالحق على المشهـود عليه - قـال تعالى في سـورة البقرة - ١٤٣ : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ... ﴾، وكذلك في سورة البقرة - ٢٨٢ : ﴿. . وَلاَ يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ... ﴾، وأيضـاً في نفس السـورة ﴿. . وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ... ﴾.

خامسها: القتيل في سبيل الله - قال تعالى في سورة النساء -٦٩ : ﴿. . وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ... ﴾، وفي سورة الحديد - ١٩ : ﴿وَالشُّهَدَاءِ عِنْدَ رَبِّهِمْ... ﴾.

سادسها: الحاضر أو الحضور والوجود - قال تعالى في سورة البقرة -١٣٣ : ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ

---

١ - منتخب قرة العيون النواظر، مرجع سابق ص ١٥٣ - ١٥٥.

إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ ... ﴾. كذلك في سورة النساء - ٧٢ : ﴿ . . إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً ... ﴾.

أيضاً في سورة الفرقان - ٧٢ ﴿والَّذِينَ لَايَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ .

سابعها : الصنم - قال تعالى في سورة البقرة - ٢٣ : ﴿ . . وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ . . ﴾ .

والقيمة المستوحاة من ذلك الأصل القيمي هي قيمة الصدق، وستكلم عنها وعن العناصر القيمية التي تحكمه، لما للصدق من حيوية وأهمية في الحياة وأثره في العقيده فبه يستقر أمر الحق وشيوع العدل والإنصاف وتعم الطمأنينة في النفس والمجتمع وهو وإن كان صفة ملازمة للنبوة إلا أنه يجب أن يكون قيمة ضابطة للسلوك الإنساني ليبعده عن الكذب والافتراء لما لأثر ذلك من شيوع عدم الاطمئنان وإدخال البلبلة في الأذهان وتأثير ذلك على المعتقدات وصرف النفس للهواجس والظنون.

وإذا كان الصدق قد حظي بتعريفات كثيرة من مطابقة الخبر للواقع وحقيقة ما هو مخبر عنه، إلا أنه في عرفنا هو مطابقة التعبير للواقع عن علم يؤدي إلى طمأنينة في النفس ويجلب لها ولغيرها الخير. ذلك لأننا وإن كنا نعيش في عصر طغت فيه وسائل الإعلام وتضاعف فيه خطر الكلمة وأصبحت المعرفة الصحيحة هي قوام حياة الإنسان الدينية والخلقية، ومن ثم فقيمة الصدق لاتكمن في ذاته ولكن فيما يشيعه من طمأنينة في النفس وسكينة في القلب، ولذا نرى أن فصل العلاقة بين العلم والإيمان والبر هو الذي ساعد على عدم تفهم قيمة الصدق وساعد كذلك على بزوغ الكذب وانتشاره. كذلك بعد الصدق عن تلك العناصر القيمية هو الذي فسر الحق في الأخلاق المعاصرة بأنه ليس حقاً بل هو نفعاً، وذلك ما يرفضه الفكر الإسلامي ولايقبله لأن مدار النفع لايصلح لأن يكون معياراً له، لأنه معيار متذبذب غير ثابت وليس مستقر فما ينفع اليوم هو غير ذلك في الغد، وما يظنه الإنسان نافع له قد يكون غير نافع لغيره. لذا نجد المعيار الأصلح والأدوم والأبقى هو مايعود على النفس بالطمأنينة والسكينة ويجلب الخير العام لها ولغيرها. فكأن استبعاد عنصر التوازن القيمي وهو الإيمان في عملية الصدق قد جعل الحق في القيم الاجتماعية حق نسبي، ولم يعد من المثل العليا. وذلك يعد خطأ فاحش ومغالطة مفضوحة في معرفة قيمة الحق الذي يهدف الصدق لكشفه وتأكيده بجانب عناصر أخرى. فإذا ما تجاهلنا عنصراً قيمياً من تلك العناصر المتمثلة في (العلم والإيمان والبر) تدخل الكذب بقوته فيلتبس به والتباس الكذب بالصدق من أخطر أنواع الكذب لارتباط ذلك بالجهد المبذول في القضاء عليه وتعلقه بالنتيجة المستهدفة من وراءه وهي عدم إشاعة روح الأمن والطمأنينة في النفوس وانتفاء خيرها.

فالقول لكي يكون صدقاً أو صادقاً يجب أن يتوافر فيه تلك العناصر القيمية التي سبق إيضاحها، وإذا ماتجاهل الإنسان شيء منها فقد الصدق إحساسه ولم يكن صدقاً، بل ويفقد الإنسان قيمته في نفسه وبالتالي يضيع الحق وتهدر الحقائق.

والإسلام حينما جاء ليعلمنا قيمة الصدق.. فهو لايعلمنا التجرد والإبهام. بل يعلمنا الوضوح والأمان فنراه قد أكد على أهمية عناصر التوازن القيمي في منهاجه، ومن ثم جعل تلك العناصر مرتكزاً أساسياً في كل قول والحكم عليه بأنه صدق أو كذب.

نؤكد ماسقناه.. أو ماذهبنا إليه من قوله (تعالى) في سورة الزمر - ٣٣: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

ففي تلك الآية الكريمة تضمنت أو حملت ثلاث قيم هي العلم، والإيمان، والبر.

فالذي جاء بالصدق جاء به عن علم، أما المصدقون به فهم المؤمنون الذين أطمأن وجدانهم وتلاقى ذلك الاطمئنان مع شواهد لعقولهم. وأما المتقون هم قوم اتقوا الله بأفعال البر وأطاعوا الرسول فنعتوا بذلك.

كذلك قال تعالى في سورة الأحزاب - ٧٠: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾.

وهنا نجد مخاطبة للذين آمنوا وجاء إيمانهم عن علم، لكنه إيمان ناقص فطولبوا بأفعال البر ليحسن الإيمان السليم ويتطابق معه القول السديد.

ثم نرى في السنة المطهرة تأكيداً أيضاً لما ذهبنا إليه.. يقول الرسول (ﷺ): [عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وأن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق، حتى يكتب عند الله صديقاً][1].

ففي الحديث الشريف توجيه باتباع الصدق لما يهدي إليه من بر.. وذلك هو تحقيق لأول عنصر من عناصر التوازن القيمي وهو (البر).

[ومايزال الرجل يصدق، ويتحرى الصدق] وهنا تكمن قيمة العلم وأهميته.. فكيف أصدق وأتحرى الصدق إن لم يكن ذلك عن علم وهذا هو العنصر الثاني.. [حتى يكتب عند الله صديقا] أي مؤمنا حقاً.. وذلك هو العنصر الثالث المدعم للاطمئنان وهو (الإيمان). ثم نرى الرسول (ﷺ) في حديث آخر يقول: [.. فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة][2].

---

١ - من حديث شريف رواه مسلم وله بقية سنذكرها في الشق الخاص بموضعه.

٢ - رواه الترمذي بلفظ «دع مايريبك إلى مالا يريبك فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة»، وجاء في رياض الصالحين بلفظ آخر- ص ٣٩.

ومن هنا نرى أن الإسلام لايعلم أهله الصدق فقط، ولكنه يعلمهم أيضاً كيف يجب أن يكون تلقيهم للخبر عن طريق تمحيصه فإن توافرت فيه عناصر التوازن القيمي من العلم والإيمان والبر فهو صدق. بل نراه يذهب إلى أبعد من ذلك فيعلم أهله أيضاً كيف يجب أن تكون كفالتهم ومسؤليتهم عن الإخبار غير الصادق، «كذلك كيف يكون مسلكهم إزاء الكذب والتضليل»[1]. كما يندد القرآن بالذين يصغون آذانهم للكذب وسماعه وقبول الافتراء.

يقول تعالى في سورة المائدة – ٤١ : ﴿.. وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ..﴾.

وهذه الآية وإن كانت قد نزلت في يهود بني قريظة إلا أن ذلك يعتبر توجيهاً عاماً بعدم السماع والإصغاء لكل ما من شأنه أن يثير الريبة والشك ونزع الأمان والطمأنينة من النفس ويقضي على خيرها.

كما أدان القرآن تكذيب الصادقين ووصف المكذبين بهم بأنهم ظالمون – قال تعالى في سورة يونس – ١٧ : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ...﴾، كما قال تعالى في سورة الزمر – ٣٢ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ ...﴾ فتكذيب آيات الله الظاهرة والباهرة في معناه هو تكذيب للإخبار الصادق.

كما نراه يؤكد بأهمية الجدال بالوسيلة الأحسن وصولاً للحق والوقوف عليه – قال تعالى في سورة النحل – ٢٥ : ﴿... وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ...﴾.

كذلك نجد في القرآن الكريم إشارة إلى عدم توفر قيمة الإيمان في حق الكاذبين الموسومين بالافتراء باعتبار أن الإيمان باعثاً على التصديق والاطمئنان.

يقول تعالى في سورة النحل – ١٠٥ : ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.

كذلك إذا توفر عنصر العلم، ولم يتوفر عنصري الإيمان والبر وصف الإنسان بالكذب والنفاق وقد بان ذلك في قوله تعالى في سورة المجادلة – ١٤ : ﴿.. وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

كذلك إذا وجد العلم والإيمان المتشكك امتنع تحقيق العنصر الثالث وهو البر، ولذا عد ذلك من النفاق والرياء.

قال تعالى في سورة المنافقون – ١ : ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾.

---

١ – انظر في هذا المعنى، الفضائل الخلقية في الإسلام، مرجع سابق ص ١٤٨.

ففي تلك الآية الكريمة نجد اعترافاً بواقع اتضح فيه توفر عنصر العلم - وهو علم المنافقين بأن النبي (ﷺ) رسول الله . . لكن هل غير هـذا الواقع من إعتقادهم البـاطل شيئا . . ومن ثم انتفى منهم الإيمان الحقيقي الذي يدفع للاطمئنان الذي يصبح من أثره التصديق والإقرار، بل كان قولهم هذا لمصلحتهم فقط وبالتالي انتفى تحقيق عنصر البر.

وخـلاصة القـول أن تـوافـر عناصر التـوازن القيمي من العلم والإيمان والبر ضروري لقيـام الصدق وشيـوعه، وأن فصـل العلاقـة بين هذه العناصر جميعهـا يجعل الإنسـان إما كـذاباً أو منافقاً.

عن الكذب والكذابين

الكذاب إما شخص أراد أن ينتقص من الحقيقـة أو يزيد عليها لهدف يخصـه ولايثير سلوكه هذا اطمئنـان النفس ولايكـون مصدراً لإفشاء روح الخير العـام إذ لايتورع عـن الإفتراء والبهتان تحقيقاً لمصلحته.

أما المنـافق فهو شخص يظهر الخير لكنـه يضمر الشر فيخالف قـوله فعله وشره عـلانيته، ونفاقه هذا على قسمين اعتقادي وعملي :

- الاعتقادي : هو الذي يخلد صاحبه في النار.
- العملي يعد من أكبر الذنوب والأوزار.

وفي السنة المطهرة مزيداً من التوضيح . . يقول الرسول (ﷺ) :

[أربع من كن فيـه كان منافقـاً خالصـاً، ومن كانت فيـه خصلة منهـا كان فيـه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا ائتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر] . . ذلك هو المردود الحقيقي لكل منافق سواء كان منافقاً خالصاً أو فيه خصلة من النفاق.

أما الشخص الـذي تعود الافتراء والبهتان وإنا كـان هدفه الاختـلاق للطعن في الحقائق . . إلا أنه اختلاق لايصبح له سند من الحقيقـة عند من يمحصون الأمر تمحيصاً، لكنه ينطلي على أناس كثيرين ولايكون مصدر خير أو أمن أو اطمئنان للجميع.

كذلك الشخص الـذي يتلاشى منـه الإيمان والبر بسبب مراءاته فهـو منافق، وإن تـوفر في حقه عنصر العلـم، لأنه ينسى الله ويتجـه بأفعالـه كلها إلى خلق مصلحـة شخصية إمـا بقول يرضي مستمعاً قصداً منه للتزلف، أو لنوال محبتـه ورضاه وانتظار المقابل منه، ونجد في أسلوب المنافق الـذي يتبع أسلوب المراءاة أنه في حالـة إذا ما غير المتزلف إليـه رأيه أو بدل رغباتـه سارع

المنافق إلى نفي ما كان يثبته، فكأن قيمة الصدق في نظـرة قيمةِ متأرجحة يستخدمها في أغراضه الخاصة والأنـانية. . فإذا سـاعدت الوقـائع على بلوغ مصلحـة قالها، وأن لم تسـاعد على ذلك كذبها، ومن ثم يتضح أن قيمـة الصدق الذي يهدف إليـه الأصل القيمي المتمثل في [الشهيد] قد تعطلت والتبس مفهومها وانحصرت في نطاق أناني ومصلحي.

كذلك المرائي بالإضـافة إلى عدم توفر عنـاصر التوازن القيمي لديه كخلفيـة خلقية تنزع من ذاته قيمة الإخـلاص ولايكون لها عنده أدنى اعتبار فيتجرد من صـدقه حتى مع نفسه ومن تجرد من صدقه حتى مع نفسه، لاشك سيكون كذلك مع الآخرين من غيره.

ومن أجل ذلك نرى القـرآن في معرض حديثـه عن الكذابين والمنافقين يدينهم أشـد إدانة إذ يكرر الـويل للمكذبين عشر مـرات في سورة واحـدة هي سورة المرسـلات، بالرغـم من قصرها بلفظ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، بل ويلعن الظالمين والخراصون على كـذبهم، ونرى انعكاس الكذب على الوجوه بالسواد، والتوعد بالعذاب المهين للكفار، وكل ذلك في الآيات الآتية : في سورة هود - ١٨ ﴿... أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَىٰ الظَّالِمِينَ﴾، وقوله تعالى في سورة الذاريات - ١٠ ﴿قُتِلَ الخَرَّاصُـونَ﴾، وفي سورة الـزمـر - ٦٠ ﴿وَيَـوْمَ الْقِيَامَـةِ تَـرَىٰ الَّـذِينَ كَذَبُـوا عَلَىٰ اللهِ وُجُـوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ... ﴾، وكـذا في سورة الحج - ٥٧ ﴿وَالَّـذِينَ كَفَرُوا وَكَـذَّبُوا بِـآيَاتِنَا فَـأُوْلَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

أما في معرض حديثه عن الصادقين فيشيـد بهم أعظم إشادة فيقول تعالى في سورة الأحزاب -٢٤ : ﴿لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّـادِقِينَ بِصِـدْقِهِـمْ... ﴾، وفي سـورة المائدة - ١١٩ ﴿... يَـوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ... ﴾.

بل جاء تحديدهم على وجه الخصوص في القرآن بأنهم المنبيين، والمهاجرين، والمؤمنين.

ولكي يتعمق مفهـوم الصدق كقيمـة عليا تستنـد إلى أصل قيمي هـو [الشهيد]، وكصفـة ملازمة للنبـوة نشير إلى ما أورده القرآن عن صدق إبراهيم وإسماعيل وإدريس، وصـدق رسوله محمد (ﷺ).

يقول تعالى في سـورة مريم - ٤١ ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْـرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقـاً نَبِياً﴾. وكذا يقول تعالى في نفس السـورة - ٥٤ - ٥٧ : ﴿واذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيل إِنَّهُ كَانَ صَـادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِياً﴾، كذا ﴿وَاذْكُر فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِياً وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِياً﴾.

أمـا في سـورة الفتح - ٢٧ يقول تعـالى عن محمـد (ﷺ) ﴿لَقَـدْ صَـدَقَ اللهُ رَسُـولَهُ الـرُّؤْيَـا بِالْحَقِ... ﴾.

ونرى الرسـول محمد (ﷺ) لم تجتمع لديه خـاصية الصدق فقط، بل اجتمعت لـديه مكارم الأخلاق كلها، ومـراتب القيم جميعها فقد كان خلقـه القرآن، وقال عنه عـز من قائل في سورة القلم - ٤ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ فقـد لازمـه الصـدق منـذ نعـومـة أظفـاره، ولقب قبل الوحي (بـالصادق الأمين)، وشهـد له قومـه - رغم اختلاف عقـائدهـم - فقالوا لـه (ماجـربنا عليك كذبـاً)... ذلك عن صدق الأنبيـاء. . ومن قيمة الصدق أيضـاً جاءت الصـداقة التي ذكـرت في القـرآن مـرتين، والتي اعتبرت هي صـدق الاعتقـاد في المودة، أو اتفـاق الضمائر عليها. . ذلك لأن كل واحـد من الطرفين يضمـر للآخـر مودته لصـاحبه فيصير بـاطنه بمثل ظاهره.

أما في شـأن الصداقـة الحقيقية يقول تعـالى في سورة النـور - ٦١ ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾، وفي سورة الشعراء - ١٠٠ - ١٠١ : ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ، وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾.

وكما جاءت الصداقة من الصدق جاء أيضاً مـايسمى الصداق وهو (المهر) تعبيراً عن الرغبة الحقيقية في إتمام الزواج.

وأصبحت العلاقة بين الصدق وتصاريفـه في الإسلام هي علاقة انتماء للحق وأداء للواجب ومعنى للإخلاص الذي لايخلو منه سلوك كل مؤمن يؤمن بالقيم الحقيقية.

والصدق تتعـدد ضروبه بتعـدد مناشـط الحياة فهنـاك صدق في الطـاعة إذا غمـرها اليقين والإحسان، وصـدق في أداء الواجب إذا لم يقصر الإنسان في تـأدية الحقوق، وصـدق في القتال دفـاعاً عن الحق، وصـدق في الـوفاء لـلأصدقـاء وغيرهم، وصـدق في العزم في مـواقع البأس والشدة. وصـدق في العمل، إلى أن أصبح الصدق هو سيف الله في الأرض لأنـه ما وضع على شيء إلا وقطعه.

فما أحوجنـا إليه كقيمة عليـا تستند إلى أصل قيمي هـو [الشهيد] ذلك هو الله الـذي شهد بوحدانيتـه قبل أن يُشهد عليها أحداً من خلقه لتوضع ضمن إطـارنا المرجعي لتهدي إلى الإيمان والبر وليصبح حداً فاصلاً بين المؤمن والمنافق.

وما أحـوجنا كـذلك إلى فهم لفتـات القرآن للأنظـار والعقول والأفهـام من مغبة العـواقب السيئة ومسبته للمكذبين والمنافقين فما الذي يحملنا على الكذب بعدئذ؟.

قد يقال بأن الـذي يحمل الرجل على أن يكذب أو يحلف بأمر كاذب، هـو خسة المقدار إلا أنه في الحقيقـة فقدان الإيمان وعدم الاعتبـار بقيمة الصدق وعدم معـرفة عناصره القيميـة، ولو علم كل منـا أن الإسلام حينما جـاء. . جـاء ليرسي قيمة الصـدق ويـؤكد على أصلهـا القيمي

المتمثل في الشهيد وأنه حينما تناول الكذب وصنوفه من الاختلاق والبهتان والافتراء . . إلخ باعتبار كل ذلك داخل فيه ونهي عنه، وأنه لم ينه عنها إلا لمردودها السيء على الإنسان والمجتمعات وأثرها في زعزعة الاستقرار وخرم الثقة والتجني والتباغض والتجافي وعدم تحقيق قيم الحق والعدل وصرف النفس عن أوجه الخير مما يزيد في تعطيل قيم البر والإخلاص وانعكاس ذلك على النفس فتتنازع أحوالها بين الشك واليقين، بين الإيمان والاطمئنان والكفر، والخوف والتردد، بين قلب الحقيقة والإعراض عنها وبين اعتقاد خاطىء أو باطل يحل محلها ويجر وراءه أوخم العواقب.

ومن نافلة القول الإلماح بإن صفة المكذب على إطلاقها لاتطلق إلا لمن كذب بالحق. . لكن إذا قيدت فقيل مكذب بالباطل كان ذلك أمراً مستقيماً، فالتكذيب بالباطل أصدق مع النفـ ن التكذيب بالحق الذي فيه إيهام للنفس وصرفها عن الإيمان والبر.

وقبل أن نختتم مبحثنا عن الصدق نتعرض لجواز الكذب من عدمه وما قيل بشأنه تبريراً في مواقع حياتية بل وسنحاول تفنيد ذلك.

أولاً : كما رأينا يذهب القرآن الكريم إلى الإدانة الشديدة بالكذابين والمنافقين.

ثانياً : تذهب السنة الصحيحة إلى عدم جواز الكذب بالمرة، بل نرى في حديث الرسول (ﷺ) الذي يقول فيه [يطبع المؤمن على كل شيء إلا الخيانة والكذب] ففيه إخبار بأن المؤمن مفطور على كل شيء إلا الكذب والخيانة لأنهما عنصران هادمان للثقة والاطمئنان.

أما عن جواز الكذب بما استدل عليه العلماء بحديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط (رضي الله عنها) من أنها سمعت رسول الله (ﷺ) يقول [ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً]، وزاد الإمام مسلم في رواية (قالت أم كلثوم، ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقول الناس إلا في ثلاث : تعني الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل إمرأته، وحديث المرأة زوجها).

فرأينا في ذلك بأن الإمام النووي (رحمه الله) إذا كان قد ذهب إلى تقرير جواز الكذب فإنه أجاز ذلك في بعض الأحوال بشروط قد أوضحها - كما قال - في كتاب (الأذكار) ومختصر ذلك «أن الكلام وسيلة إلى المقاصد، فكل مقصود محمود يمكن تحصيله بغير الكذب يحرم الكذب فيه، وإن لم يكن تحصيله إلا بالكذب جاز. ثم إن كان تحصيل ذلك المقصود مباحاً كان الكذب مباحاً وإن كان واجباً كان الكذب واجباً، وضرب مثلاً لذلك، وذهابه إلى الاحتياط بالتورية.

إن ما ذهب إليه الإمام النووي - رحمه الله - وإن كان هو نفس ما ذهب إليه الإمام الغزالي في احيائه ج٣ ص ١٣٩ - وهما بالطبع لايمثلان النظرة الإسلامية في عمقها وأصالتها وتكاملها . . بل كان ذلك مجرد اجتهاد. ومع احترامنا لهما وتقديرنا لدورهما في الدفاع عن العقيدة لأن كلاً من الإمامين الغزالي والنووي رحمهما الله قد أوضحا كيفية تحصيل المقاصد بالكلام باعتباره وسيلة تجوز الكذب في الأمور المحمودة، إلا أنهما جعلا من الكذب وجوباً غير محرم بل، يصير واجباً، ولماذا؟، هل يكون هناك كذب أبيض وكذب على خلافه أو لتصنيفه وليجعلوا له وجوهاً ومعاني تبدأ بالنهي وتنتهي بالتجوز؟، وحتى لاندخل في تفريعات وفلسفات نقول بأن ذلك الأمر وهو أمر التجوز في الكذب، ليس حجة على ما بان لنا من القرآن والسنة الصحيحة، وبان كذلك في السلوك التطبيقي للخلفاء الراشدين والصحابة أجمعين، بل وتابعي التابعين، وأيضاً لما بان في القرآن من إدانة شديدة للكذابين والمكذبين والمنافقين على ضوء ما سلف.

إذا كانت الثقافة الإسلامية قد تشبعت بروح العقائد والفلسفات الأخرى، ودارت في فلكها، وسارت تدور وتدور فيوم أن تبنى أفلاطون الفضيلة قلنا الفضيلة . . ويوم أن ظهر علينا أرسطو بنظرية الوسط . . قلنا عندنا الوسط، ويوم أن أجاز أفلاطون الكذب في سبيل دولته المزعومة . . أجزناه، فأي هوية وأي انتماء لنا؟.

إننا لانشكك في مقدرة عالمين جليلين من علماء الدعوة الإسلامية ولكن مانود التأكيد عليه هو أننا لانتقاد في فكرنا إلا لكل حق، وحبذا لو كان ذلك الحق يعيش في وجداننا قبل عقولنا.

أما عن حديث أم كلثوم (رضي الله عنها) ودلالته مع زيادة الإمام مسلم فلايكشف ذلك عن جواز الكذب بل فيه نفي الكذب عن كل ما من شأنه الصلح وتنمية الخير وقول الصدق، وسيكون لنا وقفة بعد تحقيق رواية الإمام الطبراني في الحديث السابق الإشارة إليه ففي ذلك الحديث ضعف لوجود محمد بن جامع العطار[1]. وإضافتنا في ذلك المقام هي :

أن الأصل في الصدق هو وجود الاطمئنان وتنمية أوجه الخير تحقيقاً للإيمان والبر وصرف الفكر دائماً نحو الحق والعدل ومن ثم فكل عمل يتنافى مع ذلك ليس بصدق.

أما ما يقال بأن الكذب في الحرب جائز، أو أن الحرب خدعة تجيزه. فنقول بأن الحرب لم تكن لتقوم إلا بنقض عهد أو للدفاع عن أمان النفس وسلامتها . . أي تقوم من أجل الكذب في العهود أو نقض المواثيق أو التعرض للحياة المادية والعقلية والدينية.

١ - انظر الفضائل الخلقية في الإسلام، مرجع سابق ص ١٦١ وما بعدها.

فإذا كان نقض العهد قد أوجب الحرب فلأنه أنشأ موقفاً جديداً يسلب الأمان والاطمئنان فاتخاذ العدة والتعتيم - كما يقال . . واجب - ذلك لأنك تريد الانتصار وترد الأمان إلى نفسك، ولايمكن أن تذهب إلى خصمك وتقول له إنك لن تحاربه لأنه ينتزع منك الاطمئنان والأمان، خوفاً من أن لاتضحي بقيمة الصدق . . فنشؤ موقف جديد وهو (نقض العهد) أو خلافه ترتب عليه عدم الصدق فيه وهو الذي جعل اتخاذ السبب المشروع واجباً في رد الأمان والاطمئنان . . فكأنك بعملك ذلك قد حققت عنصراً قيمياً هامًا من عناصر التوازن القيمي ومردوده على النفس وهو الأمن والاطمئنان للتنعم به .

أما بالنسبة للصلح بين إثنين فلاشك أن الصلح في حدا ذاته خير . فيه تزال الشحناء والبغضاء ويتحقق عنصر هام من عناصر التوازن القيمي وهو (البر) . . لكن إذا اتبعنا أسلوب العجزة في الإصلاح باستعمال الكذب أو التأليف لتزيل عن النفس ماعلق بالخصومة . . فتلك هي معالجة الخطأ بخطأ آخر، بل المفروض أن يتخذ الإنسان سبيل الدعوة الصحيحة في إنهاء الخلاف وذلك بالأسلوب الأحسن . . لا بالتأليف أو الكذب . . ويكفي أن السنة الشريفة تقدم لنا في هذا المقام حلاً شافياً لو تفهمناه ووعاه كل واحد منا لزالت الخصومات وقلت الشحناء، ولما أصبح هناك مكان لما يسمى الكذب الأبيض أو بجوازه .

فالسنة تؤكد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . ولايمكن أن يكون الكذب من ضمن المعروف المتداول لقيام حق أو إصلاح ذات بين . . بل فيها مايوجهنا إلى أن نيسر الأمر ولانعسره ونبشر به ولاننفر منه .

يقول الرسول (ﷺ) : [يسروا ولاتعسروا وبشروا ولاتنفروا][1] .

كذلك [لايحق لمسلم هجر أخاه فوق ثلاث ليال][2] لما في الهجر من القطيعة .

أما فيما يختص بالظالمين وقهرهم لعباد الله والضعفاء ومطاردتهم . . وبأن الحرص على حياة الضعفاء منهم يقتضي الكذب على هؤلاء الظالمين أماناً لأرواح المظلومين . . فنقول بأنه لولا التراخي عن الظالمين ما كان هذا مسلكهم . . بل ويجب الوقوف في وجههم بكل حزم وعدم السكوت على ظلمهم ولو اقتضى الأمر إلى جهد جماعي منظم لدرء الظلم وإبعاده بعد التحقق من وقوعه بالفعل .

أما عن حالة الرجل الذي يرضي إمرأته أو المرأة التي ترضي زوجها باستعمال الكذب

---

١ - رواه البخاري ومسلم .

٢ - رواه البخاري ومسلم ، والحديث بتمامه [لايحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام] وجاء بلفظ آخر [لايحل لمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال] .

إجازته. . فتلك وسيلة ضعاف الشخصية الذين لاتثق فيهن زوجاتهن أو هم لايثقون في زوجاتهن فيضطرون للحلف بأمور كاذبة إقناعاً وتضليلاً واللجوء لاختراع قصص كاذبة تكون مبرراً إزاء مسلكهم. . وحقيقة الأمر بأن ذلك لايغير من الأمر شيئاً. . فإعادة الثقة ليست رهناً بالحلف الكاذب. . بل بصدق الإنسان مع نفسه ومع غيره.

أما عن الدكتور الذي يحجب حقيقة المرض على المريض فيضحي بالصدق في سبيل الكذب لصون حياة المريض، فذلك كله تبرير واه لايغير من طبيعة الكذب واسمه فقد يكون في حجب حقيقة المرض عن الإنسان دافع إلى عدم اطمئنانه على حياته وتآكل نفسيته. . بل ومدعاة لليأس والقنوط ومجلبة للهم والنكد. . فنقول بأن أسلوب المصارحة في هذه الحالة أدعى لأمان المريض الخائف على حياته. . فسرعان مايتوجه الإنسان إلى ملاذه الأخير وهو خالق الكون طلباً في رحمته مؤملاً الوثوق في كشف ضره. . ومن ثم يكون الإنسان قد وضع قدمه على بداية الطريق الصحيح للإيمان بتوجهه الحقيقي لمن لايكشف ضره إلا سواه. . فإذا توافر في حقه ذلك من رجاء الله والخوف من ذنوبه وتعليق أمل الشفاء عليه - بصدق وإخلاص - مَنَّ الله عليه بالشفاء وكشف ضره، وكم من مريض نفخ الله في صورته وعوفي.

ولقد ساقت لنا السنة المطهرة في هذا المقام حديث الرسول (ﷺ) من أنه دخل على مريض فقال له: (كيف تجدك؟) فقال: أرجو الله وأخاف ذنوبي. . فقال (ﷺ): [ما اجتمعا في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله مايرجوه وأمنه مما يخاف].

فقول الأحسن دائماً له مصداقية لاتدانيها مصداقية مصطنع أو متكلف ولها مردود إيجابي على العقيدة والسلوك. . وأن لاننسى ذلك التوجيه الكريم لنبي عظيم قيل له بصيغة آمره على الوجوب والتلطف ﴿وَقُل لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾.

وعلى ضوء ماسبق فإن القول بإجازة الكذب في الإسلام فيه إغفال لما ذكرناه من شواهد عقلية ونقلية.

فالصدق عماد الأمر، وبه تمامه، وفيه نظامه، وهو ثاني درجات النبوة. . ألا نحب نحن أن نكون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء؟.

ولايبقى بعد ذلك إلا بيان أثر الصدق في نفوس المؤمنين أنفسهم. . ذلك هو الرضا الذي يجلب الاطمئنان والحمد. وقد عبر القرآن عن ذلك بقوله عنهم ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ ولم يكن ذلك في صدق الوعد فقط. . بل وفي صدق النصر الذي ينعم به الإنسان إذا قال: ﴿. . رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِي مِن لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً﴾.

العناصر القيمية للصدق

تكمن العناصر القيمية لفهم قيمة الصدق في معرفة :

الإيمان ، والعلم ، والبر كما سبق أن أوضحنا .

(وراجع ماكتب عن كل قيمة)، لأن مدار الصدق اطمئنان النفس وأمانها وتحقيق خير النفس وخير الأنفس جمعاء، لا التشكيك الذي يهز الثقة ويشكك الملايين.

والله الهادي إلى سواء السبيل .

العـــدل (وقيمة العدل)

العدل اسم من أسماء الله الحسنى وهو في الأصل مصدر سمي بـه (سبحانه) فوضع موضع وصف (العادل) لأن في لفظ العدل بلاغة وحكمة في الدلالة على صفة العدالة المطلقة.

ووردت مادة (ع د ل) بمشتقاتها مايقرب من ثلاثين مرة في القرآن الكريم.

كذلك وردت مادة (ق س ط) خمساً وعشرين مرة وهي تطلق في عدل الأموال، وكل ماله عد أو وزن أو كيل وهي تعنى النصيب والحصة.

والفرق بين العـدل والقسط، أن القسط هو العدل البين الظـاهر ومنه سمي المكيـال قسطاً والميـزان قسطاً، لأنـه يصـور لك العـدل في الوزن حتـى تراه ظـاهـراً، وقد يكـون من العـدل مايخفى، ولهذا قيل أن القسـط هو النصيب الذي بينت وجـوهه، وتقسط القوم الشيء تقاسموا بالقسط[1].

وقد قـرب لنا الإمام الغـزالي - رحمه الله - مفهوم العدل إلى أذهـاننا فيقول بأن معنـاه العادل الـذي يصدر منـه فعل العدل المضـاد للجور والظلم، ولن يعـرف العادل من لم يعـرف عدلـه ولايعرف عدله من لم يعرف فعله، فعـدل الله هو فعل الله في خلقه وفي كون ذلك الفعل الذي لم ير فيه من تفاوت بل جاء بترتيب خـاص، ومن ثم فهو في صميم معناه وضع الشيء في موضعه السليم الملائم له واللائق به.

ومعـروف أن كل الرسـالات السماوية جـاءت لتقر في الأرض وفي حيـاة الناس معيـاراً ثابتـاً ترجع إليه البشرية جمعاء لتقويم الأعمال والأحـداث والأشياء حتى الرجال، وتقيم عليه حياتهم في مأمن من اضطراب الأهواء واختلاف الأمزجة وتصـادم المصالح والمنافع، ميزاناً لايحابي أحداً لأنه يزن بالحق الإلهي للجميع ولايحيف على أحد لأن الله رب للجميع.

قال تعالى في سورة الحديد - ٢٥ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

كـذلك نرى تـوجيهه للحكم بين النـاس بالعـدل.. فقال تعـالى في سورة النسـاء - ٥٨ :

---

١ - الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ص ٢٢٩.

﴿... وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ...﴾.

فالعدل هـو الضمان الوحيد للبشرية من العواصف والهزات، ومن ثم فالحياة بلا كتاب أو ميزان يتسرب إليها الفساد. . إما فساد الحرص على أن يأخذ الإنسان كل ماتقع عليه عينه دون أن يعطي، أو أن يثرى على حساب غيره ويعتبر جهد الآخرين جهداً له وعرق الأشقياء حلاً له. . إلى آخر مظاهر الجور والحيف والجنف والضيم، والشطط والاضطهاد والإرهاق والبغي والعدوان، وكل تلك المعاني التي هي منبع الظلم، سواء كان ظلم الإنسان لنفسه أو لغيره.

جاء العدل في القرآن الكريم على ستة أوجه[1] أو معان :

أولها : (الفداء) قال تعالى في سورة البقرة - ٤٨ ﴿... وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ...﴾.

وكذلك في سورة الأنعام - ٧٠ ﴿... وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا ...﴾.

ثانيها : (الإنصاف) قال تعالى في سورة النساء - ٣ : ﴿... فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾، وأيضاً في نفس السورة - ١٢٩ ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ ...﴾.

ثالثها : (القيمة) قال تعالى في سورة المائدة - ٩٥ : ﴿... أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا ...﴾ أي قيمة ذلك يصام عنه.

رابعها : (الشرك) قال تعالى في سورة الأنعام - ١ : ﴿... ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي يشركون.

خامسها : (التوحيد) قال تعالى في سورة الأنعام - : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾، وقيل أراد بالعدل هنا كلمة التوحيد وهي (لا إله إلا الله).

كذلك لايمكن أن نفهم معنى العدل دون أن نفهم المعنى المقابل والسلبي المتمثل في الظلم فنراه قد ورد ذكره في القرآن على ستة أوجه[2] أو معان يجدر بنا بيانها.

هي الظلم نفسه، والشرك، النقص، الجحد، السرقة، الإضرار بالنفس.

الأول : (نفس الظلم) قال تعالى في سورة البقرة - ٣٥ : ﴿... فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، وفي سورة آل عمران - ٥٧ : قال تعالى ﴿... وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

الثاني : (الشرك) قال تعالى في سورة الأنعام - ٨٢ : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ...﴾.

---

١ - نزهة الأعين النواظر، مرجع سابق، الجزء الثاني ص ٥١ - ٥٢.
٢ - منتخب قرة العيون النواظر، مرجع سابق، ص ١٧٣ - ١٧٤.

الثالث : (النقص) قال تعالى في سورة النساء - ٤٩ : ﴿... وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾.

الرابع : (الجحد) قال تعالى في سورة الأعراف - ٩ : ﴿... بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾.

الخامس : (السرقة) قال تعالى في سورة المائدة - ٣٩ : ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ ...﴾، وفي سورة يوسف - ٧٥ : ﴿... كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

السادس : وهو (الإضرار بالنفس) قال تعالى في سورة البقرة - ٥٧ : ﴿... وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، وفي سورة هود - ١٠١ : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ...﴾.

والظلم في اللغـة : هو التصرف فيما لايملك التصرف فيه، أو هو وضع الشيء في غير موضعه فهو نقيض العدل.

وعلى ضوء بيان ذلك نستطيع أن نقول :

إذا كان العدل في الإسلام قد حمل معنى الفدية فهنا تكمن سمو قيمة العدل. ذلك لأن التكفير عن الذنب إذا تم بالفدية فإن النفس التي قبلت الأداء قبلته خوفاً وطمعاً. خوفاً من العقاب النفسي. وطمعاً في الثواب الأخروي، ومن ثم حينما أدته فإنها تؤديه عن طيب خاطر بدافع من العقل والوجدان وكما يجب شرعاً لإبعاد عنصر الذنب عن النفس. لأن الذنوب إذا تراكمت على النفس دون فدية ران على النفس الغضب الذي يكدر صفوها ويجعلها دائماً في حالة من الإحساس بالذنب.

فالفدية باعتبارها عدل تطهير وتنظيف مستمر للنفس من أثر الشرور والآثام التي وقعت فيها.

لكننا نستطيع أن نقول بأن هناك شرور وآثام يرتكبها الإنسان لايقبل عنها عدل منه ولا فداء. ذلك هم الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا. فعاثوا في الأرض فساداً وماتت ضمائرهم. وتبلد إحساسهم. ولم يعرفوا عن التقوى شيئاً. أو هدف الفداء والفدية في الإسلام، يقول تعالى في سورة الأنعام - ٧٠ ﴿... وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَيُؤْخَذْ مِنْهَا ...﴾.

أما فيما يتعلق بالفدية الواجبة باعتبارها تطهير وتنظيف، خاصة فيما يتعلق بفدية الاذى في الحج. يقول تعالى في سورة البقرة - ١٩٦ : ﴿... فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ...﴾.

فنرى الشريعة قد حددت الصوم بثلاث أيـام، والصـدقة بإطعام ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من طعام والنسك شاة، ويكون على القادر أدائها.

والآيـة الكريمـة وإن كانت قـد نزلـت في كعب بن عجرة.. إلا أنها تعـد حكماً عاماً لكل المسلمين في معرفة تقنين فدية الأذى.

وما نـود التأكيد عليه في معرض الفـدية هو أن تقنين الفـدية بصفة عامـة ليـس متروكاً لبشر ليقننـوها، بل بـاعتبارهـا وجهـاً من وجوه العـدل يختص بتقنينهـا الله تعالى حتى لايتـدخل في تقنينها أحد، ولسوف يكون لنا وقفة عن الفـدية في معرض السلوك التطبيقي للرسول (ﷺ) وما نزل بشأن ذلك التقنين لبيان عظمة المشرع وعلمه وحكمته.

أما عن مجال الإنصاف باعتباره وجهاً آخر من وجـوه العدل.. وجعل التسوية فيه هدفاً.. فنحن كبشر لانستطيع أن ننصف المظلـوم من الظالم دون أن يحس الظـالم أن هناك ظلماً وقع بـه نتيجـة لإنصاف مظلـومه منـه.. ذلك هو غـاية الإنصـاف، ولايقدر على ذلك إلا رب العـزة والجلال.

أما عن التسويـة في خصوصية المعاشرة الزوجية ذاتها التي لايحكمهـا إلا صلة الوداد والحب فأمرهـا صعب على الإنسان، ذلك لأن تحقيق عدل النصفـة بين زوجة وأخرى متعذر الإطـاقة لخروجه عـن الاستطاعة.. لأن ميل القلـب من جهة لجهـة دون أخرى هو المسـؤول عن ذلك ومن ثم نجـد الآية الكـريمة قـد نوهت إليـه.. أي بـانتفاء الإطـاقة وبـالطبع لم يتحقق معنى الإنصاف الكامل حتى مع وجود الحرص على تحقيقه.

ونرى أنه لم يقتصر العـدل في القرآن فقط على الفدية والإنصاف بل كانت القيمـة هي الوجه الآخر له. فلو نظرنـا للآية الكريمة التي أشارت إلى اعتبار العدل هو في حد ذاتـه قيمة لوجدنا ذلك قد وضـح عن جزاء قتل الصيد أثنـاء الحج والعمرة.. وقـد أتت الآية ببـدائل واختيارات تـدور في فلك العدل والفـديـة فأوضحت الحكم بالمثل والقيمـة، والمثل والقيمـة وإن كانـا في حاجـة إلى مشرع ليعادل النصاب المعياري الصحيح للجـزاء أو الواجب الأداء خاصـة إذا كان المثل مختلف الجنس.. ومـن ثم نفهم بأن القيمـة سـواء كـانت لشيء مـادي مقيم أو لشيء معنوي غير مقيم هي بـذاتها العدل. ذلك وحده يعطينـا دلالة على أن القيمة في الإسـلام سواء كانت مادية أو معنـوية ليست هي الخير المقال به في التفكير الغربي أو اعتبارهـا مرادفة له، بل هي العـدل في الإسلام، فـإذا كان العـدل والخير يهدفـان إلى تحقيق الصلاح والإنصـاف إلا أن القيمة بـاعتبارها عدلاً يخرجهـا الإسلام عن واقع الالتباس بخصوصيـة النفع الملازمة للخير.

لأن العدل الإسلامي لايحابي أحداً بقصد نفعه . . بل يهدف لتقويم سلوكه وإعطاء كل ذي حق حقه بغض النظر عن أن ذلك خير أو نافع له من عدمه ، ليعيش الكل في مأمن من اضطراب العواطف والأهواء .

أما عن الشرك والنقص والجحد . . فذلك يتعلق بقضية الاختيار الأصح في الوجود . . فمعرفة الله ومنهجه ثم الابتعاد عنه ، بل وإشراك غيره معه فيه معادلة له (تعالى) عن ذلك علواً كبيراً ، وكذلك معادلة حكمه بحكم غيره . . ذلك هو الكفر بعينه . . وما الكافرون إلا ظالمون .

يقول تعالى في سورة المائدة – ٤٥ ﴿... وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ .

كذلك في نفس السورة – ٤٤ ﴿... وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ﴾ .

أما عن التوحيد باعتباره عدلاً . . فذلك هو محك التجربة الإيمانية الصحيحة . . فرد الحكم والتشريع إلى الله في العقائد والأخلاق أو العبادات والمعاملات واجب بعد معرفة الله بأسمائه وصفاته . . فالمعتبر في التوحيد الحقيقي ليس هو الإيمان فقط الذي هو تصديق حكمي فإن ذلك من حديث النفس ، وإنما التمام فيه والكمال حصول صفات منه تتكيف بها النفس وتنعكس على السلوك . . ومن ثم يصبح الانتماء للعقيدة انتماءًا توحيدياً بمعناه العام والخاص والذي يصبح في حد ذاته عدلاً إذ ما نطقنا بالشهادة وعدلاً إذا ما انقدنا لمنهجه وعملنا بما أمر به الله ونهى .

ولكي نتفهم قيمة العدل والعدالة ونبذ الظلم والظلمات . . نرى الله سبحانه وتعالى يضرب لنا الأمثال في القرآن ونرى السنة المطهرة قد ساقت إلينا أروع الأمثلة في الحرص على مضمون العدل بأوجهه أو معانيه تحقيقاً للعدالة المنشودة في الإسلام . . ولسوف نرى ذلك كله واضحاً في السلوك التطبيقي لأمة الإسلام الأولى .

كذلك نرى الله تعالى في كتابه العزيز يشير إلى عاقبة الظلم . . ويتكرر ذلك في السياق القرآني مئات المرات ، سواء كان ظلم الإنسان لنفسه أو ظلم الإنسان لغيره . . وكذا عشرات المرات في مواطن التحذير منه والتنديد لأهله والأمر بالابتعاد عنه وتحريمه . . يقول تعالى في سورة البقرة – ٥٧ : ﴿... وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ، وفي سورة الفرقان – ١٩ ﴿... وَمَنْ يَظْلِمْ مِنكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً﴾ ، وفي سورة إبراهيم – ٢٢ ﴿... إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ، وفي سورة الشورى – ٤٢ ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ، وفي سورة طه – ١١١ ﴿... وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً﴾ .

هذا عن القرآن . . أما عن السنة . . فنجد من الأحاديث القدسية المروية عن الله تعالى الآتي :

[ياعبادي إن حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرماً بينكم فلا تظالموا] رواه مسلم .

ثم نرى كذلك إدانة شديد ليس للظالمين فقط . . بل لأعوانهم وخروجهم من تحت مظلة الإسلام بل وبراءة ذمة الله ورسوله منهم .

يقول (ﷺ) [من مشى مع ظالم ليعينه - وهو يعلم أنه ظالم - فقد خرج من الإسلام] رواه الطبراني . . [من أعان ظالماً ليدحض بباطله حقاً ، فقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله] عن ابن عباس رضي الله عنهما .

ويذهب الرسول (ﷺ) إلى أبعد من ذلك فيحض على مقاومة الظلم ، ويحذر من مغبة التقاعس عن ذلك ، والأثر السيء الذي يتعدى من جزاء ترك الظالم . . فيقول (ﷺ) [إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله تعالى بعذاب منه] .

أما عن الذين يعملون الصالحات وموقنون بها يفعلون . . فلايخافون ظلماً . . ولايهضم لهم حقاً ، يقول تعالى في حقهم في سورة طه - ١١٢ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَايَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً﴾ . . وكذلك عن أناس لهم الأمن وهم مهتدون إلى مايفعلون . . إذ لم يلبسوا إيمانهم بظلم ، يقول تعالى أيضاً في حقهم في سورة الأنعام - ٨٢ : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ .

ذلك عن الظلم ، أما عن العدالة في الإسلام فنجدها لاتفرق ولم تعرف العصبية أو التمايز . ذلك لأن العدل عدل لكل الناس والأجناس فلاتحرمه العداوة والبغضاء .

يقول تعالى في سورة المائدة - ٨ موجهاً الذين آمنوا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ... ﴾ .

كذلك نرى مايحض المسلمين على البر بغيرهم من غير المسلمين . . فليس العدل فقط هو الواجب معهم ، بل البر بهم أيضاً . . وأن يتمتع الكل بخيرات المسلمين وخاصة أصحاب الكتاب . . فحفظ أموالهم ودماءهم ورعاية حقوقهم وعطف المسلمين عليهم واجب . . مادامو مسالمين وحريصين جميعاً على وحدة أوطانهم . . يقول تعالى في سورة الممتحنة - ٨ ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ، كذلك العدل الإسلامي لايحابي منطق الأقرباء في القول والشهادة . فالأقربون وإن كانوا أولى بالمعروف فهم أولى به ليس على حساب العدل بل في زمام البر، يقول تعالى في سورة الأنعام - ١٥٢ ﴿ ... وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ... ﴾ .

أما عن المساواة في الإسلام التي هي هدف النصفة . . نقول بأنها ليست المساواة المطلقة . . أو المساواة في الإمكانات . . بل في للمكنات ليتحقق بذلك عنصر تكافؤ الفرص وإبعاد التفاضل والمحاباة . . فإذا كان الكل يتمتع في الإسلام بحقوقه الإنسانية ويلتزم بمسؤلياته وواجباته الدينية والخلقية ، والكل يتزاحمون على موارد الثروة أو الكل يبذلون مافي وسعهم من جهد وهم في كل ذلك سواسية ، أما إذا اختلفت ثمار جهودهم فللكل ثمرة عمله . . والإسلام وإن كان يغفل الفروق العنصرية في تمييز الأفراد وتقريب الحقوق والواجبات لكنه لايغفل الفروق الناشئة عن الجهد الفردي الحر . . وحتى إن ظهر التفاضل فهو تفاضل لايقوم على أساس التمايز . . بل يصبح معياره التقوى . . التفاضل في الإسلام خلافاً للتمايز. التفاضل فيه يجعل الإنسان يسعى دائماً إلى الأحسن تشوقاً ومهتدياً . . أما التمايز فيشل حركة الإنسان عن السعي اعتماداً عليه .

كذلك نرى الإسلام يؤكد على الأخوة في زمام المساواة . . ولايجعلها أخوة نسب فقط بل يربطها برباط أقوى وأبقى وأدوم من رباط النسب . . تلك أخوة العقيدة التي تُفضل بحسب درجات التقى ولاتجنح للتمايز والمحاباة .

فالمساواة المستهدفة في الإسلام هي المساواة في القيمة الإنسانية وفي أصل النشأة وكل مراحل الأطوار التي تتعلق بخلق الإنسان وتتصل بنشأته ومصير حياته دون النظر إلى مايلابس ذلك من اعتبارات عرضية أخرى كالجنس واللون وأسلوب الحياة وظروف المعيشة ، كذلك في العقيدة والتكاليف الدينية والمسئولية والجزاء والحقوق والواجبات العامة ، ومن هنا يجد التساوي المطلق . فإن لم تكن هناك فروق بين الطبقات ونشأ الاستواء بينها لما طولبنا بقيام العدل . . فمنشأ الفروق بين الطبقات أدعى لوجود العدل ولتقريب ذلك التفاوت وإشاعة روح العدل والإحساس بالمساواة وإبعاد التمايز وتثبيت التفاضل على أساس الجهد والجدارة والعمل الفاضل .

هذا هو العدل في الإسلام . . عدل الرحمة التي لاتفرق بين بر وفاجر ومؤمن وكافر وقوي وعاجز، وعدل القيمة الحقيقية والنصاب الواجب الأداء عقلاً وشرعاً . . ولو عرجنا لمعرفة قيمة العدالة عند الأمم الأخرى . . نرى أنها لايفهم منها إلا مجرد «تعويض المعتدى عليه عما أصابه على يد المعتدي ، لدرجة أنه إذا دفع المعتدي تعويضاً للمعتدي عليه سار بين أقرانه رافعاً الرأس كشأن من لم يقترف جرماً ، بل كان أحياناً يمن على المعتدي عليه في أن المعتدي كان سبباً لما وصله من خير ونعمة في شكل تعويض عما أصابه[1] .

---

١ - فلسفة الأخلاق وصلاتها بالفلسفة الإغريقية ، د. محمد يوسف موسى .

كذلك لم يكن العدل عند العرب ولا عند اليونان أو اليهود أو النصارى بمثل هذه الخاصية التي تتجاوب مع الفطرة السليمة والتي تغفل كل تفرقة عرقية أو عقائدية، فكان وما يزال العدل اليهودي قائماً على الثأر والانتقام، والعدل المسيحي لايوجد إلا بمطلق السماح.

وفي الجاهلية الغبراء لم يكن للعدل أساس سوى معيار القوة، فلقد وجد «المشرع الجاهلي أن من الحيف إعطاء الطفل إرثاً وهو طفل لايستطيع الطعن بالرمح ولا الضرب بالسيف[1]، وكذلك حرمان الكبار منه مادامت ليست لهم القوة أو المقدرة للطعن أو الضرب بالسيف أو الذب عن العرف والتقاليد»[2]. . وقد كان العرب يقتلون غير القاتل من الأقرباء والموالين ويسرفون في التنكيل إظهاراً للقوة والمنعة. . فجاء العدل الإسلامي وأرسى مفهوم ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، وأن ﴿لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَاسَعَىٰ﴾. . ونجده أعطى بدائل واختيارات تدور في فلك العدل والفدية. . فمثلاً كان في بني إسرائيل القصاص ولم يكن فيهم الدية، وكان في النصارى الدية ولم يكن فيهم القصاص. . فجاء الإسلام وخير أمته بين القصاص والدية والعفو، بل جعل من العفو فضلاً تطمح إليه النفس عن رحابة صدر دون تشفي وانتقام.

العناصر القيمية للعدل

تتحقق العناصر القيمية لفهم قيمة العدل في معرفة كل من :

١ - العلم.

٢ - الحق.

٣ - الصدق.

٤ - الحكم.

- عن العنصر الأول. . لاشك أن عنصر العلم يصبح من ضمن العناصر القيمية لإرساء العدل أو لتحقيق العدالة بين الناس. . وقد ورد ذلك العنصر في القرآن الكريم كعنصر توجيهي للرسول (ﷺ) على النحو الآتي :

يقول تعالى في سورة النساء - ١٠٥ : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ... ﴾.

فذلك توجيه حكيم لرسول كريم بأن يكون حكمه بما أراه الله وأعلمه دون الالتفات إلى

---

١ - الفضائل الخلقية في الإسلام، مرجع سابق، ص ١٣٩.
٢ - المرجع السابق.

أقوال المنافقين الذين يرغبون عن الحق بديلاً ويتطلعون أن يحكم لهم الرسول بما يريدون من هوى. . وهنا سمي العلم بالرؤية لأن العلم اليقيني المبرأ عن جهة الريب يكون جارياً مجرى الرؤية في القوة والظهور[١].

- أما بالنسبة للعنصر الثاني وهو [الحق] كعنصر قيمي، فباعتبار أن العدل وجهاً من وجوه الحق، دلالة ذلك قوله تعالى في سورة الأنبياء - ١١٢ : ﴿قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ... ﴾، وجاء في شأن أمة محمد (ﷺ) قوله تعالى في سورة الأعراف - ١٨١ : ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾.

- ومن ثم فمعرفة الحق ضروري لقيام العدل خصوصاً إذا كان حقاً ثابتاً بالقرآن والسنة، لكن المشكلة تكمن في تجاهل ذلك الحق أو الالتفات عنه، ومن ثم ينتقص من قيمة العدل، ونحن نعلم من السياق القرآني بأنه كانت هناك أقوام كانوا يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم لكنهم كانوا يحيدون عنه. . وقال تعالى في شأنهم في سورة البقرة - ١٤٦ : ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. . فقد انصبت هذه الآية على حق كان موجوداً ومن ثم كان يجب الاعتراف به تحقيقاً للعدل وخاصة ممن يعلمون وجوده، بعد أن عرفنا أن الله حق ورسوله حق وأن الله وحده هو الذي يقضي بالحق، وأن الذين يلجأون إلى الرموز والاصطلاحات وموالاة الباطل فهم لايقضون بشيء إلا بما أملته عليهم أهواؤهم ومصالحهم. . يقول تعالى في شأنهم بسورة غافر - ٢٠ ﴿وَاللهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاَيَقْضُونَ بِشَيْءٍ... ﴾.

- أما بالنسبة لعنصر الصدق والإخبار بالقول الصادق أو بأداء الشهادة الحقة، فباعتبار أن الصدق كاشف للحق فهو عنصر إيجابي في تثبيته. . بل ومثار اطمئنان، وإثبات الحقائق متوقف على الشهادة الصادقة واليمين العادل، ومن ثم يجب أن يكون الصدق عنصراً قيمياً للعدل. . وذلك بعد أن رأينا الله تعالى يقول في سورة الأنعام - ١١٥ ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَمُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ... ﴾.

- أما بالنسبة للحكم، فذلك واضح من قوله تعالى في سورة المائدة - ٩٥ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَتَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَاقَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ... ﴾.

ذلك هو الحكم الذي لايتأتى إلا عن طريق من هو أهل لذلك. . ووفق أصول تراعى حتى يصبح الوصول إلى العدل هو الغاية المستهدفة من الحكم، وطبقاً للقواعد التي أقرها

---

١ - اجتهاد الرسول (ﷺ) للدكتوره نادية شريف العمري، ص ٥١.

الأصـوليون والتي يجب أن تكـون قـائمة في ذهن من يتـولى القضـاء أو التحكيم تحقيقاً للعـدل وهي:

زوال الضرر ودفعـه بقدر الإمكـان، الضرر الأخف يتحمل من أجل الضرر الأشـد، الضرر الخاص يتحمل من أجل الضرر العام، الضرورات تبيـح المحظورات، الضرورة تقدر بقـدرها، الحاجة تنزل منزلة الضرورة.

فعلى كل حاكم أو قاض أو «مُحكِم» أن يدور حكمـه أو قراره وفق ذلك ليتعمق في إحساس الجميع بأنهم أمـام قـوة عادلـة لاتحابي أحـداً على حسـاب أحد. . بل تهدف للـوصـول للحق تحقيقاً للعدالة.

ومما سبق يتضح أن عناصر التـوازن القيمي هي مـاذكـرناه وكلهـا تستنـد إلى أصول قيميـة متمثلة في العليم، والحق، والشهيد، والحاكم والمُحكم.

السلوك التطبيقي للأسوة الحسنة لتفهم قيمة العدل والعدالة

مـا أجل مايضرب الـراعي بنفسـه المثل الأعلى والقـدوة الحسنة حتـى لاتستمرىء النفـوس الضعيفـة وتتأول معنى العدل إذا مـا اصطدمت بـواقع تختلف فيه درجـات المعتدي والمعتـدي عليه.

إمرأة تسرق في عهد الرسول (ﷺ) وفي غزوة الفتح فيهـرع أهلها إلى أسامة بن زيد (رضي الله عنه) يستشفعونه. . فيذهب أسامة ليكلم الرسول بشأنها فيتغير وجه الرسول (ﷺ) ويقول له:

[أتكلمني في حد من حـدود الله تعالى؟] فيطلب أسامة أن يستغفر لـه. . ولم ينتهي المشهد على ذلك وكفي. . فما أن حانت سـاعة العشاء حتى قام الرسـول (ﷺ) خطيباً في الجمع فيثني بما هو أهل له ثم يقول:

[أمـا بعد، فإنما هلك النـاس قبلكم أنهم كـانـوا إذا سرق فيهم الشريف تركـوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقـاموا عليـه الحد، والـذي نفس محمـد بيده لـو أن فـاطمة بنت محمـد سرقت لقطعت يدها]. ثم يأمر بقطع يد المرأة على مشهد من الجميع فتحسن توبتها وتتزوج[1].

نسوق ذلك لمن لايعـون خطر المفسـدين في الأرض ويتركونهم دون عقـاب صارم ودون حُكم الله الواجب الأداء.

ومن الصور الوضاءة في حياته الشريفة التي يجب أن نهتدي بها تلك الواقعة:

آتاه (ﷺ) رجل يتقاضاه فأغلظ له كعـادة غلاظ الأكباد من العرب فهَمَ أصحاب رسول الله (ﷺ) لمعاقبة الرجل فينهاهم ويقول لهم:

---

١ - حياة الصحابة للكاندهلوي ص ٨٩.

[دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً] . . ثم يأمرهم بأن يعطوه سناً مثل سنه . . فيقول أصحابه يارسول الله لانجد إلا أمثل من سنه . . فيقول (ﷺ) [أعطوه فإن خيركم أحسنكم قضاء].

ومشهد آخر . . حينما أراد أصحابه في سفر أن يحملوا عنه نصيبه من العمل فيقول لهم الرسول (ﷺ) [أكره أن أتميز عليكم وإن الله سبحانه وتعالى كره من عبده أن يراه مميزاً بين أصحابه].

وحدث مرة أن أبي هريرة (رضي الله عنه) خرج معه إلى السوق ليشتري سراويل، فلما أراد أن يحملها عنه قال له (ﷺ) [صاحب الشيء أحق بحمله].

ومن فرط إحساسه الشريف - صلوات الله وسلامه عليه - بالعدل والعدالة، وخشية أن يلقى ربه وعليه حق من حقوق العباد يخطب في الناس ويقول :

[أيها الناس من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه، ومن أخذت منه مالاً فهذا مال ليأخذ منه ولايخشى الشنعاء فإنها ليست من شأني، ألا وإن أحبكم إلي من أخذ مني حقاً إن كان له، أو حللني فلقيت ربي وأنا طيب النفس].

وجاء إليه يوماً زيد بن سعنه قبل إسلامه ليتقاضى منه ديناً كان عليه فجذب ثوبه عن منكبه، وأخذ بمجامع ثيابه وأغلظ في القول وقال : (إنكم يابني عبدالمطلب مُطل) . . والنبي (ﷺ) يبتسم . . فينهاه عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عن ذلك، فيقول له الرسول (ﷺ) :

[أنا وهو كنا إلى غير ذلك أحوج ياعمر . . تأمرني بحسن القضاء وتأمره بحسن التقاضي] . . ثم قال للرجل :

[لقد بقي من أجلك ثلاث] . . أي بقي لاستيفاء دينك ثلاث ليال . . ثم يأمر عمر أن يقضيه ماله، ويزيده عشرين نظير ماروعه فكان ذلك سبباً في إسلام زيد بن سعنه.

تلك صور حملت كثيراً من المعاني . . فيها الحرص على جوهر العدل وهو المساواة . . وفيها الحرص على أداء الحق والواجب بالزيادة والعفو عن الإساءة مع وجود القدرة . . ودرس في الأخلاق يمليه على أصحابه . . كذلك الحرص على معنى الفدية والفداء.

يقول (ﷺ) [أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً . .].

فلو قرأنا الحديث دون أن نتمعن فيه لقلنا بأن فيه محاباة لوجود الأخوة . . سواء كانت أخوة النسب أو أخوة العقيدة . . لكنه هو غير ذلك ففيه معنى الإنصاف الذي يمنع الظلم بداءة عن الإنسان . . ذلك قليل من كثير.

عن تقنين الفدية

سبق أن أشرنا إلى أن لنا وقفة عند الحديث عن السلوك التطبيقي للرسول (ﷺ) خاصة فيما يتعلق بتقنين الفدية . . لذلك نقول :

لما أسر الأسارى يوم بدر، أخذ الرسول (ﷺ) برأي أبي بكر (رضي الله عنه) في أخذ الفدية لتكون قوة للمسلمين على أعدائهم . . ولعل في استبقاءهم وعدم ضرب أعناقهم أن يتوب الله عليهم ويهديهم للإسلام . . ذلك هو المنطق الفطري في التفكير . خاصة إذا كانت الفطرة سليمة والرأي سديد والإسلام في حاجة إلى ملأ و إنتشار.

وبعد أن تم ماتم من قبول الفدية . . يتدخل الله تعالى بإنزاله الفوري بوحيه القدسي ليقول للرسول (ﷺ) معاتباً في سورة الأنفال – ٦٧ : ﴿مَاكَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ . . إلى قوله تعالى ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .

ومن خلال تلك الآية الكريمة نستشف عظمة المشرع وعلمه وحكمته في أن تقنين الفدية في الإسلام لايأتي بتشريع أحد . . لأن الحكم حكم الله والعدل عدله . وأن الفدية لاتؤخذ إلا بنص عليها حتى لايصبح وجودها مرهوناً بالمال والقدرة . أو بتدخل الأهواء والمصالح . . ويضيع معنى العدل والعدالة ، فالفدية وإن كانت قد شرعت في الإسلام كوجه من وجوه العدل . . فلم تشرع للأسرى الذين يحاربون الله ورسوله . . بل شرعت فقط لتزكية النفس من الأذى في زمان ومكان معين وإن كان حكمها عام فمجالها محدود وحتى لايصبح معيارها القدرة والاستطاعة .

ومن أراد الاستزادة في تلك الواقعة بالذات فليرجع إلى سبب نزول هذه الآية الكريمة وما أحدثته من آثار نفسية بعيدة المدى في نفس النبي (ﷺ) وأصحابه الكرام .

أما عن المساواة في عرف الرسول (ﷺ) فلم تكن إلا وسيلة لتحقيق غاية سامية وقيمة عالية . . وسنرى معاً تواصل أفعالها في عهد الصحابة أجمعين وإن تغيرت المضامين . . . . كان في عهد الرسول (ﷺ) الترتيب المتبع في تدوين أسماء الناس للعطاء قائماً على فكرة القرابة تحقيقاً للصلة ولمكانة البر والرحمة بالأهل ، ومن ثم بديء بالعباس ابن عبدالمطلب عم النبي (ﷺ) ورتبت قبائل العرب على هذا الأساس . . فإذا استوى قدم في القرابة قُدِمَ ذو السابقة في الجهاد على غيرهم ممن يستوون معهم في درجة القرابة .

مات الرسول (ﷺ) وجاء أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) فتولى أمر المسلمين ثم نرى أن التسوية أخذت الطابع الأعم . . أي أن الكل أصبح عنده سواسية دون أي اعتبار من ناحية القرابة أو غيرها .

وحينما كلمه بعض الصحابة في أن يفاضل بين الناس في العطاء قال في ثقة :

(إن فضائل الناس عند الله . . فأما هذا المعاش فالتسوية فيه خير) ونراه يسوي بين الحر والمملوك والمرأة والرجل والصغير والكبير.

مات أبو بكر (رضي الله عنه) وجاء عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) الذي رأى أنه ليس من العدل أن يسوي بين من بذل نفسه وماله في سبيل الله . . ومن حارب الرسول ثم أسلم حين غلب على أمره . . ومع ذلك نرى عمر (رضي الله عنه) حينما كثرت الأموال في عهده وبلغت حظاً عظيماً بعد عام المجاعة . . كان عازماً على أن يرفع أنصبة سائر الناس حتى تقارب نصيب أعلى فئة وذلك للتقريب بين الفئات مستهدفاً التسوية تحقيقاً للعدل . . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى نرى قصة فيروز الديلمي الذي ولي حكم اليمن في عهد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وما فعله بالفتى القرشي فالقصة موضوعها :

كتب عمر إلى فيروز الديلمي [أما بعد . . فقد بلغني أنه قد شغلك أكل اللباب بالعسل ، فإذا أتاك كتابي فأقدم على بركة الله فاغزو في سبيل الله] .

قدم فيروز فاستأذن للدخول على عمر فأذن له فزاحمه في الدخول فتى من قريش فما كان من فيروز إلى أن رفع يده فلطم أنف القرشي .

دخل القرشي على عمر مستدمياً . . فقال له عمر . . من فعل بك هذا؟ . قال فيروز وهو على الباب . . فطُلب فيروز للدخول فدخل فرأى عمر وعلامات الغضب بادية على وجهه . . فبادره فيروز بالقول : يا أمير المؤمنين إنا كنا حديثي عهد بملك وإنك كتبت إلى ولم تكتب إليه ، وأذنت لي ولم تأذن إليه فأراد أن يدخل في أذني قبلي فكان مني ماقد أخبرك . قال عمر : القصاص يافيروز . . قال فيروز . . لابد ، قال عمر . . لابد .

جثى فيروز على ركبتيه وقام الفتي ليقتص منه فقال له عمر على رسلك أيها الفتى حتى أخبرك بشيء سمعته من رسول الله (ﷺ) ، سمعت رسول الله يقول ذات غداة [قُتل الليلة الأسود العنسي الكذاب[1] ، قتله العبد الصالح فيروز الديلمي] . أفتراك تقتص منه بعدما سمعت هذا من رسول الله (ﷺ)؟ .

قال الفتى قد عفوت عنه بعد أن أخبرتني بهذا الحديث عن رسول الله (ﷺ) . وهنا يقول فيروز لعمر . . أفترى هذا مخرجي مما صنعت . . إقراري له وعفوه عني غير مستكره . . قال عمر نعم . . قال فيروز فأشهدك أن سيفي وفرسي وثلاثين ألف من مالي هبة له . . قال عمر عفوت مأجوراً يا أخا قريش ، وأخذت مالاً .

---

١ - مدعي النبوة في أرض اليمن .

ذلك هو عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) الذي عرف عنه صدق في الإيمان وقوة في اليقين وسعة في الأفق وحسن فهم للأمور وإخلاص في العمل وحرص على التمسك بإقامة العدل، فلقد كان حصيف الرأي ذكي الفؤاد مارأى رأياً إلا وكان في الأغلب والأعم صواباً لدرجة أنه كان يقترح من التشريعات في عهد الرسول (ﷺ) مايراه متفقاً مع الحق والعدل.. وفي عهده مايراه متفقاً مع الحق والعدل والمصلحة العامة.

وسنورد أمثلة لذلك تنبيء عن ذكاءه الفطري وحكمته.. قال عمر بن الخطاب وافقت ربي في ثلاث، يارسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فنزلت الآية الكريمة: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾.

وقلت يارسول الله - إن نساءك يدخلن عليهن البر والفاجر فلو أمرتهن أن يتحجبن؟ فنزلت آية الحجاب.

واجتمع على رسول الله (ﷺ) نساؤه في الغير فقلت لهن (عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنكُنَّ﴾.. فنزلت ذلك.

وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) عن أخيه الفضل قال:

(سمعت رسول الله (ﷺ) يقول [عمر بن الخطاب معي حيث أحب وأنا معه حيث يحب، الحق مع عمر بن الخطاب حيث كان]).

ذلك عن عمر.. الذي لم يكن عادلاً لسبب واحد فقط بل لجملة أسباب منها[1]:

١ - «أنه كان عادلاً بمعرفة الحق وبتعاليم دينه الذي استمسك به وهو من أهله بمقدار ماحاربه وهو عدوه».

٢ - كان عادلاً لقلة التناقض فيه، فكان يحكم على وتيرة واحدة لاتفاوت بينها.

٣ - «كان العدل هدفاً له حتى بين أبعد الناس وأقربهم في قضاء الحقوق وإقامة الحدود».

وقصة عمرو بن العاص منذ أن كان والياً على مصر والتي رويت وجاءت في كتب التراث الإسلامي دليل على مساواة أبنائه بأولاد المسلمين منعاً للتميز أو المحاباة، لدرجة أنه يضرب ابنه ضرباً مبرحاً ويحبسه فيمرض ويعرضه للموت من أجل إقامة الحد عليه، ذلك على خلاف ماقضى به في واقعة شرب شاب للخمر. فقال له لابعثنك إلى رجل لاتأخذه فيك هوادة.. فيبعث به إلى مطيع بن الأسود العبدي ليقيم عليه الحد فيحضر عمر وهو يضربه ضرباً شديداً.. فيصيح بالأسود قتلت الرجل.. كم ضربته؟ قال ستين قال أقصى عنه عشرين، أي ارفع عنه بقية الحد من أجل شدتك عليه.

١ - عبقرية عمر، عباس محمود العقاد ص ٣٥، ٣٦ بتصرف.

هكذا حينما تختلط الشدة بالرحمة والرحمة بالعدل.

ذلك هو عمر بن الخطاب الذي كان من دأبه أن يتريث في إقامة الحدود حتى ليؤثر - كما قال - تعطيلها في الشبهات على أن يقيمها في الشبهات.. وتكرر منه إعفاء الزانيات من الحد لشبهة القهر والعجز عن المقاومة، وتكرر منه الإعفاء لمثل هذا القدر في غير ذلك من الحدود، وليس إلا لإيمانه بقيم العدل والرحمة والعفو.

فما قيمة العدل بغير الرحمة التي تمزجه بالإحسان، وما قيمة العدل والرحمة معاً بغير العفو حتى مع وجود الحماسة الدينية والغيرة اليقظى التي تجعل كراهة المرء للظلم ككراهته للضرر الذي يصيبه في نفسه وأهله، وتجعل من حب العدل أنه هواه وقبلة مناه.

وما العدل والرحمة والعفو بغير حكمة تضع الأمور في موضعها وتعصم المرء عن أن ينخدع عمن يستحق ويغفل عمن يستحق.

وما العدل والرحمة والعفو والحكمة بغير الإيمان الذي هو الرقيب الأعلى فوق كل رقيب والوازع الأخير بعد كل وازع فلامرجع بعده لطالب الإنصاف[1].

هكذا كان العدل في دولة الإسلام الأولى، وسيظل بإذن الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وقبل الختام لايفوتنا أن نلمح إلى معلم من معالم عدل الإمام علي (رضي الله عنه). حينما يكشف التمايز عن قناعة لدى تلك المرأة التي تظن أن لها فضلاً في الإسلام عن بقية النساء من الموالي.. جاءته يوماً أعرابية تطلب عطاءاً وبصحبتها مولوية.. فيعطي المولوية أولاً.. ثم يعطي الأعرابية بمثل ما أخذت المولوية فتعتب على مساواتها بها في العطاء.. فيرد الإمام علي بحكمة وروية (إني نظرت في كتاب الله عز وجل فلم أر فيه فضلاً لولد إسماعيل على ولد إسحاق)[2].

وفي ختام مبحث قيمة العدل نقول: إذا كانت لنا كلمة أخيرة فهي قولنا.. أن شرع الله هو الحق وحكم الله هو العدل وكفى ماجلبته لنا القوانين الوضعية الظالمة التي لاتحقق إلا مصلحة واضعيها.. فإذا أفضى الإدراك لهذه الحقيقة.. فلتكن هناك ثورة تشريعية تلفظ كل قانون وضعي لإرساء التشريع السماوي ليسود العدل المجتمعات، وينعم الناس بالعدل والعدالة، وأن نضع في اعتبارنا البدائل والاختيارات التي أعطاها الإسلام لمعتنقيه ودارت في فلك العدل والفدية بدلاً من التشريع الجامد والسقيم.

«اللهم إني بلغت فاشهد»

---

١ - المرجع السابق، ص ٦٣ ٢ - حياة الصحابة، مرجع سابق، ص ١٠٧.

الحـــق (وقيمة الحق)

الحق اسم من أسمائه الحسنى، فالله تعالى هو الحق المطلق له الإيجاد والعدم، وهو حقيقة الوجود ومنتهى أمره.

وهو عز وجل حق، وكلامه حق، وأمره حق، وشرعه حق، ولايقول إلا الحق.

والحق خلاف الباطل، وهو الثابت بلا شك.

جاء الحق في اللغة بمعنى الحزم والصدق، وإن كان أعم من الصدق لأنه يتعلق بوضع الشيء في موضعه الذي هو أولى به، أما الصدق فيتم به الإخبار عن الشيء على ماهو به، وكذلك الحق يكون إخباراً وغير إخبار.

وعرف الفقهاء الحق بأنه الاستئثار الحاجز - أي الاختصاص - الذي يخول لصاحبه مباشرة جميع التصرفات في مواجهة العامة والخاصة بلامنازع ولامعارض.

ولقد كانوا حريصين كل الحرص على أن لايكون الحق مرادفاً للنفع أو ملتبساً به.. فحينما عرف الحق بأنه (هو مايستحقه الرجل ومايسلم من النقد) لم يرتضوا ذلك التعريف لأن كلمة «ما» قد استعملت في التعريف ولأنها عادة تشمل الحق وتشمل المنفعة، وبذلك يكون التصرف قاصراً غير مانع فلايصح أن يكون حداً للحق، ذلك لأن الحق اسم من أسمائه الحسنى له قدسيته وله تنزيهه عن كل ما من شأنه أن يوحي أو يترادف بالمنفعة.

وإذا كان الحق هو الصواب والصحيح وضده الباطل، وأن الحقيقة ماتصور إليه حق الأمر، وحق الشيء.. إذا وجب، وحققت الشيء أحقه حقاً.. إذا تيقنت كونه ووجوده.. وفلان محق.. أي صاحب حق، وكل تلك المعاني.

ولو أردنا الوقوف على الأوجه أو المعاني التي ورد ذكرها بالقرآن الكريم عن الحق لرأينا بأنه قد جاء على تسعة عشر وجهاً[1] أو معنى.

الأول: الله تعالى باعتباره الحق المطلق: وذلك من قوله تعالى في سورة المؤمنون - ٧١: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ...﴾.

الثاني: بمعنى القرآن - ومنه قوله تعالى في سورة الأنعام - ٥ ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ...﴾.

١ - نزهة الأعين النواظر، مرجع سابق ص ١٥٨ - ١٦١، وكشف السرائر المحقق ص ٢٣٠-٢٣٣.

الثالث : الإسلام - ومنه قوله تعالى في سورة النمل - ٧٩ : ﴿... إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ .

الرابع : العدل - ومنه قوله تعالى في سورة الأعراف - ٨٩ : ﴿... رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ...﴾ .

الخامس : التوحيد - ومنه قوله تعالى في سورة المؤمنون - ٧٠ : ﴿... بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ .

السادس : الصدق - ومنه قوله تعالى في سورة يونس - ٥٣ : ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ...﴾ .

السابع : المال - ومنه قوله تعالى في سورة البقرة - ٢٨٢ : ﴿... وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ...﴾ .

الثامن : الوجوب - ومنه قوله تعالى في سورة السجدة - ١٣ : ﴿... وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي...﴾ .

التاسع : الحاجة - ومنه قوله تعالى في سورة هود - ٧٩ : ﴿... لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ...﴾ .

العاشر : الحظ - ومنه قوله تعالى في سورة المعارج - ٢٤، ٢٥ ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ، لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ .

الحادي عشر : البيان - ومنه قوله تعالى في سورة البقرة - ٧١ : ﴿... قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ...﴾ .

الثاني عشر : أمر الكعبة وما يخصها - ومنه قوله تعالى في سورة البقرة - ١٤٦ : ﴿...وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ .

الثالث عشر : إيضاح الحلال والحرام - ومنه قوله تعالى في سورة البقرة - ١٧٦ : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ...﴾ .

الرابع عشر : لا إله إلا الله - ومنه قوله تعالى في سورة الرعد - ١٤ : ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ...﴾ .

الخامس عشر : إنقضاء الأجل - ومنه قوله تعالى في سورة ق - ١٩ : ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ...﴾ .

السادس عشر : المنجز - ومنه قوله تعالى في سورة التوبة - ١١١ : ﴿... وَعْداً عَلَيْهِ حَقاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ...﴾ .

السابع عشر : الجرم - ومنه قوله تعالى في سورة آل عمران - ١١٢ : ﴿... وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ...﴾.

الثامن عشر : الحق الذي هو ضد الباطل - ومنه قوله تعالى في سورة الحجر - ٨٥ : ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ...﴾.

التاسع عشر[1] : يكون لمعنى أولى - ومنه قوله تعالى في سورة البقرة - ٢٤٧ ﴿... وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ...﴾، وفي سورة الأنعام - ٨١ : ﴿... فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ...﴾، وفي سورة الأحزاب - ٣٧ ﴿... وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ...﴾، أي أولى أن يتبع.

وعلى ضوء ماسبق نستطيع أن نقول بأن معيار الحق في الإسلام معيار جمعي يستند لأصل قيمي، وليس معياراً فردياً مؤولاً أو خال من المضامين، فهو ينظر أولاً من زاوية إنسانية عامة فلا ضرر ولا ضرار، ويحكم أدائه نية خالصة بقصد الرضا النفسي سواء في الدنيا أو الآخرة، لاتشوبه شوائب المنفعة أو اللذة أو السعادة.

فإذا كان الحق بمعناه قد تشعب على أيدي المفكرين بألف معنى ومعنى، وكلاً منهم يتناوله من زاوية معينة، فلأن جوانبه كثيرة ومتعلقة بحركة الإنسان في الحياة.. فلو نظرنا بمنظار الأمس لوجدنا الحق عند الأسلاف كان هو العقيدة، وبمنطق العلم اليوم هو قوانين الطبيعة، وبمنطق الصوفي هو الطريق الذي يوصل إلى الإدراك الذوقي المباشر، إلا أنه في المنهج القيمي نراه يرتد إلى العقيدة ليصبح قيمة تستند إلى اسم شريف ومعنى مغاير تماماً للاصطلاحات والترادفات النفعية.. فهو منهج حياة أقيم على العدل والصدق والوجوب.. وجاءت أحكامه شاملة لكافة ميادين الحياة البشرية.. وإن كان الشمول لايعني أنه قد نص على حكم كل واقعة مما يستجد ويستحدث من أمور مستقبلية، وإنما يعني إتيانه بالمبادىء العامة والقواعد الأساسية والخطوط العريضة لتندرج تحتها كافة القضايا والأمور التي تتغير بتغير الأزمان والعادات والأعراف والبيئات، ذلك خلافاً للقضايا الثابتة والأمور التي لايؤثر فيها اختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال، فقد عالجها بأحكام مفصلة ثابتة مثل :

- أحكام العبادات.

- أحكام الزواج ومايترتب عليه من حقوق الزوجية.

- حكم الحجاب.

---

١ - ذكر ابن العماد في كشف السرائر ص ٢٣٠ ومابعدها هذا الوجه ضمن الإحدى عشر وجهاً الذي انتهى إلى أنها هي الأوجه التي حملها الحق في القرآن، على خلاف ابن الجوزي في نزهة الأعين النواظر ص ١٩٠ ومابعدها الذي ذكر ثمانية عشر وجهاً لم يكن من ضمنها هذا الوجه، ومن ثم تصبح الوجوه تسعة عشر.

- حكم المحرمات من النسب.

- أحكام المواريث.

- أحكام الطلاق.

وخلافه من الأمور الثابتة التي لاتتغير في حياة الناس وترتبط ارتباطاً وثيقاً بحياتهم وعلائقهم، مع ترك حرية الاجتهاد والاستنباط من تلك القواعد العامة والمبادىء الأساسية التي أرساها لما يجد من الوقائع للوصول إلى أفضل الحلول الصحيحة.

علماء الشريعة وتقسيم الحقوق

انطلاقاً من مبدأ الشورى وحرص الاجتهاد عنى علماء الشريعة الإسلامية بتقسيم الحقوق وبيانها في أربعة أقسام:

١ - حق الله تعالى.

٢ - حق الإنسان.

٣ - حق مشترك بين الله والإنسان، ولكن حق الله فيه أقوى.

٤ - حق بين الله والإنسان، ولكن حق الإنسان فيه أقوى.

عن حق الله تعالى

عنت الشريعة بالخيرات العامة التي يصوغ حق الانتفاع بها لكل إنسان، وكما قال الرسول (ﷺ) [الناس شركاء في ثلاث.. الماء.. والكلأ.. والنار][1].

ولعظم شأنه وقدر نفعه للبشرية اسند إلى الله تعالى إجلالاً لقدره وسماه علماء القانون الترخيص - أي النفع العام - أما من جهة علماء الشريعة فقد جعلوه حقاً لله تعالى ولايباح هدمه أو النيل منه لأنه صفة من الصفات الشريفة ولايجوز لأحد أن يمنع أحداً من الانتفاع به، ولاتحق فيه الشفاعة بعد ثبوته عند الإمام أو الحاكم.

بالنسبة لحق الإنسان

بالرغم من أن العباد أصلاً لايستحقون شيئاً قبل الله، لكن رحمة الله وإحسانه أن وعدهم بذلك كما في قوله تعالى ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي أوجبها لهم، وكما في قوله تعالى ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ومن هنا جاء حق الإنسان الذي يمثل تلك الأمور التي تختص به كالملك من الأموال والعقارات وهي مصالح خاصة للإنسان يجوز التصرف فيها

---

١ - رواه أحمد وأبو داود وصحح الحافظ إسناده.

بلامنازع، ويجوز فيها الإسقاط والتنازل عن الديون والعقوبات في الديات، وتحويل الملكية برضى صاحبها كالهبة والبيع والشراء.

وبالنسبة للحق المشترك بين الله والإنسان، وحق الله فيه أقوى

فمن ذلك الزنا والقذف.. وكل الحدود من حقوق الله تعالى كشرب الخمر - أي العقاب على شربها بالحد الذي أوضحته السنة، وكذا في السرقة، لكن باعتبار أن الزنا والقذف مرتبط بالمساس بشرف الإنسان وإلحاق الضرر به فباعتبارهما حدان يكونان من حق الله تعالى، وبما يلحق الإنسان فيهما من ضرر يكونا من حق الإنسان.. لكن الزنا متى ثبت لايمكن إسقاطه ولا التنازل عنه، وأما القذف فمتى رفع إلى الإمام أو الحاكم وثبت بالبينة: فبالقول الصحيح أنه لايمكن التنازل عنه ويجب على من رفع إليه تنفيذه.

أما بالنسبة للحق القائم بين الله والإنسان، ولكن حق الإنسان فيه أقوى

ذلك كالقصاص، فمن حق الإنسان إسقاطه - قال تعالى في سورة البقرة - ١٧٨ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى..... فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾، وقال تعالى عن القتل الخطأ في سورة النساء - ٩٢: ﴿وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا...﴾.

فكأن للإنسان الحق في أن يتنازل عن حقه في القصاص أو عن حقه في تعويضه عن القتل الخطأ.

أما حق الله تعالى الخالص لذاته.. فلايجوز أن يهدر.. بل يجوز لأي إنسان من المسلمين أن يطلبه أو يطالب بتحقيقه وتأكيد وجوبه والحفاظ عليه، فإذا لم يطلبه أحد فللإمام أو الحاكم أن يطلبه أو يطالب بتحقيقه باعتباره حفيظاً على حقوق الله وحقوق الأمة، كذلك لايجوز أن يعتدي على حق من حقوق الناس، كما لايكون هناك تعسف في استعمال الحق.

والقرآن قد آبان لنا حكم الله ووصاياه.. قال تعالى في سورة الأنعام - ١٥١-١٥٢: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

كذلك جاء الرسول (ﷺ) ليحق الحق ويزهق الباطل، ونرى الله تعالى باعتباره الحق المطلق يقسم بذاته لإثبات ألوهيته الواحدة، ويقسم على إثبات أن القرآن حق، ويقسم على صدق

رسوله، وبأن كل ما أخبر به عن الغيب بأمر جازم صدق وواقع، ولم يبقى بعد ذلك إلا أن يعترف الجاحدون بأن الله حق، ومحمد حق، والنبيون حق، والملائكة حق، والجنة حق، والنار حق، والموت حق، وكل ما أخبرنا به رسولنا بوحي من الله كالقلم والميزان والصراط والبعث والحساب. . إلخ.

علاقة الأخلاق بالحق والواجب

أما عن علاقة الأخلاق بالحق والواجب فعلاقة لاتنفصم عراها مادام هناك باطل، وجحود ونكران وكفر بالنعمة وصد عن سبيل الله، فالحق الخلقي هو الحق المستمد من العقل السليم والوجدان الطاهر البعيد عن التحيز لشخصية، أو حزبية، أو جنسية، لأن الناس على اختلاف مواقعهم تحميهم جميعاً رابطة الإنسانية.

وإذا كان مقياس النجاح في النتائج العملية الذي جعل (مقياس الحق) هو نفسه معيار الأخلاق في نظر الفلسفة الغربية الوافدة، إلا أننا نؤكد هنا أن مقياس النجاح في النتائج العملية في ظل الإسلام هو الجهد والإخلاص مع تضافر عناصر أخرى.

وسيلة اثبات الحقائق

وسيلة اثبات الحقائق تأتي إما بالشهادة، وإما باليمين[1]، كما في قوله تعالى في سورة آل عمران – ١٨ : ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالملاَئِكَةُ وَأُولُوا العِلْمِ...﴾ فتلك هي شهادة الحق لنفسه، وفي سورة الذاريات – ٢٣ قال تعالى ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ...﴾.

فإثبات الحقائق يتطلب أمرين. . الأمر الأول إما بالشهادة، وإما باليمين ولذا يقال (البينة على من ادعى واليمين على من أنكر)، فمن ادعى دعوى وجاء ببينة تشهد له فقد ثبت الحق له، وإلا فعلى المنكر أن يحلف اليمين.

وقبل أن نعمد لبيان العناصر القيمية لمعرفة الحق، نورد نبذة عن السلوك التطبيقي للأسوة الحسنة وبعضاً من الصحابة الأجلاء لتعميق معناه في النفس.

يقول الرسول (ﷺ) موجهاً أمته [لايكن أفضل مانلت من دنياك في نفسك بلوغ لذة أو شفاء غيظ، ولكن إطفاء باطل وإحياء حق][2].

ونرى (ﷺ) قد جاء ليحق الحق وليزهق الباطل وأبان لأمته أوجه الهداية والرشد حتى نرى بأنه (ﷺ) قد جعل من أدب السلوك في الإسلام أن للمسلم على المسلم حقاً، فمن حق

---

١ – انظر مختارات من القرآن الكريم لفضيلة الشيخ متولي الشعراوي، الجزء الثاني ص ٩٧ وما بعدها.

٢ – حديث حسن صحيح.

المسلم على المسلم إذا لقيه أن يسلم عليه، وإذا دعاه فليجيبه، وإذا استنصحه فليسمع له، وإذا عطس واتبع ذلك بحمد الله فيشمته، وإذا مرض فليعده، وإذا مات فليتبعه].

ونرى كذلك السلوك التطبيقي لأروع الأمثلة في تحقيق العدالة وصولاً للحق، أو في تحقيق الحق وصولاً للعدل.

يقول (ﷺ) [إنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي به على نحو ما أسمع، فمن قضيت لـه من حق أخيه شيئاً فلايأخذه، فإنما أقطع لـه به قطعة من النار].

وهنا توجيه غير مباشر بأهمية عنصر الصدق في الدعاوي والخصومات، لأن الإنسان يستطيع بقوة البيان في العرض والإقناع إلباس الباطل ثوب الحق ليصل إلى غرضه، مع النهي عن أخذ ماليس هو حق وتصوير ذلك على أنه قطعة من النار.

أما عن حقوق المعاشرة الزوجية فلم ينس (ﷺ) أن يؤكد في خطبة الوداع حق النساء علينا وحقنا عليهم فيقول :

[أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقا، ولكم عليهن حق، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم، ولايدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولايأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين وأطعناكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنما النساء عندكم عوان (سيرة) لايملكن لأنفسهم شيئاً، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً].

ولما كان مقياس الحق في الجاهلية الغبراء وما زال للآن هو القوة المادية فبمقدار ما أنت قوي فأنت محق، يجييء الإسلام ليجعل معيار الحق في الصدق والوجوب، ونرى الله تعالى لأهميته قد تسمى به، وأن القوة وإن كانت من ضمن منهجه القيمي إلا أنها ليست القوة المادية الغاشمة، بل القوة المادية العادلة، والمعنوية الصادقة، فإذا كانت قوة النفس تكمن في قوة إيمانها وصدق توجهها، فإن قوة البدن تكمن في مايحمل من عقل سليم ووجدان صاف.

يقول الرسول (ﷺ) [القوي ضعيف عندي حتى يؤخذ منه الحق، والضعيف قوي في نظري حتى يؤخذ له الحق].

ولو أردنا إبراز صورة من صور القوة التي كانت هي معياراً للحق في الجاهلية لوجدنا الآتي :

«كان ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن عبدالمطلب بن عبدمناف من أشد قريش فخلاً يوماً

برسول الله (ﷺ) في بعض شعابَ مكة فقال له الرسول (ﷺ) [يا ركانـة ألا تتقي الله وتقبل ما أدعوك إليـه؟] قال ركانة : (إني لـو أعلم أن الذي تدعـوني حق لاتبعتك) فقال (ﷺ) [أرأيت إن صرعتك أتعلم أن مـا أقـول حق؟] قـال ركـانـة : نعم وقام ليصارع الرسول (ﷺ) . . فصارعـه ، ولما بطش به أضجعـه وهو لايملك من نفسـه شيئاً ، ثم قال : عـد ياعمـد ، فعاد فصرعه ... »[1] .

هكذا كان مفهوم القوة في الجاهلية ومازال مقياساً للحق .

كذا نـراه (ﷺ) يوضح لمعاذ بن جبل (رضي الله عنـه) ما حق الله على العباد ومـا حق العباد على الله ، فيقول (ﷺ) :

[إن حق الله على العباد أن يعبـدوه ولايشركوا بـه شيئاً ، وحق العبـاد على الله أن لايعذب من لايشرك به شيئاً] فيقول معاذ أفلا أبشر الناس؟ فيقول (ﷺ) [لاتبشرهـم فيتكلوا][2] .

الحق بالنسبة لعمر بن الخطاب

فذلك هو عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) الـذي شهد له أبا ذر الغفاري إذ يسمع الرسول (ﷺ) يقول عنه [إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول به] .

كذلك شهـد له ابن عباس (رضي الله عنهما) مـن أنه سمع رسول الله (ﷺ) يقـول [عمر بن الخطاب معي حيث أحب ، وأنا معه حيث يحب ، الحق مع عمر بن الخطاب حيث كان] .

ونراه (رضي الله عنه) يـرأس القضاء في المدينة في عهد الخليفـة الأول أبي بكر (رضي الله عنه) فلم تفتح جلسة من جلسـات التقاضي طـوال سنتين فقد أغناهم عـدل عمر وحكمـة أبي بكر عن ولوج ساحات التقاضي ، وعمر أيضاً الـذي جعل للشورى معنى فلم يستبد برأيه وإن كان حقاً ، بل كان ذو مرونة لاتخل بروح التشريع ولاتتنكر للواقع الفعلي .

وتعالوا معنا لنرى قصة الرجل الذي غاب عن إمرأته وجاء من غيابه فوجدها (حامل) فرفع أمرها لعمـر ليقيم عليها حد الزنـا في غيابه ، وقبل أن يهم عمر بـرجم المرأة يقترح عليه معاذ بن جبل (رضي الله عنه) ويقول له :

(إن يكن لك عليهـا سبيل فليس لك على مـافي بطنهـا سبيل «فينتظر عمـر حتى تضع مولودها . . » فتضع غلاماً يشبه أباه من ثنيتـاه فيعترف الرجل بأبوته فما كان من عمر إلا أن قال «عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ ، لولا معاذ لهلك عمر»)[3] .

---

١ – تهذيب سيرة بن هشام ص ٣١ جزء ٢٠ لعبدالسلام هارون ، وانظر السيرة النبوية لابن هشام ص ٣٩٠ ، ٣٩١ ، لمصطفى السقا وآخرين .
٢ – حديث شريف ورد في رياض الصالحين ص ٤٢٤ .
٣ – عن سيرة أعلام النبلاء للذهبي ص ٤٥٢ .

بعد ذلك لايبقى إلا أن نشير في مقام الحق، أن كـلاً من الصحابة الأجلاء كـان يرى العدل ويهدف إلى تحقيق الحق وإن اختلفت السبل، ذلك لأن العقل الإنسـاني ليس في التفكير نمطـاً واحداً، وإنما يرى في شخص مالايراه الآخر، لكن الكل كان ينظر لهدف واحد هو الحرص على قيمة الحق والوصول إليه باعتباره قيمة تستند إلى اسم شريف وأصل قيمي. . فالحق في الإسلام هو الغـاية والهدف وإن تضـافرت عناصر كثيرة لإظهـاره وتأكيده كالصـدق والتقوى والطـاعة ولزوم الجماعة.

العناصر القيمية للحق

تتحدد العناصر القيمية لفهم قيمة الحق في معرفة الآتي :

١ – الصدق.

٢ – التقوى.

٣ – الطاعة.

٤ – لزوم الجماعة.

إذا كنـا الآن نعيش في عصر أوشكت أن تضيع فيـه الحقـوق الثـابتـة وأصبحت القـوة هي مقياس الحق، بل وتأول معنى الحق وعـاش مرادفاً للنفع وأصبح الإنسان في خـواء فكري وجو مادي صرف لايعلم عن الصدق أو التقـوى شيئاً أو الطاعة أو حتى لزوم الجماعة. . فإننـا نؤكد هنا في مقـام التوازن القيمي أهميـة تلك العناصر في وجـود الحق والاهتداء إليـه ودورها الهام في معرفته فـالصدق لازم مع النفس والغير، وبالتقوى نتخـذ الوقاية من غضب الله تعـالى بالعمل بأوامـره وإجتنـاب نـواهيـه، وهي وإن كـانـت اسم جـامع لجميع أنـواع البر، إلا أنها كـافلـة لصاحبها كل خير ومبعدة عنه كل شر.

يقـول تعـالى في سورة آل عمـران – ١٣٣ ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمٰوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾، كذلك في سـورة البقرة – ١٩٧ ﴿... وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾، كذلك في سورة الطلاق – ٢، ٣ : ﴿... وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَيَحْتَسِبُ﴾.

كذلك نـرى الرسـول (ﷺ) يوصي أبا ذر ويقـول له : [أوصيك بتقـوى الله فإنها رأس الأمر كله].

فبها يتقي الإنسـان الشرور والآثام، وترك ماحرمـه الله، وأداء ما افترضه، فإن مـااتقاه وقاه،

واعلم يا أخي بأن التقى من العباد هو الذي يكظم غيظه عند حدوث الغضب واشتداد الأزمات فتمنعه تقواه من الوقوع في الخطأ أو الحماقة أو ردة الفعل الموجبة للظلم وإهدار الحق ومن ثم تكون قد حققت قيمة عليا هي قيمة الصبر، وإن استعنت على الناس بالعفو والمسامحة فكل ذلك حق. . كذلك لاننسى أن هناك من الأتقياء من كان يترك بعض الحقوق زيادة في المعروف والفضل فيحسن إلى من أساء ويصل من قطع، وهناك من كان يترك مالايعنيه، وآخرين كانوا يتركون تسعة أعشار الحلال خوفاً من الوقوع في الحرام أو لمجرد شبهة قد تقع في العشر الباقي.

أما عن الطاعة وإن كان لها معنيين ديني وأخلاقي لاينفصلان عن بعضهما ولايمكن أن تثبت دينياً وتهدر أخلاقياً داخل الإطار القيمي ومن ثم ينصرفان إلى الائتمار بأوامر الله والتقيد بالواجب والتجاوب باستمرار مع الجماعة.

ولما كانت طاعة الله واجبة، إذن طاعة رسوله أيضاً واجبة فيما أمر من الله ونهي لأن طاعة الرسول من طاعة الله (سبحانه).

يقول تعالى في سورة آل عمران – ١٣٢ ﴿... وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

وفي الحديث المروي عن الرسول (ﷺ) [من يطع الله ورسوله فقد رشد][١].

فالطاعة يكمن فيها سرعة المبادرة إلى الاستجابة لكل أمر أحقه الله ورسوله ومن ثم يبعد الإنسان عن الانتكاسات والارتكاسات التي قد يكون من شأنها التأثير في الحياة العملية أو تمس حياة الآخرين في دنيا العمل.

ومن ثم يصبح الحق معك إذا درأت عن الفقير والعاجز مغبة الفقر والفاقة والعوز، وتحقيق العدل وإقامة المعروف والنهي عن المنكر، لأن في ذلك تحقيق لمعناه، كذلك لن يكون معك الحق إذا التزمت السكوت عن الظلم ومنع كلمة حق تقال حتى إن كانت عند من له السلطان، أو أن تتهرب من مسئوليتك تجاه إقامة حق ينتظر منك الشهادة. . وعامة فقول الحق واجب ولو كان على النفس لتعلقه بإحقاق الحق واعتدال الميزان.

أما بالنسبة للعنصر الثالث وهو لزوم الجماعة فقد ثبت في الحديث الذي رواه الحاكم في مستدركه وابن ماجة مرفوعاً عن الرسول (ﷺ) قوله : [إن الله لايجمع هذه الأمة على ضلالة أبداً، وأن يد الله مع الجماعة فاتبعوا السواد الأعظم فإنه من شذ شذ إلى النار].

فالحديث يوضح أهمية الإجماع في صواب الرأي، وأهمية الشورى في تأكيد العلم والخبرة،

---

١ – حديث حسن صحيح.

فالإسلام حينما اعتمد على الجماعة كسلوك مؤثر في العبادة والعمل فإنه اعتمد عليها أيضاً كسلوك مؤثر في النتائج التي تصدر عنها بحيث يصبح ذلك السلوك من لوازم الحق، أعني العدل ومصدر التزام به، ذلك لأن الجماعة المؤمنة المستنيرة بقوة العلم والإيمان وإن اختلفت آراؤها في تناول القضايا والمشكلات فإن اختلافها لايكون على الأصل الثابت، بل في طريقة المحافظة عليه وإن تنوعت السبل، فكل ماتقرره الجماعة - خاصة الجماعة الإسلامية - فيما يخص العقائد والواجبات وغيرها أمر ملزم يجب اتباعه ويصير حقاً يجب احترامه مادام رأيها يدور في فلك العقيدة ويستند إلى أصول قيمية معروفة لقيام الحق ومنها قيمتي العدل والصدق، وأهمية الوجوب.

قد يقول قائل.. إذا كانت المسائل التي يتعرض لها الإنسان اليوم في حياته مسائل عصرية تختلف في معالجتها عن معالجات مثيلاتها فيما مضى وليس لها أصل ثابت يهتدى به؟.. كذلك ليس للجماعة رأي فيها.. فكيف يكون العمل؟.

نورد هنا ذلك المعيار الكشفي الذي لايرقى إليه أي معيار آخر والذي أكده الرسول (ﷺ) لوابصة حينما قال له:

[استفت قلبك.. استفت قلبك.. استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك]، كذلك إذا اشتبه عليك أمران لاتعرف أيهما أصح فعليك بالاستخارة المشروعة.

وعلى هدي ذلك.. إذا صادفت مشكلة ووجدت لها في الواقع حلاً في نفسك يثير الاطمئنان ولايثير في نفسك نزعات نفعية ودون أن تتجاهل تلك العناصر القيمية السابقة فأعلم أن ذلك الحل هو الصحيح للمشكلة طالما لايمس حقوق الآخرين، أو يكون على حسابهم.. وكل ذلك حق.. وإن رأيت أن الحل يوسع من دائرة الخير ويؤكد قيم العدل والصدق ويقتدي به كحل فاعلم بأن ذلك هو حق الحق، واعلم بأن الإنسان لاينال حقوقه ولايعطي ما عليه من حقوق إلا بمقدار ماهو حقيقي مع نفسه، وحقيقته تكمن في ارتقاء إحساسه بأهمية العدل والصدق والبر والإيمان وبمظاهر العقل السليم والوجدان الطاهر.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

المؤمــن (وقيمة الأمانة)

المؤمن من أسماء الله الحسنى، وسمى الله نفسه مؤمناً لأنه شهد بوحدانيته قبل أن يشهد بها أحد من خلقه فقال تعالى في سورة آل عمران : ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

وورد اسم المؤمن في سورة الحشر بالآية ٢٣ ضمن أسماء أخرى هي ﴿اللهُ الَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ، الْقُدُّوسُ، السَّلَامُ، الْمُؤْمِنُ، الْمُهَيْمِنُ، الْعَزِيزُ، الْجَبَّارُ، الْمُتَكَبِّرُ... ﴾.

أما إذا وصف الله تعالى نفسه به فللتدليل على أنه (سبحانه) هو الذي آمن من عذابه من لايستحقه، وإذا وصف به المخلوق فإنه يقصد به الواثق بما يعتقد ومردود ذلك على العقيدة والسلوك.

والقيمة الأخلاقية المستخلصة من هذا الأصل القيمي هي قيمة الأمانة لأن الأصل فيها مبعث للأمن والطمأنينة، ولذا سمى المكان الذي يطمئن فيه الإنسان على نفسه وماله ومآله بالمأمن، كذلك الوديعة في حد ذاتها وإن كانت أمانة، إلا أنها سميت بذلك لأن صاحبها قد ائتمن المودع عليها بهدف حفظها، ومن ثم فقد اطمأن إليه ووثق به.

لقد تناول القرآن الكريم الأمانة بمعانيها الثلاث، ونوه تعالى بالذين لايعرفون عن الأمانة شيئاً فقال عز من قائل في سورة آل عمران - ٧٥ ﴿. وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَايُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَادُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ... ﴾، فما بال الذين قد ائتمنوا على عقيدة وليس على دينار. ونرى الأمانة قد ذكرت في أكثر من آية بالقرآن لتأكيد النهي عن الخيانة، ولذا سنتكلم عنها كما وردت بمعانيها، وعن مقابلها السلبي المتمثل في الخيانة ثم نتكلم عن العناصر القيمية لها مستخلصين إياها من القرآن الكريم والسنة المطهرة.

عن الأوجه أو المعاني التي حملتها الأمانة في القرآن :

ورد ذكر الأمانة في القرآن على ثلاثة أوجه[1] أو معان هي :

١ - الفرائض : ومنه قوله تعالى في سورة الأنفال - ٢٧ : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُم ... ﴾.

٢ - الوديعة : ومنه قوله تعالى في سورة النساء - ٥٨ : ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ... ﴾.

١ - نزهة الأعين النواظر، مرجع سابق للإمام بن الجوزي، تعليق مهر النساء ص ٢٢، ٢٣.

٣ - العفة : ومنه قوله تعالى في سورة القصص - ٢٦ : ﴿... إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾.

وبتلك التوجيهات الكريمة أصبحت الأمانة في الإسلام مسئولية أخلاقية عظيمة لم تستطع السماوات والأرض والجبال حمل تبعاتها عندما عرضت عليها، بل أشفقن منها وحملها الإنسان، ومن ثم فقد طلب منه أدائها على الوجه الأكمل . . فمن قام بأدائها وفق منهج الله القيمي فقد فاز فوزاً عظيماً، ومن خان أمانته وضيع ما أؤتمن عليه وما استأمنه الله فيه فقد خسر الدنيا والآخرة.

يقول تعالى في سورة الأحزاب - ٧٢ ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ...﴾ . . ومن ثم فحينما جاء الإسلام ليرسي ذلك المفهوم القيِّم لما له من مردود عظيم في وجود الأمن النفسي بصفة خاصة وأمن المجتمعات بصفة عامة، وتوسع في عرضها حتى شملت كل الحقوق والواجبات . . فأصبح هناك أمانة بين الله والناس، وأمانة بين الرسول والناس، وأمانة بين الناس والناس، ومن ثم أصبحت الصلاة أمانة، والوضوء أمانة، والغسل أمانة، والوزن والكيل أمانة، وجميع صنوف الودائع صغرت أم كبرت . . كل ذلك في عرف الإسلام أمانة سواء قصد به الحفظ أو الايجار أو الاستعارة، حتى اللقطة والحماية والتعليم، على خلاف ما أخبرنا عن أقوام لم يرعو الأمانة، ولم يؤدونها، بل يستحلون الخيانة مع غيرهم وليس من بني جنسهم أو عقيدتهم، ويقولون بذلك، كما أورد ذلك القرآن في حقهم في سورة آل عمران - ٧٥ : ﴿... لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ...﴾.

ولكي يتعمق مفهوم الأمانة في النفس البشرية نشير إلى ذلك المقابل السلبي المتمثل في الخيانة والتي حملت خمسة أوجه[1] أو معان بالقرآن هي :

الذنب، جحد الأمانة، نقض العهد، الخلاف في الدين، الزنا.

فعن معنى الذنب - قال تعالى في سورة البقرة - ١٨٧ ﴿... عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾، كذلك أمر بعدم معصية الرسول (ﷺ) فقال تعالى في سورة الأنفال - ٢٧ ﴿... لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ...﴾.

أما عن معنى الجحود والنكران - قال تعالى في سور النساء - ١٠٥ ﴿... وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾، أي مدافعاً عن الخائنين تجادل وتدافع عنهم لأن في ذلك جحود للأمانة ونكرانها.

أما الوجه الثالث فقد جاء بمعنى نقض العهد - قال تعالى في سورة الأنفال - ٥٨ : ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ ...﴾.

---

١ - المرجع السابق، ص ١٧٢، وزاد ابن العماد في كشف السرائر (المحقق) وجهاً آخر ص ١١٩.

أما الوجه الرابع وهو الخلاف في الدين والفرار وعدم الاتباع - قال تعالى في سورة التحريم-١٠ : ﴿... ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِمْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ﴾ إلى قوله تعالى ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾، كذلك في سورة الأنفال - ٧١ ﴿... وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ ...﴾، وفي سورة النساء - ١٠٧ ﴿... إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً﴾.

الوجه الخامس : بمعنى (الزنا) قال تعالى في سورة يوسف - ٥٢ : ﴿... وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الخَائِنِينَ﴾ أي لايصلح عمل الزناة.

نرى أيضاً بالقرآن أن الأنبياء باعتبارهم المؤتمنون على وحي الله قد قدروا الأمانة حق قدرها، ولذا نرى أن كل رسول جاء لقومه كان ناصحاً وأميناً وحريصاً على التبليغ.. فقال تعالى في شأن نوح عليه السلام في سورة الشعراء - ١٠٦ - ١٠٧ : ﴿.. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، أما هود وصالح وشعيب - عليهم السلام - فقد قالا مثل مقولة نوح أيضاً في نفس السورة الآيات ١٢٤ - ١٢٥، ١٤٢ - ١٤٣، ١٧٧ - ١٧٨ : ﴿.. أَلاَ تَتَّقُونَ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ وبصورة التكرار لتثبت في الأذهان.

ونرى الرسول (ﷺ) الذي استأمنه الله على وحيه وعلى خير كتاب أنزل على أمة الإسلام يقول [ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء].

وقوله (ﷺ) في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم [المسلم مفطور على كل شيء إلا الخيانة والكذب].

ومن هذا الحديث الشريف يتضح أنه إذا كان المسلم مفطور على كل شيء.. إلا الخيانة والكذب.. لما فيهما من نزع الاطمئنان وخرم الثقة ومايصاحبهما من خوف وقلق، لذا شددت عقوبة الخائن والكذاب لما لها من تأثير سيء يتعلق سواء بقضايا العقيدة أو صلب التعامل ذاته بين الأشخاص.

ولكي يعمق الرسول (ﷺ) الإحساس بالأمانة في وجدان أصحابه أخبرهم عمن كان منهم أمين للأمة وبين ظهرانيهم.. ذلك الصحابي الجليل «أبو عبيدة بن الجراح» (رضي الله عنه) الذي اتصف بحسن الخلق وبالحلم الزائد والعفة والتواضع.

كذلك من أحاديثه الشريفة (ﷺ) الذي نفى فيه الإيمان عمن لا أمانة له فقال [لا إيمان لمن لا أمانة له ولادين لمن لاعهد له][1].

---

١ - رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط وابن حبان في صحيحه من حديث أنس، والصغير من حديث ابن عمر (المنذري).

ومن ثم لايخفى مردود الأمانة الإيجابي على الأمن النفسي بصفة خاصة والأمن العام بصفة عامة فافتقاد الناس إليها يكلفهم الكثير من الجهد والوقت والمال، إذ تمتلىء نفوسهم بالخوف والقلق، ويسأمون الحياة التي فقدت أهم عنصر فيها، ويعم المجتمع فوضى الاختلاس والتبديد والرشوة والاستئثار، وتعميق نزعة الأنانية، حتى يرى الكل بأنه كيان منفصل عن الجماعة التي يعيش بينها، بل وعن الدولة التي يعيش على أرضها بلا انتماء أو هوية.

فإذا جاء الإسلام ليرسي مفهوم الدين القيِّم ويحمل ضمن أصوله القيمية خصوصية للمسلم متمثلة في الأمانة ونبذ الخيانة فإنه بذلك يكون قد سما بإقامة سياج من الرحمة حول البشر حفاظاً على مصالحهم ليتفرغ الناس للعبادة والعمل وتنقطع وساوسهم وتزال مخاوفهم وترتد إليهم الثقة في نفوسهم وتتلاشى شكاويهم، ويعمهم الأمن والأمان والطمأنينة. . بل ذهب إلى أبعد من ذلك حينما جعل العفة مرتكزاً في فهم الأمانة لتجنب الزنا والفاحشة وحفظ الفرج باعتبار كلها خيانة، لأن الزوج الذي يزني هو كمن ينكث عهداً تضمنه عقد الزواج الذي أبرم بينه وبين زوجته ومن ثم يصبح بمثابة طعنة في الظهر تقترف خفية عنها وسرعان ماتسفر عن انتقال الحقوق لمن ليس لهم حقوق شرعية. . فإذا كان ابن السفاح يرث غير أبيه فهل يصبح هناك مأمن على الحقوق التي أكدها الشرع. . كذلك لاننسى أن فيه انتقاص لمكانة الزوج، وإساءة إلى أهل الزاني، بل يصبح عاراً اجتماعياً يصعب زحزحته من النفس وتلاشي أثر الرحمة من الوجدان والإيمان، بل نرى الإسلام قد أعاد للأذهان أن الزنا هو ليس كل اتصال جنسي فقط، بل أن العين زناها النظر إلى المحرمات، واليد زناها الأخذ من الأمانات، والرجل وزناها البطش والإفساد. . ومن ثم يجب الكف عما لايحل صوناً للأعراض حفظاً للكرامة الإنسانية.

فما أحوجنا إلى تفهم قيمة الأمانة لأن توضع ضمن إطارنا المرجعي.

عن العناصر القيمية لفهم قيمة الأمانة:

١ - الصدق.

٢ - الوفاء.

٣ - القوة.

فالصدق في الكلمة أمانة وفي المعاملة حزامة، ومن لايكون صادقاً مع نفسه لايكون أميناً مع غيره.

أما الوفاء بالعهد فمن أصول البر، وهو الضمان المؤكد لبقاء عنصر الثقة في النفس. . فمن لاصدق فيه لاخير منه، ومن لاوفاء له لاعهد فيه.

كذلك نرى تلك العناصر القيمية واضحة سواء في السياق القرآني أو هدي السنة ذاتها.

فعن القرآن الكريم قال تعالى في سورة مريم - ٥٤ : ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ... ﴾. كذلك في سورة البقرة - ١٧٧ ﴿... وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا... ﴾.

أما بالنسبة لعنصر القوة، فتلك هي القوة المعنوية المدعمة للعفة فقد حمل لنا القرآن في سورة القصص مثالاً للبشرية التي تمثلت فيها القوة والأمانة. . ذلك هو يوسف -عليه السلام- الذي جمع تلك الخصائص في الآية الآتية :

﴿يَا أَبَتِ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾، كذلك كانت حقيقة دعوة الأنبياء لأقوامهم متمثلة في قول كل منهم لأقوامهم ﴿أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾. . ذلك هو الاتقاء الذي لاينصح به إلا إذا كان من إنسان قوي النفس مهيمناً على رغباته وشهواته، وأميناً في رسالته.

كلمة ختامية في معرض الأمانة :

من حكمة الله تعالى أن الأمن النفسي قد تكفل به بوضع منهجه وبلزوم التصديق برسله وبالوثوق في رزقه وبتعدد النعم التي لاتحصى ولاتعد، ومن ثم يجب أن يوجد كذلك المجتمع الآمن الذي تطمئن فيه النفوس وتتيسر فيه سبل العيش الرغيد ليأنس فيه البريء، وينعم به الضعيف.

وحينما جاء الإسلام. . جاء ليعالج مسألة الأمن والأمان في الإنسان من زوايا إنسانية تشمل الظاهر والباطن. . فجاء بالمنهج القيمي لتربية المسلم على الإيمان والتصديق، واستحكام الثقة فيه بما يعتقد لصواب حكمه فأصبح الأمن النفسي مرجعه الخشية والاتقاء وليس مرجعه القهر والإجبار.

ولذا كان الإسلام في تقنينه الجزاء لمن يحاربون شرع الله ومن يحاربون رسوله ويفسدون في الأرض فساداً، ويخلون بأمن أنفسهم أولاً وأمان غيرهم ثانياً. . أن :

﴿يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ (سورة المائدة)- ٣٣، جزاء رادع لهم وعبرة لغيرهم.

ورغماً من أن الإسلام قد جعل في عقوبة المثل معياراً للقصاص العادل، إلا أنه قد نهى قطعياً بخيانة الخائن بمثل خيانته. . إذ قال الرسول (ﷺ) :

[أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولاتخن من خانك]. . أي ألا نجاري الغير في فعل الخيانة وإن أصبنا منها، بل أن نؤدي الأمانة كما يجب فذلك أدعى للاطمئنان. . وأدعى لوثوق الآخرين.

ومانراه الآن في عصرنا من موجات الإرهاب التي تعم هذا البلد وتنحصر عن تلك لتظهر في أخرى. . فذلك مرجعه أن النفس قد فقدت أمنها وأمانها بفقدان التصديق ببارئها وعدم الوثوق سواء في نفسها أو في غيرها.

وحينما تفقد المجتمعات نعمة الأمن والأمان يعم الإضطراب والفوضى، وتنتهك القوانين ويعتدي على حياة المواطنين وأموالهم وأعراضهم ومن ثم يتغير مفهوم الأمن والأمان وتتلاشى الثقة كلية، ويصبح الخطر دائماً على الدوام.

فالأمن والأمان أساسي ولازم سواء للنمو النفسي للإنسان أو للتوافق مع بيئته.. وهو أيضاً لازم لوجوب الاستقرار وتدعيم الثقة في النفس، هو الذي يدفع الإنسان إلى الانخراط في الجماعة ويأتمر بأمرها ويراعي معاييرها.. فإذا فقد الإنسان أمنه وأمانه انتابته الوساوس والظنون وكل مظاهر الاضطراب النفسي، وأن مايعرف الآن بعلل المرض النفسي هو المسئول عما تؤديه موجات الفوضى والاضطراب التي تعم المجتمعات، ومرجع ذلك إلى الخواء الديني وافتقاد الملاذ الآمن للإنسان. ومن ثم نستطيع أن نقول بأن الإيمان هو الدواء لفقدان الأمن والاطمئنان والشعور بالاستقرار والرضا، ولذا يجب، بل ينبغي على النفس البشرية أن تهجع إليه وتلوذ به.. فليس لها بديل إلا الاستسلام لإرادة الله الخيرة.. ذلك الاستسلام الذي مرجعه تفويض الأمر لله والاحتساب في كل ما من شأنه أن يعكر صفو النفس ونقاؤها مع الالتزام بمنهجه القيمي والتمسك به.. ذلك لأن الخالق أعلم بمن خلق.

فإذا كان الله تعالى قد سلم من عذابه من لايستحقه، وأمن من الخوف والعذاب كل من آمن به وبرسله وكتبه واليوم الآخر وقدره خيره وشره.. فتكن أنت واحد من هؤلاء لتفوز بالأمن والاهتداء.

وصدق تعالى حينما قال في سورة الأنعام - ٨٢ : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

كذلك نلمح أيضاً إلى أن كل شيء في الوجود أعطاه الله للإنسان هو أمانة مودعة لديه، فالعقل الذي يعد من أكرم النعم أمانة فواجب علينا أن لانقترف به المعاصي، وألا ندنسه بمجالسة أهل السوء والدهماء والأخذ عنهم أو موالاتهم، أو تخريبه بالمخدرات والمسكرات وأن نحرص عليه من الفساد والبوار لأنه محك التكليف الحقيقي للإنسان وفهم معنى العبودية وأداء حقها.

كذلك يجب أن نفهم أن جارحة اللسان يجب أن تصان.. فإذا كان الله تعالى قد رفع شأنها على سائر الجوارح فأنطقها.. فذلك لأنه ليس من الجوارح أعظم أجراً منه إذا أطاع ولا أعظم ذنباً منه إذا جنى.

وعلى ضوء ذلك نرى أن قيمة الأمانة ودورها في الحياة ومردودها الإيجابي ومفاهيمها الواضحة في السياق القرآني قد تعددت لتأخذ مساحة كافية من المعاني التي لو فهمناها وجعلناها نصب أعيننا كنا أمناء على ديننا.. أمناء في دنيانا.. أمناء على أفعال جوارحنا.

ولـو حـاولنا إبـراز التفكير البشري وفهم الأمـانـة على ضوءه بعيـداً عن التفكير الإسـلامي فلسوف نجـد تفاوتـاً كبيراً في معنى الأمانـة . . فهناك من البشر مـن ردوا الأمانـة إلى مسميات تدخل في أفعال المجال العقلي كـالإرادة والحرية ، ومنهم من وقف موقف الطبيعة ذاتها والمتمثل في موقف الأرض والجبال . . فلا وعي ولاإدراك .

إنها في الإسلام نتاج عقل واعي ووجدان سليم فلا انفصام بين إدراكات كلا منهما . . ذلك لأن الإنسان يفكـر ويحس ويعبر . . فإن لم يكن تفكيره وإحسـاسـه وتعبيره داخل إطار من الانتماء العقيدي والالتـزام الخلقي بمنهج قيمي . . فلا أمـان ولا ثقة لـه . ولا أمن ولا اعتدال منه . . ومن هنا كانت الأمانة أيضاً مسئولية أخلاقية عظيمة .

والله الهادي إلى سواء السبيل .

الوكيــل (قيمة التوكل)

الوكيل من أسماء الله تعالى الحسنى ومعناه المقيم والكفيل بأرزاق العباد. والفرق بين الوكيل في صفات الله تعالى وبين الوكيل في صفات العباد، أن الوكيل في صفات الله بمعنى المتولي القائم بتدبير خلقه لأنه مالك لهم رحيم بهم، وفي صفات غيره إنما يعقد بالتوكيل[1].

جاء الوكيل في القرآن على أربعة أوجه[2] أو معاني :

الأول : بمعني الحرز والمنع – قال تعالى في سورة النساء – ١٠٩ ﴿هَأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾.

ذلك في شأن طعمة بن أبيرق الذي سرق درعاً من جاره واتهم بها يهودياً وتآمر قوم طعمة عليه لإلباس التهمة به وهو بريء فنزلت الآية توبيخاً لهم لدفاعهم عن السارق ووقوفهم بجانبه وإيقاظاً للعقول من غفلتها عن الحق والعدل وبأنهم إذا كانوا يدافعون عن السارق والخائن في الدنيا فمن الذي يدافع عنهم في الآخرة ويكون لهم حرزاً ومانعاً من عذاب الله فيها.

والآية وإن كانت قد نزلت في واقعة بذاتها، إلا أنها تعتبر توجيهاً عاماً للذين يدافعون عن الباطل وترك الحق تكذيباً وتضليلاً لوجود صلة القرابة أو مجرد حمية جاهلية لاتفرق بين مايجب أن يكون، وماينبغي ألا يكون.

كذلك قوله تعالى في سورة الإسراء – ٦٥ : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾. وذلك في معرض الأماني والوعود المغرية للإنسان من الشيطان وإعلام من الله بأن عباده المخلصين ليس له عليهم سلطان، لأنه تعالى عاصمهم من غوايته وحافظاً لهم من كيده ووسوسته وكافيهم شره.

الثاني : لمعنى الرب – قال تعالى في سورة المزمل – ٩ ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾، والآية تحمل توجيهاً من الله تعالى لرسوله الكريم محمد (ﷺ) في بداية الوحي الإلهي بأنه الخالق والرازق والمتكفل بتدبير شئون خلقه، بل والمالك لمشارق الأرض ومغاربها، وأمر منه تعالى بالاعتماد عليه وتفويض الأمر إليه.

كذلك قال تعالى في سورة الإسراء – ٢ : ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾. والآية تحمل إخباراً عن موسى – عليه السلام – حينما

---

١ – الفروق في اللغة لأبي هلال العسكري ص ٢٠٠ – ٢٠١ (مرجع سابق).
٢ – كشف السرائر ص ١٩٢ – ١٩٣ (مرجع سابق).

أعطاه الله التوراة لهداية بني إسرائيل لإخراجهم من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان، وبأن لايتخذوا من دون الله رباً يلجأون إليه ويعتمدون عليه.

الثالث: لمعنى مسيطر - قال تعالى في سورة الأنعام - ١٠٧: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

وهذا توجيه من الله لرسوله بأن يعرض عن المشركين ولايحفل بهم ولايلتفت لآراءهم، لأنه لو شاء هدايتهم لهداهم، ولكنه تعالى يفعل مايشاء لحكمة وأما أنت يامحمد فلست عليهم بمسيطر لإجبارهم على الإيمان، أو أنك رقيباً على أعمالهم أو موكل بأرزاقهم.

كذلك قال تعالى في سورة الفرقان - ٤٣ ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾. والآية الكريمة تؤكد أن الوكيل الحقيقي هو الله مع نفي السيطرة عمن أجرم في حقه تعالى، إلا أنها تحمل تهديداً ووعيداً بأن الجزاء سيكون رادعاً للذين أشركوا واتخذوا وكلاء وأولياء من دون الله، وأنه (تعالى) كفيل بهم يوم القيامة.

وليس هذه الآيات فقط هي التي وردت بمعنى مسيطر، بل ذكرت آيات أخرى في مواضع أخرى من القرآن الكريم، وأنه إذا ذكر «الوكيل» وجاءت ضمن عبارة (وما أنت عليهم بوكيل) فإنها تعني - وما أنت عليهم بمسيطر[1].

الرابع: لمعنى الشهيد - قال تعالى في سورة النساء - ١٣٢: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً﴾، أي شهيدا.

ذلك عن «الوكيل» والأوجه أو المعاني التي وردت بالقرآن الكريم.

والقيمة الأخلاقية المستخلصة من الوكيل هي قيمة التوكل.. ولمعرفة التوكل الحقيقي يقتضي معرفة العناصر القيمية التالية:

١ - الإخلاص ٢ - العمل ٣ - الإرادة ٤ - الجهد ٥ - السبل المشروعة.

وبادىء ذي بدء نقول ليس هناك أي شيء يمنعنا من التوكل على الله بعد أن هدانا سبلنا بمعرفة تلك العناصر القيمية لفهم قيمة التوكل الحقيقي، وعلمنا كذلك أن الحكم والولاية له والتوفيق به والنصرة لنا.

ولماذا لا نتوكل عليه ونرجع كل الأمور إليه ونحن مأمورين به مع العبادة؟ قال تعالى في سورة هود - ١٢٣: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ....﴾، وليس ذلك فقط بل أنه تعالى يحب المتوكلين عليه كما يحب المتطهرين.

والله تعالى حينما أعطانا قيمة التوكل وجعل لها أصلاً قيمياً من اسمه الوكيل فقد أعطاها لنا

---

١ - المرجع السابق.

تفضيلاً وتكريماً ليس لتأكيد واستحكام ثقة المؤمنين به، بل لأنه حينما أمر بالتوكل عليه طلبه من المتوكلين عليه الذين هم في حقيقتهم مؤمنين.

فالمؤمن حينما يقدم على عمل ما فإنه يتدبر أمر ذلك العمل ويتحسس عواقبه، وليس له أن يحكم بنتائج هذا العمل ونصيبه من الفشل أو النجاح، لأنه لم يقس بعد الجهد المبذول وقيمة الإخلاص فيه، فإذا كانت النية ستبقى خالصة والجهد سيتلازم مع قدر العمل ومعرفة سبل التنفيذ ومن ثم فالتوكل هنا يصبح مرهوناً بالعزم - قال تعالى ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله﴾ والعزم هنا ما هو إلا إرادة . . فهل إذا وجدت الإرادة ومعرفة طبيعة العمل، هل يصبح التوكل مشروعاً أم لا؟ . . نعم يصبح التوكل مشروعاً إذا كان مقيداً بتلك العناصر القيمية التي سبق وأن ذكرناها، ولايصبح مشروعاً إذا اقتصر الأمر على مجرد الإرادة ومعرفة طبيعة العمل فقط . . ذلك لأن مجرد وجود الإرادة في الإنسان لفعل عما ما لايخضع هذا العمل لشروط التوكل . . فلكي يكتمل التوكل بعد الإرادة يستلزم الأمر تصنيفها هل هي إرادة خير أم إرادة شر . إذا كانت إرادة خير يحكمها الإخلاص فيستلزم بعد ذلك معرفة الأسباب المشروعة أو الطرق الموصلة أو الوسيلة الصحيحة لبلوغ الهدف . . وليس ذلك وكفى، بل تعليق ذلك كله على الله، لأنه صاحب التوفيق الأعلى وصاحب الفضل الأوفى في عدم إهدار جهد مخلص لبلوغ غاية نبيلة بسبيل شريف ونية خالصة . . ذلك هو حقيقة التوكل المأمورين به.

ولو رجعنا للقرآن الكريم لنستقي منه الدلالة على ذلك لوجدنا الله تعالى يقول في سورة المائدة - ٣٥ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

ففي الآية الكريمة نجد أمر بتقوى الله والتقرب إليه بالوسيلة الأصح ثم الجهاد في سبيله ثم علق الفلاح بعد ذلك دون القطع بالفوز . فإذا كان في الآية أمر بتقوى الله فمعنى ذلك أننا مطالبين بالإخلاص، باعتبار أن الإخلاص وجه من وجوه التقوى بدلالة قوله تعالى في سورة الحج - ٣٢ : ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ أي بأنها من إخلاص القلوب أما التقرب إليه بالوسيلة فلابد أن تكون الوسيلة ليست صحيحة وكفى بل ومشروعة، أما الجهاد في سبيله فمضمن بالجهد الذي يبذله الإنسان في سبيل الله، أما تعليق الفلاح دون القطع بالفوز فلأجل أسباب لاينكرها عاقل ولايغفلها مؤمن وتلك هي :

١ - أن الاتقاء المطلوب في الآية السابقة قد لايتحقق معه شرط الإخلاص.

٢ - أن ابتغاء الوسيلة قد يخضع للهوى فلا يقف الإنسان على الوسيلة الصحيحة والمشروعة.

٣ - أن الجهد المبذول في سبيل الله قد يكون جهداً أقل من المطلوب لنيل مرتبة الفلاح، ومن ثم علق الفلاح دون القطع بالفوز.

لكن مشكلة الإنسان في الحياة أنه ينسى منهج الله . . فرغماً من أن كل إنسان وحيوان وطير قد تكفل به الله إلا أن الإنسان مازال غير واثق في الله من عدم التوكل عليه وتفويض الأمر إليه . . ويوم أن نعلم معنى التوكل الحقيقي ونثق أماناً واطمئناناً في الله الجاعل لكل شيء سبباً ونفهم ماقلناه، وأن الأرزاق وإن كانت مقدرة في الأزل، فهي مقدرة لأن تحقق فيك الحياة، أما عملك فيها فمرهون بسعيك، وسعيك مرهون بإرادتك وإخلاصك وجهدك وبالوسيلة الصحيحة والمشروعة . . ويوم أن نصدق قول الله تعالى في سورة الطلاق الآيات ٢ ، ٣ ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، وقوله تعالى في نفس السورة- الآية - ٤ : ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾، وقوله تعالى في نفس السورة - آية-٥ : ﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً﴾، نكون قد عرفنا أن قيمة الإخلاص في التقوى، وقمة الإخلاص في المعاملة .

وإذا كانت أغلب الكتابات الأخلاقية في الإسلام دارت حول زم الدنيا، وأن المكدود فيها شقي وإن ظفر، وأن الإنسان يجب أن يروض نفسه على قطيعتها ليسلم من تبعاتها، وعلى فراقها ليأمن من فجعاتها، أو الإعراض عنها ونبذها . . إلى آخر ماقيل . . فهذا الكلام في حد ذاته خطير للغاية لأنه تعطيل لأصل قيمي هو (الوكيل) وعدم معرفة قيمة التوكل الحقيقي، ولم يكن هذا الكلام مدعاة للقعود عن السعي فقط وإحلال التواكل محل التوكل بل كان تفريطاً في فهم عقيدة الإيمان في الإسلام حتى كان ذلك سبباً في تصيد خاطىء لإقامة الشبهات حول الدين الإسلامي من المستشرقين الذين اندسوا إبان الاستعمار في الأوطان العربية لمحاربة العقيدة وبلسان أبنائها، ومن ثم حرفوا التوكل المستهدف في الإسلام والمبني على ضرورة السعي واتخاذ الأسباب المشروعة واعتبار الجهد وقيمة الإخلاص فيه، وجعلوه تواكل ووصمه بالتعارض بين إرادة الجبر وإرادة الاختيار، وأن لافائدة من السعي والإرادة لأنهما معلقان بمشيئة الله، فإذا سعينا وكان مقدراً لنا ألا يثمر سعينا لم يثمر، وإذا لم نسع وكان مقدراً أن نصبح أغنياء أو أقوياء أو مؤمنين أصبحنا كذلك من غير سعي ولا عمل . . وكان على رأس هؤلاء المستشرقين المدعو واشنجتون ايرفنج الذي أخذ على عاتقه في ترويج ذلك التعارض، ونسي أو تناسى أن السعي والإرادة المعلقان بمشيئة الله معلقان أصلاً لارتباطهما بالجهد والإخلاص والوسيلة المشروعة . . فكيف نحكم على عمل قصر على الإرادة فقط ولم نر ثمرة للإخلاص فيه، أو نُقَيِّمُ جهداً مبذول في سبيله، أو نقف على صلاحية الأسباب الموصلة إليه . . إنها أمور منها ماهو شرعي، ومنها ماهو شخصي، ومنها ماهو مرتبط بالنوايا الحقيقية للإنسان . . ولكل امرىء مانوى . . وكما قال تعالى في سورة النجم ٣٩، ٤٠ ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ .

ولذا نرى أن إرادة الاختيار في الآية السابقة واضحة دون إرادة الجبر فقد ترك للإنسان حرية الاتقاء سواء كان اتقاءاً بخشية أو اتقاء بإخلاص ... فإذا كان الفلاح في الآية السابقة قد علق دون القطع بالفوز فذلك لإرجاعه لمشيئة الله حتى لايظن الناس بأن بوجود إرادتهم وبتمام أعمالهم وبإدعاء إخلاصهم ومعرفتهم للوسائل والأهداف قد حققوا نجاحاً ينسب لهم الفضل فيه، ومن ثم نرى أنه إذا توافرت تلك العناصر القيمية السالف ذكرها في التوكل يصبح توكلاً مشروعاً . لأن ما قيمة العمل بغير إرادة . وما قيمة الإرادة بدون عمل وما قيمة العمل والإرادة بغير جهد يتلازم مع قدر العمل، وما قيمة الإرادة والعمل والجهد بغير معرفة السبل الكفيلة والمشروعة، وما قيمة كل ذلك في ميزان الدين والدنيا إن لم يكن هناك إخلاص وتسليم.

عن نبأ الخسران في الأعمال :

حمل لنا القرآن الكريم في سورة الكهف - ١٠٤ نبأ الخسران في الأعمال للذين ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُم يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾، ومن ثم فقد حبطت أعمالهم، فكيف يضل سعي الإنسان في الحياة؟.

يضل سعي الإنسان في الحياة بالآتي :

١ - إذا كفر وصد عن سبيل الله. ٢ - من يرى سبيل الرشد ولايتخذه سبيلا.

كذلك جاء أن من يعمل من الصالحات وهو مؤمن ﴿فلا كفران لسعيه﴾.

ومن ثم نرى أن التوكل على الله وإن كان مرهوناً بالسعي كما نعلم إلا أنه يجب أن نضع في اعتبارنا ماسبق أن قلناه، ومن ثم فالتوكل أمر لازم في الحياة العملية وإن كان مرتبط بقيمة السعي كما وضح فهو يجعل الإنسان دائماً موصول بالأمل في الله في ألا يخيب عمله ورجاه، وفي نفس الوقت يراعي أن لكل عمل جهده وأن إرادة السعي يجب أن تكون إرادة خير وأن الوسيلة المشروعة تصبح سبباً في تأكيد إخلاصه، وأن الجهد يصبح معيار لقبول العمل وتفضيله، ومن ثم يصبح التوكل المستهدف في الإسلام لايتنافى مع الاكتساب وتعاطي الأسباب، وأن القول بأن الأمور إذا كانت مقدرة فلا حاجة إلى الأسباب فذلك يعد من الفساد، لأن الإلتفات عن الأسباب شرك ومحو الأسباب نقص في العقل والإعراض عنها قدح في الشرع.

السلوك التطبيقي لفهم قيمة التوكل :

لم نر في السلوك التطبيقي للأنبياء ولا رجال الصدر الأول في الإسلام قعود عن السعي وفهم التوكل على أنه تواكل. . فهذا أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام - حينما ألقاه المشركون في النار قاصدين من وراء ذلك إحراقه والتخلص منه جزاء ما عاب أمر أصنامهم وتحطيمها وأمره بعبادة الله الواحد القهار ونهاهم عن عبادة ماسواه. . نرى إبراهيم - عليه السلام - لم يلجأ إلى

أحد من البشر ليستعين به من دون الله في تحديد مصير وموت محقق. . حتى أن جبريل - عليه السلام - أشرف له طمعاً في أن يطلب منه شيئاً بل عرض عليه ذلك فقال له إبراهيم ﴿أما إليك فلا﴾ ونطق بقوله ﴿حسبي الله ونعم الوكيل﴾، فأمر الله النار بأن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم ونجاه من القوم الظالمين.

كذلك قالها الرسول محمد (ﷺ) حينما قيل له بأن المشركين قد جمعوا للمسلمين أناساً لا قبل لهم بهم، وانتواء أبي سفيان استئصال الإسلام وأصحابه. . ومن ثم فقد انقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء وكان لهم النصر والأجر في كل الوقائع التي جرت بعد ذلك. . وتلك سنة الله فيمن توكل عليه وفوض أمره إليه.

ولقد ساق القرآن الكريم قصة السيدة مريم للعظة والاعتبار فحينما جاءها المخاض قال لها الله تعالى ﴿وهزي إليك بجزع النخلة تساقط عليك رطباً جنيا﴾ ولو شاء الله أن ينزل عليها رطباً من غير أن تسعى في هز النخلة لفعل.

كذلك قال تعالى ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

ويوم أن قدم قوم على النبي (ﷺ) وقالوا أن فلان يصوم النهار ويقوم الليل، ويكثر الذكر فسألهم [أيكم كان يكفي طعامه وشرابه؟] فقالوا كلنا. . فقال (ﷺ) [كلكم خير منه].

وكلنا يعرف مقولة رسول الله (ﷺ) للأعرابي الذي سأله : أيترك ناقته ويتوكل أم يعقلها ويتوكل. . فقال له (ﷺ) [إعقلها وتوكل].

وهذا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) الذي قال في شأن الطاعون وعدم الدخول عليه (نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله) وذلك باتخاذه سبباً للوقاية.

فهل آن لنا أن نتوكل على الله حق التوكل بعد أن هدانا سبلنا. ؟

والحمد لله رب العالمين

السـلام (وقيمة السلام)

السـلام اسم من أسماء الله الحسنى ومعنـاه السـالم من كل نقص ومن كل تمثيل، الموصـوف بكل كمال، المنزه عن كل عيب، والذي سلم من عذابه من لايستحقه.

جاء ذكره في القرآن الكريم على خمسة اوجه (1) او معان:

أولها: بـاعتباره أسماً من أسماء الله الحسني وورد ذكـره في آية واحـدة بالقـرآن الكريـم في سـورة الحشر - ٢٣ وهي ﴿... الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ. . ﴾.

ثانيها: باعتباره تحية الإسـلام - قال تعالى في سورة الأنعام - ٥٤ ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ. . ﴾.

ثالثها: باعتبـاره السلامة من كل سوء وقيل في حق نـوح - عليه السلام - قال تعـالى في سورة هود - ٤٨ ﴿. . . . اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا. . ﴾.

رابعها: باعتباره هو الخير وذكر في شأن ليلة القدر باعتبارها خير من ألف شهر ففيها يقدر الله الخير والسـلامة لبني الإنسان وذلك هو التقدير الحولي الذي يكتب من السنة إلى مثلها - قال تعالى في سورة القدر - ٥ ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾.

خامسها: باعتبـاره الثناء الجميل وقيل في حق أبينا إبـراهيم باعتبـاره السلام العاطـر والكريم عليه من الله - قال تعالى في سورة الصافات - ١٠٩ ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾:

ولم تكن تلك الآيـات فقط هي التي وردت فيهـا هـذه الـدلالات أو الأوجـه، بل ورد ذكـر آيات أخرى في مواضع أخرى من القرآن.

ومن ذلك الاسم الشريف جـاء مسمى الإسـلام، فهـو استسـلام إرادة الإنسـان لإرادة الله والانقياد له والتخلص من شوائب الشرك وأهله، ومنه أيضاً جاء السلم الذي هو ضد الحرب، ذلك لأن كل فئة متحاربة تود الخلاص والسلامة من أذى الفئة الأخرى.

والمراد بـالسلام في المجـال الأخـلاقي هي أن تكـون روح الإنسـان صـافيـة من دغل الشرك والذنوب مطبوعة على المسالمة والنقاء مع حمل مشاعر الخير للجميع.

فإذا كـان الإسـلام قد أرسى مفهـوم الـدين القيّم وحمل ضمن أصوله اسم السـلام كـاسم

---

(1) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر لابن الجوزي ص ٢٣٥-٢٣٧ الجزء الثاني (مرجع سابق).

شريف وأصل قيمي، فما ذلك إلا لتـأكيـد معنى السـلام النفسي، بل وسـلام الكون في ظل شريعة أصلاً نـزلت في موكب السلام، ولكي تتجرد النفس الإنسانية من نـوازع الشر وإبعادها عن ظلمها أو ظلم الأنفس غيرها.

ولكي نعمق الإحساس بقيمة السلام ستتكلم عن السلام النفسي. . ذلك الذي لايتأتى إلا لمن سلم قلبـه من الغـش والحقـد والحسـد وإرادة الشر، وسلمت جـوارحـه عن المحظـورات والآثام، ولن يـوصف الإنسان بالسـلامة الحقيقيـة إلا إذا سلم المسلمون من لسانـه ويده، بل وأفشى السلام والأمـن بين الناس. . لكن كيف يكون ذلك والشيطـان يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق. . وهنا تطالعنا إجابـة المنهج القيمي التي تعطينا دلالات تؤكد في معناها قيمة الطهارة وأهميـة هجر الدنس ومقـاومة الغواية والارتسـام الحقيقي على طريق الاستقامـة وصولاً للنقاء النفسي الـذي ينأى بصاحبه عن الانجرار في مهـاوي الرذيلة، أو الانخداع بـالمعاصي، ولذا نجـد الطهارة باعتبـارها مدخـلاً للسلام النفسي قد أكـد عليها القرآن في أكثـر من ثلاثين مـوضع منـه. . قـال تعـالى في سـورة البقـرة - ٢٢٢ ﴿. . إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّـوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾.

ففي تلك الآيـة الكـريمة تأكيـد من الله تعـالى بأنـه يحب التوابين ويحب المتطهـرين. . وفي تقديمـه للتوابين على المتطهرين معنى ومغزى. . ذلـك لأن التوبة الصحيحة وإن كـانت تكفر الذنب فإنها تمحو أثـره من النفس فيسلم الإنسان من عقوبة الـذنب، وسواء الذين تابـوا بتوبة نصوحـة بإقلاعهم عن المعصيـة أو المنزهين بداءة عن الفـواحش والأقذار. . فهـؤلاء هم الذين يحبهم الله.

كذلك نـرى في شأن مريم العـذراء - عليها السلام - قـال تعالى في سـورة آل عمران - ٤٢ ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾.

والاصطفـاء هنا وإن كـان بمعنى الاختيـار، إلا أن الاختيـار أعقبه كـذلك التطهـر من كل شائبة مما اتهمها به اليهود من الفاحشـة، ولتأكيد قدرة الله في إنجاب ولد غير منسوب لأحد من البشر.

أمـا في شأن آل بيت رسـول الله (ﷺ)، ومن قبل في شأن آل بيت إبـراهيم -عليه السـلام- فقد قـال تعالى في سورة الأحـزاب - ٣٣ ﴿. . إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾. . فتلك إرادة الله تكريماً لآل البيتين الكريمين.

والإسلام حينما أكد على طهارة الإنسـان وسلامته فإنه بذلك يكون قد أراد أن يـرتد بالإنسان إلى صالح فطـرته لينعم بالأمن والسـلام... ولكي يكتمل ذلك السلام النفسي في الإنسـان أمر بالجهاد والصبر.

ولنظرته الإنسانية في أن ينعم الكل بالسلام لم يطلب من معتنقيه أن يقفوا عند سلامتهم واطمئنانهم فقط بل عليهم أن يراعوا أمان وسلام الآخرين. . وأن يحافظوا عليه ويدافعوا عنه إذا ماتعرض أمنهم وسلامهم للخطر. . وهذا ما كان يوم أن أمروا بالجهاد لحماية النفس والعقيدة والمال والعرض.

فالإسلام حينما شرع الجهاد كان السلام النفسي أهم هدف لخلاص الإنسان من الشرور والآثام وتجريد النفس من نوازع الشر وإعلاء كلمة الله في الأرض بسبيل الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة. . أي أن تشريع الجهاد جاء لسببين : أولهما سلامة الإنسان، وثانيهما نصرة العقيدة التي ينتمي إليها وحمايتها لمردودها على النفس.

أما عن قيمة الجهاد بـ عتباره عائداً على النفس بالسلامة والأمان. . يقول تعالى في سورة العنكبوت - ٦ ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ...﴾، أما في حق الذين جاهدوا النفس والشيطان أو الهوى والكفار ووعد الله بهدايتهم إلى سبيل الحق. . يقول تعالى في سورة العنكبوت أيضاً - آية ٦٩ ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ...﴾.

كذلك نرى أمر من الله لرسوله (ﷺ) ليس بمجاهدة الكفار والمنافقين باللسان وكفى، بل وبالسيف مع الغلظة والشدة - قال تعالى في سورة التوبة - ٧٣ ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ...﴾. . إذن الأمر بالجهاد كان لحماية الإنسان وصوناً لعقيدته ورد العدوان لتأكيد الاطمئنان النفسي، ولم يشرع أصلاً القتال للاعتداء، بل نرى توجيهاً من الله لرسوله (ﷺ) في قوله تعالى في سورة البقرة - ١٩٠ ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَتَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَيُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

ثم نرى توجيه آخر باتباع عقوبة المثل باعتباره عدلاً عند رد الاعتداء دون زيادة في التنكيل. . يقول تعالى في سورة البقرة - ١٩٤ ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

أي كان القتال في الإسلام سبيلاً لرد الظلم والاضطهاد ودفع الاعتداء ممن استأنسوا في عقيدتهم أمناً وسلاماً عاد على النفس بالرضا ووقر في الصدور، وأن انتزاع الأمن والسلامة المبني بالجهاد النفسي والمالي، وصبر الشدائد والمحن والابتلاء لابد وأن يقابل بوسيلة تأديب وترهيب للمحافظة عليه ولحماية العقيدة من عبث الفجار والمنافقين لتحكم الأرض بشريعة الله التي ارتضاها لهم والتي أمر رسوله بتبليغها إليهم. . فلم يكن القتال كما قلنا هدفاً لذاته بل وسيلة لبلوغ هدف أرساه مفهوم الدين القَيِّمَ وأكد عليه ذلك هو «السلام».

كذلك نرى القيم الإنسانية الحقيقية قد حكمت الجهاد أو القتال فقد كان التسامح عن

قدرة والوفـاء بلا غدر، وتنزيه الجهـاد عن عرض الدنيا، والاستعانـة بالصدق والصبر. ذلك هـو السلام في الإسـلام . . سلام الـرحمة القائم على الطهـر والنزاهـة والمؤكد لـلأمن والسلامـة والمصـان بـالجهـاد والصـدق والصبر . فكيف يفضل العقـلاء الاستسـلام لإرادة الشيطـان ويستبعدون إرادة السلام من الإسلام؟ .

وإذا كـانت لنـا كلمة أخيرة في معـرض السـلام . . فهي القـول بأنه إذا كنـا نـرى أن تعليم السلام أصبح من القضـايا التي نالت اهتمام الـدول المتحضرة لأهميته في سلامة البشريـة ولدرء خطر الحروب المدمـرة والقادمـة وصولاً لتشكيل المجتمع البشري حتى يصبح أكثـر عدلاً وأقل عنفـاً . . إلا أن ذلك لايتأتى في ظل مفهـوم يستنـد إلى القوة وبعيـداً عن الحق وتلك العنـاصر القيميـة التي تؤكـده خصوصـاً في ظل وجود أنظمـة متعسفة لاتعـرف عنها شيئـاً، بل ولا عن السلام باعتبـاره أصل قيمي فما زالت مسـاندة الاستعمار الاستيطـاني العنصري مستمرة ونظرات الاستعـلاء القـومي والتعصب الـديني بل والصراع العقيـدي مـوجـودة . . والأدهى من ذلك والمحزن حقاً . . تخلي من يتشدقون بحقوق الإنسان عن مناصرة الإنسـان .

ويوم أن يعرف العالم قيمة وأهمية السلام النفسي بالنسبـة للإنسان، وباعتبارها قيمة تستمد معـاييرهـا من أصـول قيمية متمثلـة في الحق والعـدل والإيمان والصبر وينعكس سلـوكهـا على الأفـراد والأمم . . نكون قـد تعلمنـا معنى السـلام الكفيل بحق بصفـاء القلوب ونقـاء السرائر والبعد عن العداوة والبغضاء وعلمناه للآخرين .

أن موجات العنف المتـلاطم في كل أرجاء العالم، والحروب المدمرة سـواء الماضية أو المقبلة، تجعل من حق كل إنسان أن يعيد حساباتـه ويكتشف مابقي من أرصده للقيم الحقة في ذاته . . يومهـا نصبح على أبواب عصر نملـك فيه زمـامه وسلامـه، وننبذ من ورائنـا كل معـايير القوة الزائفة والمصطنعة والانطلاق إلى آفاق رحبة من المحبة والسلام .

السلوك التطبيقي والأسوة الحسنة :

ورد في الصحيح من سيرة معلم الخير عن ابن مسعود (رضي الله عنه) أنه قال :

(إذا كنـا مع النبي (ﷺ) في الصـلاة قلنـا السـلام على الله من عبـاده، والسـلام على فـلان وفلان- فقـال النبي (ﷺ) [لاتقولـوا السلام على الله فإن الله هـو السلام]، ولقـد كان الـرسول (ﷺ) إذا انصرف من الصلاة المكتوبـة استغفر ثلاثاً وقـال : [اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام].

ومن أحاديثه الشريفة [لاتدخلوا الجنـة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم].

وهذا هـو أبو بكـر الصديق (رضي الله عنه) أول خليفـة للمسلمين الذي أوصى أسـامة بن زيد أمير أول بعثة حربية في عهده فقال لـه : (لاتخونوا ولاتغدروا ولاتمثلوا ولاتقتلوا طفلاً صغيراً ولاشيخاً كبيراً ولا إمرأة ولاتقطعوا نخلاً ولاتحرقوه ولاتقطعوا شجـرة مثمرة ولاتذبحوا شاة ولابقرة ولابعيراً إلا لمأكله وسـوف تمرون على قوم فرغوا أنفسهم في الصـوامع فدعوهم وما فـرغوا أنفسهم له).

اما عمر (رضي الله عنه) :

فقد قدم عمير بن سعد على عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وقال له : (إن بيننا وبين الروم مدينة يقال لها عربسوس وأنهم يخبرون عدونا بعوراتنـا وقد بدت منهم الخيانة) وهنا يوصيه عمر (رضي الله عنـه) بأن يخبرهم بإعطاء مكـان كل شاة شـاتين ومكان كل بقـرة بقرتين ومكـان كل شيء شيئين فإن رضـوا أعطاهم مـا وعد نظير إجـلاءهم عن تلك المدينـة وإن أبوا ذلك فينبـذ إليهم ويمهلهم سنة ثم يحاربهم.

ذلك هـو السلام في الإسـلام القائم على الحق والعـدل واللذان يعتبران من ضمن العنـاصر القيمية لفهمه على الوجه الصحيح والذي لايتعارض مع الوفاء بالعهد اتقاءاً للخيانة . . ولذا لم يكن الحرب في الإسلام انفعال للعواطف دون تـرجيح نظر العقل أو التغافل عن المنهج القيمي فقد كان ينظـر أولاً من زوايا الحق والعدل ,الأمن والصبر والصدق لقيام السـلام ، ولاينظر إليه بمنظار القوة التي يملكها الإسلام أو العزة الكامنة في وجدان أفراده.

وأيضاً عمر (رضي الله عنه) هو الذي كان يوصي أميره عند عقد اللواء فيقول له :

(بسم الله . . على عـون الله أمضـوا بتأييـد الله ولكم النصر بلـزوم الحرب والصبر. . قـاتلـوا ولاتعتدوا إن الله لايحب المعتدين ولاتجبنوا عند اللقاء ولاتمثلوا عند القدرة ولاتسرفوا عند الظهور ولاتقتلوا هرماً ولا إمرأة ولا وليداً وتوقوا قتلهم . . إذا التقى الفرسان وعند حمة النبضات وفي شن الغارات نزهوا الجهاد عن عرض الدنيا وأبشروا بـالرباح في البيع الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم).

اما الإمام علي (رضي الله عنه) :

فتلك وصية خـالدة أصبحت من أهـم دروس الحروب البرية التي وضعت في الاعتبـار عند التخطيط للحرب، ونلمـح أثر الأصول القيميـة في نتائج النصر. . (سـووا صفوفكم كـالبنيان المرصوص وقدموا الدارع وأخـروا الحاسر وعضوا على الأضراس فإنه أنبى للسيوف عن السهام، والتـووا على أطراف الـرماح فإنـه أصـون للأسنـة وغضـوا الأبصار فإنـه أربط للجأش وأسكن للقلب، وأخفقـوا الأصـوات فإنه أطـرد للفشل وأولى بـالـوقار، وأقيمـوا رايـاتكم فـلاتميلوهـا

ولاتجعلوها إلا بأيدي شجعانكم ، واستعينوا بالصدق والصبر فإنه بقدر الصبر ينزل النصر) .

وتعالـوا معاً نشهـد ذلك الحوار بين هرقل وبين قـواده من الجند المهـزوم على أيدي المسلمين وهـم يلمحون إلى أثر تلك الأصول القيمية في نفوس جند المسلمين .

هرقل : ويحكم أخبروني ما هؤلاء الذين تقاتلونهم؟ أليسوا بشراً مثلكم؟ .

القواد في نفس واحد : بلى . . ويتابع هرقل كلامه متسائلاً . . أفأنتم أكثر أم هم؟ .

القواد : نحن أكثر منهم أضعافاً في كل موطن .

هرقل : ويلكم ، وما بالكم تنهزمون كلما ليقتموهم؟ .

صم . . بكم . . فهم لاينطقـون . . لكن ينبري آخـر ليقـول : أنـا أخبرك أيها الملك . . إذا حملنـا عليهم صبروا وإذا حملـوا علينا صـدقـوا ، ونحمل عليهم فنكـذب ويحملون علينـا فـلا نصبر . قوم يصومـون بالنهار ويقومون بالليل ويـوفون بالعهود ويأمرون بـالمعروف وينهون عن المنكر ولايظلمـون أحداً ويتناصفـون بينهم القداد . أما نحن نشرب الخمـر ونزني ونأكل الحرام وننقض العهد ونغضب ونأمر بما يسخط الله وننهي عما يرضي الله ونفسد في الأرض .

هرقل : صدقتني حدسي . . والله لأخرجن من هذه القرية فما لي في صحبتكم من خير؟ .

والله الهادي إلى سواء السبيل

العناصر القيمية التي تحكم السلام النفسي والسلام الدولي

لو حاولنا استشراف العناصر القيمية التي تحكم السلام النفسي والسلام الدولي في الإسلام لوجدنا أن عناصر التوازن القيمي تتعدد في معرفة العناصر الآتية :-

١ - الحق ٢ - العدل ٣ - الإيمان ٤ - الصبر

ولنا منها في القرآن شواهد نقلية هي :

عن عنصر الحق : يقول تعالى في سورة البقرة - ١٩٠ ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَاتَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَايُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ .

عن عنصر العدل : يقول تعالى في سورة البقرة - ١٩٤ ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ .

عن عنصر الإيمان : يقول تعالى في سورة النساء - ٩٤ ﴿. . وَلَاتَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً﴾ ففي هذه الآية توجيه بالأخذ بظاهر التحية وضابط الروية ، أما تحقيق القول عن إيمان قالها الإنسان أم لا . . ذلك وحده راجع لله عالم الغيب والشهادة ، فإن كان قد قالها مخلصاً فله السلامة من الله وإن كان قالها متعوذاً فالله عليه . . وتلك هي التربية الحقيقية في الإسلام لقيمة السلام التي تحمل معنى التحية فيه .

عن عنصر الصبر : قال تعالى في سورة الرعد - ٢٤ ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ . .﴾ .

والله الهادي إلى سواء السبيل

خاتمة الكتاب

خاتمة الكتاب

بعـد أن حددنـا إطارنـا المرجعي بما تجاوز العشرين قيمـة واستندت كلهـا إلى أصول قيميـة وتكلمنا عنهـا وجعلنا لكل قيمـة مستخلصة عنـاصرها القيميـة المستمدة من القـرآن والسنة، وببلوغ الإنسان منازل تلك العناصر وتبنيها وانعكاسها في سلـوكه نكون بذلك قد أكدنا على أن العقيـدة الإسلاميـة بأصولها القيميـة هي العقيـدة الحقة التي ارتبـط فيها الـدين بالأخـلاق ولم تصبح عقيـدة خاليـة من المضـامين أو القيم، بل كلها معـايير مسبقـة لما يجب أن يكون عليـه سلوك المسلم لتـؤكد الجانب العقلي فيه وتتآذر مـع الجوانب الوجدانية فليس هنـاك انفصام بين كليهما.

ليست هي عقلاً خالصـاً، أو وجداناً مشوبـاً، بل عقل ممزوج بالوجـدان ووجدان ملحوظ بالعقل.. ولايبقى بعد ذلك إلا أن نتفهمها ونتبناهـا ونسير على هداها كمن سبقنا إلى ذلك من أكابر مسلمينـا حتى ملكوا زمام الناس والأجنـاس.. جعلوا الإيمان مرهونـاً بالعمل، والعمل مرهونـاً بالعلم، والعلم مرهـوناً بالحكمة، والحكمـة مرهونة بـالخبرة، والعزة مرهونـة بالرحمة في مواطن الشـدة والصلابـة فيما يخص الدين والتقـويم، ومرهـونة بـالهبة والكـرم في مواطن الجود والسخاء.

كانـوا يؤمنون بأن العلم بلا حكمـة عيب، وبلا حلم دمار، وبلا خبرة تشكك، وبـلا عزة نفور.

كانـوا يؤمنون بأن حلم بلا ستر انتقـام، وحلم بلا غنى فقر، وحلم بـلا علم حماقة، وحلم بلا شكر جحود.

كانت التوبـة بلا رحمة ضياع، وبلا حكمة ارتكاس، وكـانت مغفرتهم ستراً ولم تكن هتكاً، قرنوها بالقوة فلم تكن جبنا.

والرحمة إذا خلت من التـوبة هناك الضيـاع، وإذا بعدت عن البر هنـاك التنكيل والعقوق،

وإذا خلت من الرأفة كان اليأس والقنوط، وإذا بعدت عن العزة أصبحت تسلط وفجور، وإذا لم تقترن بالستر كان مصيرها الرياء.

كان الغني في عرفهم توطين النفس على التوكل ونبذ التواكل والأخذ بالأسباب والوثوق كل الثقة بالله.. ولذا عرفوا أن الغني بلا عفة تذلل، ، وبلا كرم جحود، وبلا حمد نكران، وبلا حلم إسراف، وبلا عمل تواكل.

عرفوا أن الخير كل الخير من الله والشر من أنفسهم فاتقوا الله ما استطاعوا لدرجة أنهم كانوا يتركون تسعة أعشار الحلال مخافة الوقوع في الحرام.

لقد كان هدف كلاً منهم أن يكون له نصيب في الآخرة قبل أن يكون له نصيب من الدنيا، وأن يكون من ذريته الصلاح والتقى.. وكيف لايأملون ذلك وهم تربية لأشرف خلق الله، وأرحم خلق الله، وأقوى خلق الله، وأعلم خلق الله، وأبر خلق الله على الإطلاق.

وكيف لايأملون ذلك وفيهم أبي بكر وعمر وعثمان وعلي -رضي الله عنهم- والكل منهم نسيج وحده فتختلط رحمة الصديق بشدة الفاروق، وحياء عثمان بحلم علي.. لتظل روح الجماعة واحدة وإن تعددت الأنفس وتنوعت المشارب.. وكيف لايكونوا كذلك وقد كرمهم الله وأعطاهم خصائص التكريم وجعل من بعد عجزهم بأساً، ومن بعد ضعفهم قوة.

إن أقلام الكتاب وأحبار المطابع مهما حاولت الكتابة في مآثر هؤلاء البشر لن تستطيع أن تصف ما كانت عليهم نفوسهم من الرضا بالقضاء والبعد عن الجفاء وتقوى مجللة بالورع وسكينة قلب ملأ بالاطمئنان على المصيرالدنيوي والحياة السرمدية.

لقد كان لهم في رسول الله أسوة حسنة، ويوم أن يكون لنا نهج الأتباع ونوازن بين الرضى بالمادة والرضا بالروح، ويكون لنا صدق الاختيار. آنها نرى التغير على وشك أن يأخذ مكانه في نفوسنا.. ذلك هو التغيير المستهدف الذي يكمن في نبذ القيم الوضعية والاصطلاحات النفعية والالتجاء إلى القيم الحقيقية التي شرفنا بها الإسلام ضمن عقيدة لاتخطىء الملاذ تؤمن بأهمية العقل وبضرورة الوجدان.. ومن ثم يصبح التغيير هو تغيير وفق منظور قيمي يستند لإطار مرجعي كدعامة أساسية للسلوك السوي وشرط أساسي لتحقيق التوازن في الفعل الحركي أو السلوكي للإنسان.. يومها يصبح الإنسان رقيباً على قوله وفعله وعمله لأن عين الله ترعى من كرمه وتحفظ من عافاه وترقب من سواه، وترحم من والاه، ومن ثم يكون التوفيق والنجاح.

وإذا كنا ندعو لتبني تلك القيم، ومعرفة تلك الأصول القيمية فإننا نريدها لذاتها ولتنعكس علينا سلوكها فإذا كنا نرغب في العزة والقوة والحلم والرحمة.. إلخ. فإننا

نرغب كل ذلك لذاته ومن أجل أن نرى الرضى النفسي هو مثار السلامة والاطمئنان على المصير الدنيوي والأخروي ولاهتداء الفطر السليمة في الإنسان إلى خصائص التكريم الإنساني ونبذ ما علق بها من غواية حملت معها الشر وكادت أن تقضي على خير النفس، كذلك من أجل تحقيق التوازن المطلوب أو المستهدف من أفعالها وتغليب الجانب الخير في النفس والإنقياد إليه بأمر من عقل وشرع لايتعارض مع ما فطرت عليه بل وتأكيداً لما جبلت عليه.

كذلك يجب أن نفهم بأن تلك الأصول القيمية لم تتضمنها الشريعة الإسلامية فقط، بل أكدتها الوصايا والشرائع السماوية السابقة، ولم ترجع منا إلى إلهام وبصيرة يشوبها قبس من التحمس الديني أو الاستعلاء العقيدي وذلك مايجعلها عالمية في نشأتها، عالمية في دعوتها . . فمن يرتضي الذلة بديلاً بالعزة، والظلم بديلاً بالعدل، والباطل بديلاً بالحق، والسفه والطيش بديلاً بالحلم، والنكد والهم بديلاً بالصبر، واليأس والقنوط بديلاً للرحمة، والعقوق بديلاً بالبر، من يرتضي ذلك من أي لون وجنس؟ . . من يرتضي بالاستسلام بديلاً عن السلام، وبالخوف بديلاً عن الأمن، ويذرع في مكان الحب بغضاً وكراهية.

إن الإنسانية لاتشتري ولكن تؤخذ بالإحسان . . ويبقى المحك الأساسي في كفالة التطبيق ليعرف العالم بأجمع قيمة الكرامة في الإسلام . . تلك التي جعلت الإنسان سميعاً بصيراً، رؤوفاً حكيماً، عفواً كريماً إلى آخر ما سقناه سابقاً وأكدنا عليه وكان لظاهرة الإقران في القرآن والتكرار للأسماء والصفات مغزى ومعنى ومحور تدور عليه العقيدة الحقة وتلازم وقعها في السياق القرآني للتدليل على أنها هي المعيار الوحيد للألوهية والربوبية ومعايير حقيقية للبشرية ليحس الإنسان بقيمته في الوجود ومدى ما ناله من تكريم، وليستوحي سلوكه بعد ذلك من نبع إرادي موصل المدد بإرادة من أوجده على ظهر الأرض.

إنها قضية الإنسان وعليه أن يحل لغزها بنفسه وأن يكتشف خصائص التكريم فيه، وأن تهجع نفسه إلى درك الحقيقة الكبرى، وأن يرتفع إلى المستوى اللائق به كإنسان، وإلا سيحكم على نفسه مرة أخرى بالهبوط من أرقى درجات السعادة إلى أحط درجات الشقاء.

والله الهادي إلى سواء السبيل

التوصيـــات

إذا كان لنا كلمة نقولها فيما نهدف إليه من توصيات فتلك هي :

١ - التنويـه إلى أن الدراسات الأخـلاقية الإسلامية المستقبليـة يجب أن تؤكد القيم الـدينية في الإسلام والخصـائص الإنسـانيـة فيها بما لايخرج عن تلـك الأصول القيمية بـل وتدور في فلكها كل القيم المستنبطة وفقاً لمقتضيات العصر وكل عصر .

٢ - رغماً من محاولتنا التحدث عن كل قيمة بعد إستخلاصها إلا أن تحدثنا عنها لم يلقى بظلاله على جميع الجوانب التي تـدعم القيمة ، بل تنـاولنـاها فقط بلـزوم التوضيح العـام وليس ذلك تقصيراً منـا بل قـد يكـون في ذلك إفساح المجـال لكل متخصص في تنـاول القيمـة وإبرازها من أي جانب يدعم مفهومهـا ، ومن ثم نكون قد حددنا الإطار المرجعي للقيم الأخلاقية في الإسلام حالياً بما يجاوز العشرون قيمة مستخلصة من الأصول القيمية البالغ عددهـا تسعة وتسعون أصـل قيمي ، ومن ثم فالبقية البـاقية من مبـاحث القيم ستصدر تباعاً إن شاء الله .

٣ - يجب أن يكون هناك شبـه إتفاق على تعريف القيمـة الخلقية في الإسلام باعتبـارها أحكام تملي على الإنسان مـايفعل ومايترك ، تجيز لـه أو تحرم عليه ولاشأن له في ذلك غير الطـاعة والإذعان طالما في النهاية تـؤدي به إلى خلق عناصر التوازن في الفعل الحركي أو السلوكي برضاً منه ودون إجبار .

٤ - يجب أن لاتقتصر جهـود البـاحثين على جعل مبـدأ التـوازن القيمي هـو المبـدأ الأسـاسي لأخـلاق الإسلام طـالما يتكشف للبـاحث مبدأ آخـر يُعلي من شأن الأخـلاق الإسلاميـة ويكون له أصل ثابت في العقيدة ويبعد عن تلك النظرات النفعية .

٥ - نـريـد أن نـرى الأصل القيمي ومـايستخلص مستقبـلاً من القيم مـدعم دائماً بـالسلـوك التطبيقي من واقع الأسـوة الحسنـة وسير الصحـابـة والتـابعين ، أو من واقع التراث

الإسلامي العربي، أو التراث الإنساني عموماً طالما يسير خارج نطاق تلك النظرات النفعية ويلقى بأضواء جديدة على معنى ذلك الأصل القيمي .

٦ - ضرورة إقامة حوار على مستوى العالم الإسلامي تتبناه المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم لتناول مفهوم القيم الأخلاقية في الإسلام بأصولها القيمية ، ويدعم بجهد إعلامي مكثف مع نشر الأبحاث والتوصيات ، كذلك تعميق معنى السلام النفسي والسلام الدولي .

٧ - أن تأخذ الدعوة للقيم الجديدة مكانها في وسائل الإعلام العربية وفي مناهج التربية الحديثة ليصوغ المؤمن نفسه وفق إيحائها .

والله الهادي إلى سواء السبيل

تقريظات وآراء

كلمة الأستاذ أحمد الصباحي عوض الله

عضو لجنة التعريف بالإسلام - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

ماشاء الله .. لا قوة إلا بالله ..

وبعد . . .

فقد راجعت بعون الله وتوفيقه ، كتاب .. أسماء الله الحسنى ..

(الأصول القيمية والمعاني السلوكية في الإسلام)

تأليف الأستاذ : عبدالعظيم إبراهيم فرج . ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

فوجدته : كتابا قيما في أصله وفصله ، في موضوعه ومضمونه ، في ألفاظه ومعانيه ، يقوم على دراسات موضوعية ، مفصلة ومرتبة ومتينة للتصحيح في جملها وتفصيلاتها .

- فقال فصدق ، وأرشد فهدى ، وعلم فأفاد ، وجمع فأوعى .
- يشرف المكتبة المصرية والعربية والإسلامية في كل مكان .
- وفي طبعه ونشره خير كثير ، ونفع عظيم ، وثراء إسلامي وعلمي واسع النطاق لكل من قرأه من المسلمين ، وعسى أن سيكون هاديا لمن قرأه من غير المسلمين .
- دل على صاحبه ومؤلفه وكاتبه ، فضيلة الأستاذ عبدالعظيم إبراهيم فرج ، أنه رجل مسلم تقي ، وعالم فاضل ، متمكن من علمه ، صادق في أدبه الحسن مع الله ، وفي حنفه الإسلامي مع قرنه المسلمين وغير المسلمين ، وهو الذي دل على هذا الكتاب فكره وعلمه وقلمه ، والدال على الخير كفاعله .
- كنت أشعر باستمرار تفيض أثناء تراسلي لهذا الكتاب الطيب ، وأنني في حضرة قدسية ، أردد دائما لفظ الجلالة سبحانه - الله - الله - الله ، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ومباركات أسمع بحمد الله واستغفره . داعيا الله العظيم - المؤلفه - أن يمنح عليه فتوح العارفين ، وأن يكثر من أمثاله للمسلمين ، وداعيا لنفسي ، أن ينفعني الله بعلمه ، وصحابته ، وكان ومايزال إلهامي الروحي يقظة ومناما .. أن الله سبحانه وتعالى استجاب لدعائي ، فقد خرجت من دراسة هذا الكتاب الجامع بروحانية ربانية .
- وأرجوا أن ينال كل من قرأه - مثلي - باهتمام وإخلاص وتدبر وإيمان وتسليم - فضل الله وثوابه ، وسلامه ورحمته وبركاته ، وأن يكون نفعه الديني والعلمي ، عائدا على الجميع - مؤلفا وقارئا ومستمعا ومتنقلا - في الحياتين الدنيا والآخرة .

وصلى الله على سيدنا محمد : عبدالله ووليه ونبيه ورسوله الصادق الأمين .

وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

٢٤/١٢/١٩٩٠م

أحمد الصباحي عوض الله
عضو لجنة التعريف بالإسلام
بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الدكتور محمد نايل أحمد

... جامعة الأزهر سابقاً

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ..

وبعد . . . فهذا بحث جديد ، فيه طرافة ومتعة ، إلى جانب مافيه من فائدة جليلة ، وثراء فكري كبير .

هو جديد في موضوعه ، إذ هو سياحة فسيحة حول القيم الدينية والإنسانية ، طاف حولها الباحث في صبر وجلد وأناة .

وهو جديد في منهجه ، لمن في التحليل والتعليل والاستقصاء والبسط ، محيط بموضوعه ، مستوعب له من كل جنب .

وهو جديد في عرضه ، صادر عن لمحات صوفية ، ونظرات فلسفية وخلقية في إطار من الروحانية الندية الواعية

..

ومن الصدق مع النفس أن أقول إنني لست من رجال الغوص الصوفي ، حتى أسبح في أعماقه ، ولست من رجال الاجتماع بمفاهيمه الحديثة ، وأرجائه الفسيحة ، حتى أطوف في آفاقه .

ولقد قرأت البحث ، أو أكثره ، غير مرة ، قراءة متأنية متأملا ، حتى أحسست من كل مشاعري أنني لست مؤهلا لإبداء الرأي فيه ، أو إصدار حكم في قضاياه ، وأن غيري من علماء التصوف وعلماء الاجتماع هم المؤهلون لهذا الأمر ، بحكم تفاقهم وانتمائهم إلى هذا اللون من البحث والدراسة .

ولست أملك في هذا المجال إلا الثناء على الباحث ، وإنني أدعو له أن يجزيه عن جهده المبذول خير الجزاء ، وأن ينفع به جمهور القراء وعشاق الثقافة في عالمنا الإسلامي والعربي .

د/ محمد نايل

مصر الجديدة في / ليلة السابع عشر من رمضان المكرم ١٤٠٩هـ
الثالث والعشرين من أبريل ١٩٨٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الدكتور يس عبدالرحمن قنديل

قسم المناهج وطرق التدريس - الكلية المتوسطة لإعداد المعلمين بالرياض

إن الحمد لله . . .

لقد قرأت كتاب الأستاذ «عبدالعظيم فرج» المعنون (أسماء الله الحسنى : الأصول القيمية والمعاني السلوكية في الإسلام) فتذكرت على الفور بحثا كنت قد بدأته قبل عام حول مصادر اشتقاق الأهداف التربوية العامة في نظم التعليم الإسلامية ، وقد توقفت عن العمل في هذا البحث لصعوبة القيام بتحليل بعض المصادر ، وصعوبة حصر هذه المصادر من جانب آخر ، وكانت الأهداف المتعلقة بالقيم هي أكثر الأهداف صعوبة من حيث حصر مصادرها واشتقاقها وفق أسس سليمة من هذه المصادر .

وكتاب الأستاذ «عبدالعظيم فرج» يقدم خدمة كبيرة للتربويين العاملين في مجال الأهداف التربوية : اشتقاقها وصياغتها ، فقد وجدت فيه ماكنت أريد ، القيم التي مابعدها قيم إذ أنها مشتقة من مصدر سام وهو صفات الله سبحانه وتعالى وأسمائه ، وما أحوجنا نحن التربويين بحاجة إلى تربية تهدف إلى أكثر من الوصول بالنشء إلى أبعد من هذه الصفات ، وهل بعد صفات الخالق من شيء سبحانه؟! .

إنني أدعو الله متضرعا أن يمد في عمر الباحث حتى ينتهي من اشتقاق الأصول القيمية والمعاني السلوكية لبقية أسماء الله الحسنى ، حيث أن عمله الذي تم ، قد اقتصر على ثلاثة وعشرين إسما ، كما أدعو الله أن يكتب له هذا الجهد في ميزان حسناته ، وأن ينفع المسلمين به في دنياهم ، وينفعه به في آخرته ، إنه هو السميع المجيد ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحابته والتابعين .

الدكتور يس عبدالرحمن قنديل
قسم المناهج وطرق التدريس
الكلية المتوسطة لإعداد المعلمين بالرياض

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الدكتورة سوسن عثمان

عميد المعهد العالي للخدمة الاجتماعية بالقاهرة

قام الأستاذ عبدالعظيم إبراهيم فرج عضو لجنة الإعلام والنشر بالجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون بالرياض بعمل جيد - أرجو من الله العلي القدير أن يثبه عليه بمايستحق فلقد أقدم على اقتحام موضوع من أهم الموضوعات وأصعبها أعتقد من وجهة نظري أن الساحة العربية بل العالمية في مسيس الحاجة إليه .

فموضوع القيم الأخلاقية موضوعا بالغ الأهمية في عالم سيطرت عليه المادية بصورة أصبحت تهدد وجوده وكيانه .

وترجع أهمية هذه الدراسة أيضاً إلى أنها حاولت بكل صدق وموضوعية مناقشة أهم القضايا المرتبطة بالقيم .

ولقد حاول الباحث أن يجد إجابات على أصعب الأسئلة معتمداً على مصادر دنيوية متمثلة في التراث الفكري (الغربي والشرقي) من جهة والتراث الإسلامي متمثلاً في القرآن الكريم والسنة من جهة أخرى .

ولم تقتصر الدراسة على الشرح والتحليل والتفسير فقط - بل أنها أيضاً وصلت إلى توظيف ما وصلت إليه إلى دور الدعوة العلمي لبيان حقيقة الأخلاق الإسلامية وماتحمله من أصول قيمة .

لهذا :

يعتبر هذا البحث إضافة جيدة للمكتبة الاجتماعية والإسلامية نحن في حاجة ماسة إليها وإلى المزيد من الكتابات والبحوث المكملة له .

ولست أملك في هذا المجال إلا الثناء على الباحث الذي قدم بحثاً جديداً فيه طرافة ومتعة وثراء فكري كبير تناول بشجاعة موضوع صعب قلت فيه الكتابات رغم أهميته .

أتمنى للباحث التوفيق والمزيد من خدمة الإسلام .

أ. د. سوسن عثمان
عميد المعهد العالي للخدمة الاجتماعية
بالقاهرة

المراجع

المراجـــع

(أ) الدراسات القرآنية والتفاسير :

١ - ابن العماد : كشف السرائر في معنى الـوجـوه والأشبـاه والنظـائر، تحقيـق ودراسـة الدكتور/ فـؤاد عبدالمنعم أحمد ومراجعة د. محمـد سليمان داود، ط ١ ، اسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة .

٢ - ابن تيميـة (الإمام أحمد بـن عبدالحليم) : القـرآن كـلام الله، جمع عبدالـرحمن قـاسم وولده، مجلـد ٢ - فتاوي الإمام - مطـابع الرياض، إشراف الـرئاسة العامـة لشئون الحرمين الشريفين، ١٣٨٢هـ.

٣ - ابن الجوزي (جمال الدين أبي الفـرج بن علي) : منتخب قرة العيون النواظـر في الوجوه والنظـائر في القـرآن الكـريم، تحقيق ودراسـة محمـد السيـد الصفطـاوي، د . فـؤاد عبدالمنعم أحمد، اسكندرية، منشأة المعارف.

٤ - ابن الجوزي (جمال الدين أبي الفرج بن علي) : نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، جـ١ ، ٢ تعليق مهر النساء، ط١ سلسلة مطبوعات دائرة المعارف الإسلامية حيدر أباد الدكن، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

٥ - ابن نـافيـا البغـدادي: الجمان في تشبيهـات القـرآن، تحقيق د. أحمد مطلـوب، د. خديجة الحديثي، بغداد، دار الجمهورية، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م.

٦ - الدمشقي (أبي زكـريا يحي ابن شرف النووي) : رياض الصـالحين، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٧ - الـزجـاج (أبي اسحق بـن السري) : تفسير أسماء الله الحسنى، حققـه ونشره أحمد يوسف الدقاق، مطبعة محمد هاشم الكتبي، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

٨ - سيـد قطب إبراهيـم : في ظلال القـرآن، ط٥ القـاهرة، دار الشروق، ١٣٩٦هـ/ ١٣٩٧هـ، الطبعة الشرعية الخاصة ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

٩ - عبدالرحمن عليش : الجواهر العلية من أسماء الله الحسنى القرآنية، ط١، ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م.
١٠- الغزالي (محمد أبو حامد) : المقصد الأسني في تفسير أسماء الله الحسنى (بدون).
١١- محمود سامي : المختصر في معاني أسماء الله الحسنى، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
١٢- محمد سليم : أسماء الله الحسنى، القاهرة، المختار الإسلامية.
١٣- محمد علي الصابوني : صفوة التفاسير، ط١، الأقسام من ١-٢٠، بيروت، دار القرآن الكريم، ١٩٨١م.
١٤- محمد فؤاد عبدالباقي : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار ومطابع الشعب، القاهرة.
١٥- محمد متولي الشعراوي : المنتخب من تفسير القرآن الكريم، الأجزاء من ١-٣، بيروت، دار العودة، ١٩٨١م.
١٦- مخلوف (حسنين محمد) : أسماء الله الحسنى والآيات الواردة فيها، دار المعارف، القاهرة.
١٧- النيسابوري (أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي) : أسباب النزول، ط ١، بيروت، دار ومكتبة الهلال، ١٩٨٣م.

(ب) السنن :

١ - ابن حجر العسقلاني : فتح الباري بشرح صحيح البخاري.
٢ - أحمد ابن حنبل : مسند الإمام أحمد، بيروت، دار سادر.
٣ - علي المتقي الهندي : كنز العمال.
٤ - محمد بن إسماعيل البخاري : صحيح البخاري بحاشية السندي، عيسى البابلي الحلبي، القاهرة.

(جـ) السيرة النبوية :

١ - ابن كثير (الإمام أبي الفداء إسماعيل) : قصص الأنبياء، ط١، دار عمر بن الخطاب، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
٢ - مصطفى السقا وآخرين : السيرة النبوية - القسم الأول والثاني، الأجزاء ١-٤، دار الكنوز الأدبية.

٣ – عبدالسلام هارون : تهذيب سيرة بن هشام، ط ١٣٩٦٢هـ/ ١٩٧٦م، المؤسسة العربية الحديثة.
٤ – الإمام محمد بن عبدالوهاب : مختصر سيرة الرسول (ﷺ) ط١ ، المكتبة العلمية ، بيروت.
٥ – محمد حسين هيكل : حياة محمد (ﷺ) ط١٣ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة.
٦ – محمود سامي : المختصر في الشمائل المحمدية وشرحها لأبي عيسى الترمذي، ط١ ، مطبعة مصر، ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م.
٧ – نادية شريف العمري : اجتهاد الرسول (ﷺ) ط١ ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، مؤسسة الرسالة.

(د) الأخلاق والآداب :
١ – ابن تيمية (الإمام أحمد بن عبدالحليم) : كتاب السلوك، ط٤ ، مطابع الرياض، ١٣٨١هـ.
٢ – د. أحمد عبدالرحمن إبراهيم : الفضائل الخلقية في الإسلام، ط١ ، الرياض، دار العلوم، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
٣ – الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد) : كتاب الكبائر.
٤ – الغزالي (محمد أبو حامد) : ميزان العمل، تحقيق د. سليمان دنيا، ط١ ، دار المعارف، ١٩٦٤م.
٥ – القشيري (عبدالكريم) : الرسالة القشيرية (الجز الثاني) القاهرة، دار الكتب الحديثة، تحقيق الدكتور/ عبدالحليم محمود.
٦ – محمد أحمد جاد الولي : الخلق الكامل، جـ١-٤ ، ط١ ، القاهرة، المطبعة العثمانية، ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م.
٧ – محمد عبدالله دراز : دستور الأخلاق في القرآن، دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن، تعريب وتحقيق الدكتور عبدالصبور شاهين، مراجعة الدكتور محمد السيد بدوي، ط١ ، القاهرة، مؤسسة الرسالة، دار البحوث العلمية، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.
٨ – محمد الغزالي : خلق المسلم، ط٨، مطبعة حسان، القاهرة، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٤م.
٩ – د. محمود القاضي، د. مقداد يالجن : التربية الأخلاقية في الإسلام.

١٠ - مقداد يالجن : الاتجاه الأخلاقي في الإسلام، دراسة مقارنة، ط١، مكتبة الخانجي، مصر.

(هـ) العقائد :

١ - ابن تيمية (الإمام أحمد بن عبدالحليم) : شرح العقيدة الواسطية للعلامة محمد خليل هراس، مراجعة الأستاذ الكبير عبدالرزاق عفيفي، ط٤ من مطبوعات الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، مؤسسة مكة للطباعة والإعلام.

٢ - أبي العز لحنفي : شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق ومراجعة جماعة من العلماء، وخرج الأحاديث محمد ناصر الألباني، ط٦، مطبوعات المكتب الإسلامي، بيروت ١٤٠٠هـ.

٣ - عباس محمود العقاد : الله، القاهرة، دار المعارف.

(و) الفلسفة والاجتماع :

١ - د. أحمد عبادة سرحان، د. فاروق عبدالعظيم : الإحصاء، ط٢، ١٩٨٧م.

٢ - أحمد فؤاد الأهواني : القيم الروحية في الإسلام، ١٩٦٢م.

٣ - د. أحمد ماهر البقري : القيم الخلقية في الإسلام، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٤٠٣هـ.

٤ - ابن خلدون (عبدالرحمن) : المقدمة، ط٥، بيروت، دار الكتاب العربي.

٥ - د. زكي نجيب محمود : من زاوية فلسفية، ط١، القاهرة، دار الشروق، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٦ - د. زيدان عبدالباقي : أسس المجتمع الإسلامي والمجتمع الشيوعي، دراسة مقارنة، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٦م.

٧ - د. سيد أبو بكر حسانين : طريقة الخدمة الاجتماعية في تنظيم المجتمع، مكتبة الأنجلو المصرية.

٨ - عباس محمود العقاد : الفلسفة القرآنية، ط٢، بيروت / دار الكتاب العربي ١٩٦٩م.

٩ - عبدالعزيز عبدالله : الفلسفة والأخلاق عند ابن الخطيب، ط٢، بيروت، دار الغرب الإسلامي ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

١٠ - د. عطية محمود هنا : دراسات حضارية مقارنة في القيم، ١٩٥٩م.

١١- فوزية دياب : القيم والعادات الاجتماعية، ١٩٦٦م.
١٢- د. لطفي بركات أحمد : القيم والتربية، الرياض، دار المريخ للنشر، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
١٣- د. محمد فتحي عثمان : القيم الحضارية في رسالة الإسلام، ١٩٨٢م.
١٤- د. محمد نبيل السمالوطي : المنهج الإسلامي في دراسة المجتمع، دراسة في علم الاجتماع الإسلامي، ط١، جدة، دار الشروق، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
١٥- د. محمد يوسف موسى : فلسفة الأخلاق في الإسلام وصلاتها بالفلسفة الإغريقية.
١٦- د. نجيب اسكندر، د. محمد عماد الدين إسماعيل، د. رشدي فام : قيمنا الاجتماعية وأثرها في تكوين الشخصية، الأنجلو المصرية، ١٩٦٥م.
١٧- يوسف حسين طاهر : أبحاث في الفقه والفلسفة : المطبعة العالمية، مصر، ١٩٥٥م.

(ز) التصوف :

١ - الحاتمي (محي الدين بن عربي) الفتوحات المكية، بيروت، دار صادر.
٢ - السيد محمود أبو الفيض المنوفي : التصوف الإسلامي الخالص، القاهرة، دار نهضة مصر.

(ح) اللغة والتراجم :

١ - أبي هلال العسكري : الفروق اللغوية، ط٥، بيروت، دار الأفاق الجديد، ١٤٠٣هـ.
٢ - الذهبي (الإمام شمس الدين محمد بن أحمد) : سير أعلام النبلاء، جـ١، ٢، تحقيق وتعليق شعيب أرناؤوط، حسين الأسد، ط١، مؤسسة الرسالة.
٣ - الرازي : مختار الصحاح، استنبول، ١٩٨٠م.
٤ - عباس محمود العقاد، عبقرية عمر، نهضة مصر، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
٥ - عبدالفتاح الصعيدي : الإفصاح في فقه اللغة، جزء ١، ٢.
٦ - الفيروز آبادي : القاموس المحيط، عيسى البابلي الحلبي، القاهرة.
٧ - الفيومي : المصباح المنير، المطبعة الأميرية، القاهرة.
٨ - الكاندهلوي : حياة الصحابة، جـ١، ٢ ط٢، دار القلم، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

(ط) المراجع العامة :

١ - ابن قيم الجوزية : طريق الهجرتين وباب السعادتين، بيروت، دار الكتاب العربي.

تصويبات

وردت بعض الأخطاء التي سقطت سهواً في الصف أو أثناء المراجعة نتداركها - بإذن الله - وننبه إليها القارىء

مسلسل	رقم الصفحة	السطر	السهو / الخطأ	التصحيح
١	١٢ فهرست	الأول	٩٦	٩٦، ١٦٥
٢	٢٣	١٧	(فَلَا تَمُتُنَّ . . . . . .) الآية	(فَلَا تَمُوتُنَّ . . . . . .)
٣	٥٧	السطر الأول السطر الثاني	﴿... أَلَّا تَعْبُدُا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ ﴿رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو. . .﴾	﴿... أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ ﴿رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُوا. . .﴾
٤	٧٩	٣ أيسر ٤ أيسر ١٧ أيسر	لعناصر القيمية للحلم لعناصر القيمية للعلم لعناصر القيمية للحق	العناصر القيمية للحلم العناصر القيمية للعلم العناصر القيمية للحق
٥	٩٥	١٢، ١٣	تشكيل بقية الآية	﴿. . فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾
٦	٩٦	١٦، ١٧	﴿. . . . ان الله عليم قدير﴾ بدون تشكيل	﴿... إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾
٧	١١٩ ١١٩	٥ ١٨	مريم : . . . .﴾ ليس لها بداية ولها نهاية	فتح قوس الآية بعد مريم: ﴿ ليس لها بداية ولا نهاية
٨	١٢١ ١٢١	١٧ ١٤	. . . . . هي الموعد الحق. . . . كسر (مِن) في الآية	. . . . هي الوعد الحق. . . . فتح (مَن) في الآية
٩	١٢٨	١٦	سورة البقرة ٣٣٨	سورة البقرة ٢٣٨
١٠	١٤٣	السطر الثامن	﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيِّتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَاهُ لَهُ . .﴾	﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ . .﴾
١١	١٧٤	٢٩	(من أحسن بشيء...)	(من أحس بشيء...)
١٢	١٨٥	١	الشهيد هو الله الذى.	الشهيد هو الله الذي. . . . .
١٣	١٩١	٤	رغم اختلاق عقائدهم. . . .	رغم اختلاف عقائدهم. . . .
١٤	٢٠٧	٢٤	لقلنا بأن فيه محابة. . . .	لقلنا بأن فيه محاباة. . . .
١٥	٢١٥	١٧	ولعظم شأنه. . . . . وسماء	ولعظم شأنه. . . . . وسماه
١٦	٢٣٧	١٧	عن الفواحش والأقدار	عن الفواحش والأقذار
١٧	٢٤٠	٧	ان بيننا وين الروم	ان بيننا وبين الروم
١٨	٢٤٢	٦	﴿. . وَلَا تَعْتَدُواْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾	﴿. . وَلَا تَعْتَدُواْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾
١٩	الغلاف الخارجي الأيسر	١٨	وما تحمله من أصوله قيمية	وما تحمله من أصول قيمية

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ صدق الله العظيم.

والحمد لله رب العالمين

رقم الإيداع ١٠٧١٦ / ٢٠٠٠م